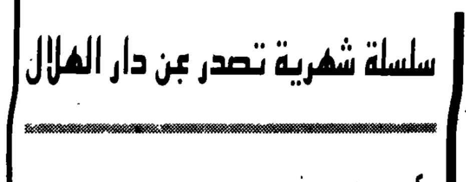
د. أحمد السّيّد عوضين

المازني
بعد نصف قرن

KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٨ – ذو الحجة – ابريل ١٩٩٨ No. 568-AP-1998

فاكس FAX-3625469

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٧٠ ليرة – لبنان ٥٠٠٠ ليرة – الأردن ٢٠٠٠ فلس – الكويت ١٥٠٠ فلس – السعودية ١٥ ريالا – البحرين ١,٥ دينار – قطر ١٥ ريالا – دبي / أبوظبي ١٥ درهما – سلطنة عمان ١,٥ ريال

المــازنى
بعد نصــف قــرن

بقــلم

دكتور / أحمد السيد عوضين

●

دار المعرفة

الغلاف للفنان
حلمى التونى

مطلع الحديث ..

إن الحـــديث عن «المازنى» – أو قل : مـع المازنى – لهــو من أحب الأحاديث إلى النفس ، وأكثرها إثارة للشوق ، وللبهجة فى الوقت نفسه، لأنه إنما يدور حول رجل نذر نفسه للقلم ، ظل طوال حياته وفيا لفكره ، ولفنــه ، يبدع ، ويعطى دون أن يتـوقـف عطاؤه إلا مع توقف نبـضـات القــلب . بل إننى لأعتقـــد أن هذا العطاء مـــازال مستمرا لم يتوقف بعد ... فكلما نعيد قراءة ابداعاته – ونطالع أفكاره – حتى بعد نصف قرن من وفـاته ، فإننا نجـد فيـها الجديد ، ونجد أنفسـنا إزاءها وكأننا نعيش مع كاتب يقاسمنا حياتنا ، ومتاعبنا ، وهمومنا ، فيمسك قلمه ليحدثنا عما يشغلنا ، ويأتى حديثه جميل الوقـع ، طيب الأثـر ، بما تميـز به من نبـرة صـدق ، وعـمق فكر ، ونزعـة فـن تتمـثل فى الكلمـة يختارها ، فى العبارة يصوغها ، فى الصورة يرسمها ... وقد أسبغ على ذلك كله من روحه السمحة ، وسـخريته الحـانية ، وفكاهته العميقة، ما يجعل كلامه متميزا ، وإبداعه متفردا ، له طابعه الدال عليه ، وعلى أن صاحبه هو «المازنى» – دون سواه – بل إننى لا أبالغ إذا قلت أن كثيرا مما كتب – وأبدع – كان يستشرف المستقبل القادم ، والذى لم نبلغه

بعد .. فهو – بحق – ذلك الذى يصدق عليه قول القائل : كان يسبق زمانه .

فمن هو هذا «المازنى» الذى نتحدث عنه .. أو نتحدث معه ؟

وماذا لدينا لنتحدث به إليه ؟ وماذا لديه ليحدثنا به ؟

وما هى مكانته ، أو ما هو مكانه بين أدباء العربية ؟

وما هو دوره الذى أداه فى مجالات الفكر والفن – بصفة عامة ... ؟

وما الذى يميزه عمن سواه ، ويجعلنا نخصه بهذا الحديث ؟

وما جدوى الحديث عنه – أو معه – وقد أوشك نصف قرن أن يكتمل منذ رحيله ؟

أسئلة كثيرة لا نهاية – ولا حدود – لها .. ونحن لا نقول إن هذه الاسئلة انما ترسم لنا «خطة» البحث ، و«منهاج» الدراسة ، فنحن لن نلتزم بها ، ولا بترتيبها فى حديثنا عن – أو مع – المازنى ، ولكننا نطرحها فى مطلع الحديث لنشير إلى أن الحديث عن المازنى متعدد الجوانب ، فسيح الرحبات ، ومهما قلنا – أو قال سوانا – عن المازنى فلن نوفيه حقه ، ولن نفلح فى الكشف عن كل ما قدم من فكر ، وما أحدث من أثر ، وما أهدى من إبداع بعد ابداع ، وما قدم من أفكار وأفكار ، وما عالج من مشاكل ، وأزكى من مشاعر ، وقدم من حلول – وأرسى من أسس فى مجالات الفكر والإبداع والنقد جميعا

ومع ذلك فلابد لكل بحث من جوانب يلتزمها ، ومن مجال يدور حوله، ومن أسلوب يتبعه ، ولابد لصاحب البحث أن يوضح فى مطلع بحثه : موضوعه ، ومنهاجه ، وغايته ، وإلا وصف بحثه بأنه كلام مرسل ، لا يلتزم الأسلوب العلمى الأصيل .. وقد كان ذلك بعض ما أخذ على المازنى ، إذ وصفه أكثر من باحث بأنه لا يلتزم خطة محددة ، وإنما يمضى مع قلمه كيفما اتفق دون أن يلتزم منهجا محددا ، بل وبدون أن تكون لديه خطة مسبقة لما ينتوى قوله .. !! - كما قيل بأنه أسير الاستطراد فى القول ، والتشعب فى الحديث ، حتى إن الجمل الاعتراضية لتكون ظاهرة أساسية فى كل كتاباته .. !! وإذا لم نكن بصدد مناقشة هذا الرأى وأمثاله - ونحن مازلنا فى مطلع الحديث - فإن لنا أن نقرر منذ البداية أن مثل هذا القول إنما هو نفسه القول الذى لا يلتزم منهجا محددا ، وإنما يقف عند ترديد بعض الأحكام المعدة مسبقا ، والتى لا مجال - بل لا سبيل - لإعمالها - أو تطبيقها - على إبداع المازنى بالذات .. فهو إبداع يعلو على «القوالب» ، أو «النماذج» المعروفة ، لتفرده ، وتميزه ، ولكونه إبداعا «مازنيا» خالصا .. نقول ذلك رغم عشرات الأبحاث التى ذهبت حينا إلى أنه انما أخذ عن الجاحظ أسلوبه ومنهجه فى الكتابة ، وذهبت حينا آخر إلى وصف بعض ما قدم المازنى بأنه «مسروق» أو «مقتبس» - إذا استعملنا لغة

العصر – ممن سبقوه .. فقد تجاهلت تلك المقولات أن عسل النحل المصفى إنما هو نتاج متفرد ، وإن كان مصدره ما حولنا من زهور وأشجار ، ولكنه يخرج من بطون النحل شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .. !!

ولا نطيل ، ونبادر إلى القول بأن هدفنا لا يعدو تقديم صورة لأديبنا الكبير تقربه إلى أبناء جيلنا المعاصر الذين لم يصاحبوه فى حياته ، ومن ثم فلم يتح لهم أن يطالعوا مقالاته عند ظهورها ، أو يتابعوا انتاجه كتابا بعد كتاب ، فضلا عن عدم معرفتهم به صورة وصوتا عبر شاشات التليفزيون .. ! ومن ثم فالمازنى عندهم «اسم» ضمن عشرات الأسماء التى تتردد على اسماعهم على ألسنة من يتحدثون عن أدباء العصر ممن مهدوا للنهضة التى نجنى ثمارها ، ونجاهد لتواصل مسيرتها ...

ونحن نريد أن نقول أن المازنى لم يكن مجرد اسم بين الاسماء ، ولا أديبا مثل غيره ممن يوصفون بالأدباء ، وإنما كان نسيج وحده ، و«عالما» – بفتح اللام – له ذاتيته وسماته التى لا يشاركه فيها سواه .. فهو الأديب حتى أطراف أصابعه – كما وصفه أحد من كتبوا عنه [١] وهو الكاتب صاحب الأسلوب المتميز الذى يدل على صاحبه من بين مئات الكتابات ، وهو الروائى ، وهو القاص المبدع الذى يعد أحد الرواد

---

(١) الأستاذ / صلاح عبد الصبور .

الذين أرسوا دعائم فن القصة الحديثة فى العالم ، وهو الناقد الأدبى - والسياسى أيضا - الذى تفرد بعمق النظرة ، وموضوعية البحث - وحدة النقد فى بعض الأحيان - وهو العالم بشئون وطنه الأصغر : مصر ، وأحوال وطنه العربى الأكبر - وبأحوال العصر كله فى مختلف مواطن الحضارات - وهو بعد ذلك الرجل صاحب الروح الحلوة ، الطيبة، والنفس السمحة ، والقلب العطوف ، وهو - فى نفس الوقت - صاحب الأسلوب الساخر حينا ، الفكه فى أحيان أخرى .. ولكنها السخرية الرفيعة ، والفكاهة العميقة ، وكلتاهما وإن تضمنتا نقدا ، فهو النقد البناء . ولا ننسى أنه كان فى ذلك كله صاحب «مدرسة» ، بل صاحب «مدارس» ، وليست «مدرسة الديوان» إلا إحداها .. وأخيرا هو ذلك الشاعر المبدع ، الذى تنكر لشعره ، وأعرض عنه ، بعد أن أرسى بقصائده وابداعاته دعائم اتجاه شعرى يحافظ على القديم فى أصوله ، وإن خرج عليه فى أفكاره وأغراضه ومعانيه ..

تلك إشارة لبعض «ملامح» المازنى ، ولجوانب من حياته ومكانته .. مما نعرض لها فيما يلى من صفحات ، وإن كنا فى حديثنا عن شعره سوف نكتفى باشارة موجزة حيث أن الحديث عن المازنى الشاعر له موضع آخر .

وسوف يلاحظ القارئ أننا على طول هذه الصفحات سوف نفرد

مساحات ضخمة للمازنى نفسه ، يعبر بقلمه - بل ويتحدث إلينا - عن مسيرة حياته .. عن نظرته إلى عالم الشعر ، وكيف ولم يبدع الشاعر ؟ وبماذا يلتزم ويلزم نفسه ليكون الشاعر الصادق والرسول الأمين . ؟ وكذلك يتحدث إلينا المازنى طويلا عن عالمه النثرى ، وعما أبدع فيه من صور قلمية ، وقصص قصيرة ، وروايات .. جاءت جميعها صورة لنفسه الجياشة ، وروحه السمحة السامية ، وفكره الوثاب ، وعواطفه الحارة .. وعما كان له طوال حياته التى صاحب فيها القلم والصحف من أفكار وآراء ونظرات .. وكيف أنه لم ينس على مدار تلك الأعوام أنه شاعر ملتزم بما دعا أن يلتزم به سواه ، من صدق القول ، وحرارة العاطفة ، وأن يأتى القول معبرا عن حس عميق ، وفكر طليق ، وإن يصاغ فى عبارة حلوة ، بل آسرة .. لم ينس ذلك رغم تنكره لشعره ، وإنكاره أن يكون له شعر يحقق له الخلود كشاعر .. !! .

نعم .. سوف نترك القول للمازنى نفسه فى الكثير من الصفحات يعبر بقلمه عما يريد . ويقدم لنا - بعباراته الصادقة - كل ما لديه - وإنه لكثير .. ويقول لنا كل ما نود سماعه . ولو كان بالوسع أن نترك القول كله له لما ترددنا .. ودواعينا إلى ذلك عديدة .

كان من أهمها آننا لن نجد خيرا من الكاتب نفسه ليعبر عن نفسه ، وعن فكره ، وعن حياته ، وما يحيط به من أوضاع ، وما يستثيره من دوافع .

وإذا كان ذلك القول يصح بالنسبة لكثيرين من الكتاب - الذين وهبوا نعمة الصدق فى القول - فهو أكثر صدقا بالنسبة للمازنى ، ذلك الكاتب - المبدع - الذى جعل نفسه مدار حديثه ، بل كانت تلك النفس بالنسبة لقارئه كتابا مفتوحا لا يفتأ المازنى يقلب صفحاته ، ويكشف عن حقائقه ، مصارحا قارئه بكل ما عنده ، فليس ثمة ما يحرص على اخفائه ، أو يخادع فى عرضه ، أو يرائى فى بيانه .. !!

والمازنى ممن وهبوا دقة التعبير ، وسلامة العبارة ، وحلاوة الصياغة، فضلا عن أن القول إنما يصدر عنه دائما فى تدفق واسترسال، لا يحس قارئه بمشقة فى تتبعه ، ولا يناله ملل من قراءته ، وكأنه حديث سمير يكاشف سميره بكل ما عنده فى بساطة ودون أى تكلف .. فأولى بنا أن نترك للمازنى المجال ليمتعنا بحديثه إلينا .

والمازنى فى كتاباته عبر عن كل ما لقى من تجارب ، وتحدث عن كل ما مر به فى حياته من أحداث ، بل وكان حرصه شديدا على أن يصارح قراءه بكل ما يعتمل فى نفسه من مشاعر ، وما يعن له من أفكار ، وما لديه من خواطر وآراء .. ومن هنا كانت كتاباته أشبه بـ «الموسوعة» التى تضم كل ما يود القارئ أن يعرفه عنه .. وما يجوز لنا أن نبعد بقارئنا عن نبع المازنى .. وانه لنبع فياض .. !!

والحقيقة أن من يطالع المازنى يجد نفسه إنما يعايشه ، بل ويقاسمه

حياته ، وما أسرع ما يرتبط معه بصداقة عميقة ، تقوم على المودة والمحبة والإخاء فلا يستطيع - من بعد - على فراقه صبرا ..

ومن هنا كان حرصنا - بل تعمدنا - على أن يكون التعبير عن المازنى للمازنى نفسه ، وأن يأتى حديثنا عنه مستمدا من كتاباته هو ، بل وبذات عباراته فى الكثير من المواضع .. حتى لقد كان يصل الأمر بنا فى العديد من الأحوال إلى أن نشعر بالاندماج مع المازنى روحا وفكرا وتعبيرا ..

غير أن ذلك لم يمنعنا من أن ندع المجال للآخرين ليعبروا عن آرائهم فى بعض المواضع .. كما لم يمنعنا - بالطبع - من أن نعبر نحن أيضا عن موافقتنا للمازنى أو معارضتنا ومخالفتنا له - فى مواضع أخرى - .. بل وأن نصارحه - ونصارح قارئه - باستنكارنا لبعض قوله .. وما نشك فى أننا بذلك إنما نوافق المازنى ونرضيه ، فقد عاش يدعو إلى الصدق فى الفكر والتعبير ، وإلى حرية القول ، مع سلامة القصد ، وسمو الهدف ..

وعلى الله قصد السبيل ؛

أحمد السيد عوضين

القاهرة : ١٩٩٨

الفصل الأول

المازنى .. ومسيرة حياته

١ - حياة عريضة :

كانت حياة المازنى حياة عريضة عريضة وإن كانت بحساب السنين حياة قصيرة .. ولد المازنى - (ابراهيم محمد عبدالقادر المازنى) - فى التاسع من شهر أغسطس من سنة تسع وثمانين بعد الألف والثمانمائة - (وإن كانت هناك مقولات عديدة بأن ميلاده كان فى عام ١٨٩٠) - وأيا ما كان التاريخ الصحيح لمولده ، فهو قد ولد فى ذات التاريخ - أو فى تاريخ مقارب - لتاريخ مولد عملاقين كبيرين آخرين هما : طه حسين ، وعباس محمود العقاد .. وإذا كان كل من ثلاثتهم قد ولد فى موضع بعيد عن الآخرين ، إلا أن الحياة جمعت بين ثلاثتهم فى القاهرة: ليكونوا على رأس بناة النهضة ، وأعلام الفكر ، ورواد التنوير فى مصر الحديثة ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا على اتفاق وتوافق فى مشاربهم وأفكارهم - واتجاهاتهم - بل أن الواقع ليؤكد أن كلا منهم كانت له حياته الفكرية المتميزة - واتجاهاته التى يتفرد بها - بل وكثيرا ما كانت

تثور بينهم معارك عديدة أدبية حينا ، وسياسية أحيانا أخرى ، إلا أنه ليس من شك فى أن ثلاثتهم كانوا ممن أسهموا اسهامات مباشرة - وأصيلة - فيما وصلنا إليه من مكانة نود أن نقفز منها لنلحق بركب العالم فى القرن الحادى والعشرين .. !

وعلى ذلك فقد ولد المازنى مع مطلع العقد الأخير من القرن الماضى، وشهد مولد القرن العشرين وهو فى العاشرة من عمره ، وقبل أن ينتصف هذا القرن كان وداع المازنى لهذا العالم فى العاشر من أغسطس من سنة تسع وأربعين بعد الألف والتسعمائة .. أى أن وجوده بيننا لم يكمل ستين عاما - أو أكملها بالكاد - ليودعنا ، ويترك لنا دنيانا ، وكأنى به يردد - كما كان يردد دائما - . «باطل الأباطيل ، الكل باطل ، وقبض الريح .. !»

ونود أن نعرض فيما يلى لمسيرة حياة ذلك العلم البارز من أعلام النهضة العربية ، فى سطور وإن كانت موجزة إلا أنها تحرص على أن تغطى تلك الحياة العريضة بما تضمنته من جهود وتجارب ما تزال تؤتى أكلها كل حين .



٢ - طفولة خالدة :

لم يتحدث كاتب عن طفولته بمثل ما تحدث المازنى ، فأنت تجد هذا الحديث يتردد فى الكثير من كتاباته ، ففى «صندوق الدنيا» وفى «قصة

حياة» ، وفى الكثير من الفصول الأخرى نجد الحديث عن تلك الطفولة مفصلا ومطولا .. بل أن قصته «عود على بدء» وإن كانت لا تدور حول حياة الكاتب ، إلا أنها إنما ترسم صورة - فيها فكاهة وطرافة - لارتداد رجل مكتمل الرجولة إلى مرحلة الطفولة .. بما قد يوحى بأن طفولة المازنى ظلت تشغل فكره وإبداعه طوال حياته .

ومن هنا كان اهتمام من كتبوا عن المازنى بطفولته اهتماما يتناسب مع أهمية تلك الطفولة التى يرى الأستاذ العقاد أن ملامح - وسمات - هذه الطفولة قد لازمت المازنى طوال حياته . وقد تحدث الأستاذ العقاد عن هذه الطفولة أكثر من مرة . ومن ذلك ما ذكره فى تقديمه لكتاب الدكتورة . نعمات أحمد فؤاد عن المازنى - حيث كتب يقول [١]

«إن الآية التى تبدو فى جانب واحد من الشخصية المازنية ، كان خليقا بالمزيد من التوكيد والإسهاب ، وهو جانب الخصلة العبقرية التى قيل عنها أنها طفولة خالدة . ففى هذه الخصلة التى أخذ المازنى بالقسط الكبير منها تفسير ، بل تفسيرات جمة للكثير من خلائقه وأطوارها التى فهمت على وجهها ، وأعوزها التفسير المفصل فى هذا المقام» .

---

(١) دكتورة نعمات أحمد فؤاد ابراهيم عبدالقادر المازنى - سلسلة أعلام العرب - الهيئة العامة للكتاب - المقدمة بقلم عباس محمود العقاد - ص ١٠و١١ .

ويعود فيفصل هذا الرأى فيقول :

«فالطفولة الخالدة تفسر لنا عادة الانتحال دون ذكر المصادر ، فان الأعمال بالنيات حق لا يصدق على شئ كما يصدق على نية المازنى وهو ينتحل الشعر ، ولا يعزوه إلى أصحابه .. والطفولة الخالدة تفسر لنا قلة الجلد على الجد الصارم .. وهى كذلك تفسر لنا ضيقه بالفلسفة والمباحث العريضة ، وسخريته بخلود الأدب .. وكل خصيصة مازنية نتفهمها دون أن نعرضها على هذه الخصلة ، فإنها ستظل بحاجة إلى الجلاء والإيضاح.»

وقد أغرى ذلك أحد الباحثين المنصفين ، فأنشأ كتابا بأكمله عن هذه الناحية فى أدب المازنى ، وثمار ومظاهر ورموز هذه الطفولة فى إبداعه .. ذلكم هو الدكتور مصطفى ناصف فى كتابه المتميز : «رمز الطفل : دراسة فى أدب المازنى» (١) .

ومن هنا ، فان هذه المرحلة من حياة المازنى حقيقة بالوقوف عندها ، والالتفات إليها ، وسيكون مرجعنا فى ذلك ما ذكره المازنى نفسه عنها :

---

(١) الدكتور مصطفى ناصف . رمز الطفل . دراسة فى أدب المازنى - ١٩٦٥ - الدار القومية للطباعة والنشر .. وقد عرضنا من قبل لهذه الدراسة القيمة بالبحث والتحليل فى كتابنا : فى عالم المازنى الصادر عن سلسلة كتاب الثقافة الجديدة التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة - العدد ٢٦- يوليو ١٩٩٤ - ص ١٦٩ - ١٨٤ .

وأول ما نشير إليه ، وإن لم يكن أول ما كتبه فى هذا الصدد كتابه : قصة حياة . ففى تقديمه لذلك الكتاب يقول : «هذه ليست قصة حياتى ، وان كان فيها كثير من حوادثها . والأولى أن تعد قصة حياة» (١) .

وكأنى به يريد أن يقول : ليست هذه قصة حياتى مكتملة ، فما أردت إلى هذا ، وإنما كل غايتى ومرادى أن أروى أبرز وأهم حوادثها ، أما ما أغفلته منها - فى هذه الصفحات - فستجدونه فى كتاباتى الأخرى التى سودت بها المئات - بل الآلاف - من الصحائف ، فارجعوا إليها - إن كان يهمكم ذلك -

يقول المازنى فى مقدمة كتابه : قصة حياة . «فتحت عينى أول ما فتحتهما فى حداثتى على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له : أتظن نفسك طفلا ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشد ما ركبك الوهم يا صاحبى ! لا كرة ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثبا من هذه الطفولة التى كان ظنك أن ترتع فى ظلها إلى الكهولة دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثبا أيضا» (٢) .

---

(١) المازنى - قصة حياة - والطبعة التى نشير إليها هى طبعة «دار الشعب» التى ظهرت بعد وفاته - والثابت أن الطبعة الأولى لهذا الكتاب ظهرت فى عام بعد أن نشرت من قبل فصولا فى بعض الصحف - كما أنها نشرت مرة أخرى فصولا فى مجلة آخر ساعة بعد وفاة المازنى فى عام ١٩٤٩ .

(٢) المازنى - قصة حياة - المرجع المذكور - ص ٤ و٥ .

ثم يذكر بعد ذلك «فعرفت فى التاسعة من عمرى – وهى سن غضة جدا – أن هناك واجبات تؤدى لذاتها ، وحقوقا تقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة . وأحسست من صغرى أن شأنى غير شأن الناس ، وأنى فقير وإن كنت مستور الحال ، ولكن الستر لا ينفى الشعور بالفقر ، وغضاضته ومضضه . فأرهب ذلك احساسى ، حتى صار ينحى بمثل حد المبراة على قلبى فيحزه ويقطعه ، فنزعت شيئا فشيئا إلى الانقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعى نفقة ، وتكون فيه كلفة .»

«وقوى هذا الميل فى نفسى وعمقه أنى بعد الذى سمعته ووعيته من أمى ، قصدت إلى أخى الأكبر – وهو من غير أمى – وسألته عن مال أبينا : أين وكيف ذهب ؟ فقال وهو يكاد يشرق بدمعه ، وأنا أنظر إليه جاد العين أنه هو الذى أضاعه ، وجر علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوضنا خيرا مما أتلف . فأحسست أنى شببت جدا عن الطفولة فى تلك اللحظة !» (١) .

ولعل ذلك يوجب علينا أن نرتد لنترسم الصورة التى رسمها المازنى – بقلمه – لأبويه وأثر كل منهما عليه ، ومكانته لديه .



(١) المازنى – قصة حياة – المرجع المذكور – ص ٤و٥ .

٣ - صورتان يرسمهما المازنى .. لأبيه ، ولأمه :

يقول المازنى عن أبيه [(١)] : «كان أبى مشغولا عنا بزوجة جديدة ، وكان عمله يضطره إلى السفر إلى استنبول فكان يقضى هناك ما شاء الله أن يقضى - شهورا أو عاما أو قرابة ذلك - ثم يعود ومعه زوجه . وأحسبه كان يضطر إلي الزواج اتقاء من الأثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى يحمل معه الزوجة ويسرحها هناك ، ويجئ بغيرها ، وأظنه كان يحب التركيات ويؤثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن ، وحسن التدبير والنظافة والطاعة والأدب . فان يكن ذاك فما ورثت عنه إلا نقيضه ، ولست أعنى - كما لا أحتاج أن أقول - أنى أحب الوساخة وسوء التدبير ، وقلة الأدب والعياذ بالله ، وإنما أعنى أن اللون الأسمر آثر عندى ، وأحب إليّ ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء ، وكانتا من الحسن فى منزلة واحدة ، فالسمراء عندى أجمل وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمى ولنفسى ، فأنى أسمر - أو إلى السمرة أقرب - ولعلى أكره أن تزهى على واحدة ببياض جلدها ، ولكن هذا شطط فلأرجع إلى ما كنت فيه .

ولم تكن الزوجة الجديدة من استنبول وإن كانت تركية .. ولم يهجر

---

(١) المرجع المذكور ص ١٤ وما بعدها .

أبى (البيت الكبير) فى سبيل هذه الزوجة الجميلة - فقد كانت جميلة والشهادة لله - وكان الرجل معذورا - ولكنه كان يقضى عندنا ليلة ، وعند هذه الزوجة ليلة ، فأما ليلته فى البيت الكبير فكان يقضيها مطرقا يسمع التقريع والتأنيب من جدى تارة ، ومن أمى تارة أخرى ، وكان عظيم الحلم ، طويل البال ، قليل الكلام ، فكان لايزيد على الابتسام ، وهذا ما خالفته فيه أيضا ، فإنى أحمق طياش ، سريع الغضب ، حاد الطبع ، وثرثار لا يفرغ الناس من هزره ، ومن الانصاف لأبى أنه ما بين شغله بزوجته الجميلة وما يكابده فى البيت الكبير ، فضلا عن عمله المضنى ، لم يبق له وقت يعنى فيه بنا نحن بنيه الصغار.»

- وفى موضع آخر يقول : (١)

«مرض أبى بعد شهور قليلة من دخولى مدرسة القربية الحكومية ، وصار كل من فى البيت يلغط بأن زوجته التركية سمته ، أو هى لم تسمه ، وإنما دأبت على اطعامه لحم الأرنب بعد أن يعالجه رجل مشعوذ بما لم يعرف أحد ليحبب أبى فى هذه الزوجة ، ويبغض إليه أمى ، وكان أبى يعتقد أن هذه خرافات وأباطيل ، وأنها مما يلفقه الخيال بتأثير الغيرة ، ولكن أمى كان قد أصابها سقم شديد ، واضطراب عصبى عنيف ، فعنى أخى الأكبر بما أشيع من أن هذا بعض ما جره سحر

---

(١) المرجع المذكور ص ٥٣ .

المشعوذ عليها ، فراقب بيت هذه الزوجة التركية فرأى يوما شيخا يدخل ، فتبعه من حيث لا يشعر ، فصعد الشيخ إلى غرفة فوق السطح ، وأوقد نارا ، وذبح أرنبا ، وكتب على لحمه كلاما وعلقه فى الهواء ، ورمى فى الموقد بخورا فأطلقه وراح يقرأ ويعزم ، وأخى يرقبه ، ثم خطر له أن يطلع أبى على ذلك ، فأغلق عليه الغرفة ، وأوصد باب البيت ، وحمل مفتاحه معه ، وذهب فجاء بأبى وأراه ما رأى ، فشق الأمر على أبى فطلق المرأة .

ولكنه مرض بعد ذلك لا أدرى بماذا ، ولزم البيت بضعة شهور ، كان الطبيب يعوده فيها كل بضعة أيام ، ولكنه كان فيما يبدو لى صحيحا معافى ، لا سقم به ، فقد كان يشرب القهوة على عادته ، ولا ينفك يدخن سجائره المألوفة ، ويأكل طعامه المعهود - السمك المسلوق والأرز والفاكهة - وكل ما تغير من أمره ، واختلف من حاله أنه كف عن النزول إلى المكتب . وأن الكاتب وأخى كانا يصعدان إليه بالأوراق ، فيطلع عليها ، ويشير بما يرى .

وعدت من المدرسة عصر يوم ، فلقينى الكاتب على الباب .. وأخبرنى أن أبى يريد أن يرانى .. ودخلت البيت فألفيت فى فنائه نفرا من أقاربنا جلوسا على الكراسى ، فسلمت فقال أحدهم : اصعد . اصعد . أبوك يطلبك .

فلم أفهم ، وصعدت على مهل ، ودخلت على أبى ، وأنا انتظر أن أراه قاعدا على (الكنبة) فإذا به راقدا على مرتبة مفروشة له فى وسط الغرفة ، وعند رأسه مصحف ، فأدرت عينى فى الغرفة ، فألفيت النساء من أهلى قاعدات حول المرتبة مطرقات ، وفى أيديهن مناديل ، يرفعنها إلى عيونهن ، ويكفكفن بها الدموع ، فنظرت إلى أبى ، فأشار إلىّ بعينيه ، فانحنيت عليه ، فقبلنى ، ونهضت ، وأنا غير فاهم ، وهممت بأن أدور وأخلع ثيابى ، وإذا بالنساء يصحن ويولولن ، وإذا بأمى تتناولنى ، وتميل على رأسى وهى تقول · أبوك مات .. أبى مات !»

ولعل الصورة لا تكتمل إلا إذا مضينا نستعيد بعض ما كتبه المازنى عن أمه ... وفى الحقيقة أنه كتب عن أمه الكثير من الصفحات ، ولكننا نكتفى بهذه الأسطر ننقلها عن مقال له عنوانه · «أمى» (١)

«لا أعرف الأمهات كيف يكن ، ولكنى أعرف أمى كيف كانت . وأجمل التعريف بها وأوجز الوصف فأقول إنها كانت (رجلا) ، وأحسب أن النساء لا يرضيهن ثناء كهذا يسلبهن أنوثتهن ، وإن سرهن ما فيه من معنى الأكبار ولكن أمى لم يكن لها بال تجعله إلى شئ من

---

(١) سبيل الحياة - الناشر الدار القومية للطباعة والنشر - ص ١٧ .

هذا ، فقد اضطرت أن تمحق أنوثتها فى سن يبدأ فيها النساء - أو معظمهن - يعرفن معنى الأنوثة الكاملة ، فقد مات أبى وهى فى الثلاثين من عمرها ، وأذاقها فى حياته ما سود الدنيا فى عينيها ، وأنساها أنها امرأة كالنساء ، وكان أبى - رحمه الله - مزواجا ، وكان حبه للتركيات وافتتانه بهن عجيبين ، ومن فرط حبه لهن كرهتهن أنا ، وكان يذهب كل بضعة أعوام إلى الآستانة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى ثم يعود بزوجة من هناك يعايشها سنوات ثم يملها ويشتهى غيرها ، فيسرحها باحسان ويردها ويجئ بغيرها ، وهكذا .

وتركنا أبى ذوى مال فأكله أخى الأكبر - أعنى أنه أنفقه باليمين وبالشمال حتى أتى عليه - فلولا لطف الله لتسولنا ، أو على الأقل لما أمكن أن نتعلم ، ولكان المازنى الآن - على الأرجح - نجارا غير حاذق ، أو شيئا من هذا القبيل ، ولكن أمى كانت حازمة مدبرة ، فوسعها بالقليل الذى أسعفها به حسن الحظ أن تربينا وتقينا المعاطب .

ولست أذم أبى أو أتنقصه ، وما يسعنى أن أفعل ذلك وقد كانت أمى تثنى عليه ، ولا تنى تذكره بالخير ، ولم تنقطع قط عن زيارة قبره فى اثنتين وثلاثين سنة عاشتها بعده ، وكنت ربما مازحتها فأقول لها : وماذا كان يعجبك فى هذا الرجل ؟

فتبتسم وتزجرنى بلطف ، ثقة منها بأنى أهزل ولا أتكلم جادا ، فأتعمد الإثقال عليها وأقول .

- صحيح والله ! - ماذا كان يعجبك فيه ؟

فتقطب وتقول : عيب يا ولد ! ، وتنظر إلى سبحتها بين أصابعها .

فأقول : ولكنه كان مزواجا ..

فتقول . يا بنى هذا قضاء الله وقدره ، وما كنت أكره له هذا إلا خوفا عليه ..

فأقول معابثا أو غيرة منهن ؟

فتقول · يا قليل الحياء - إذهب عنى .. إذهب .

فأبقى ولا أذهب ، وأقول · لقد رأيت آخر زوجاته تلك ، وأشهد أنها كانت جميلة وأبى كان معذورا ..

فيضيق صدرها بى وتقول : ألا تنوى أن تستحى ؟

فأسألها . من أى شئ ؟

فتقول : إنه أبوك ..

فأقول : لأهيجها : سلمنا يا ستى ..

فتصيح بى : سلمت ! يا قليل الحياء . ؟

وتتناول الحذاء لتضربنى به ، ولكنى أكون قد ذهبت أعدو ، فتقذفنى به وتعلن إلىَّ أنها لا تريد أن ترى وجهى بعد اليوم .

ولكنى لا ألبث أن أسترضيها واستغفرها وأقبل يديها ورأسها . فما كنت أطيق أن أدعها عاتبة أو ساخطة أو متألمة ، ولو وسعنى أن أجعل حياتها نعيما خالدا ، وسرورا دائما وجذلا لا تنضب ينابيعه ولا تجف موارده لما قصرت ، وما كنت صانعا إلا بعض ما يجب لها فتعفو عنى وتدعو لى وتدنينى منها وتمسح لى رأسى كأنى مازلت طفلا .

وكانت أمى - على صغر سنها - زعيمة الأسرة . وكان أهلى جميعا يلجأون إليها يطلبون رأيها فيما يعرض لهم ، وفصلها فيما يقع بينهم من المشاكل . وقد كان موت أبى ، وأنا فى التاسعة من عمرى ، وكنت - ومازلت مع الأسف - أكبر ابنيها ، فصارت تعاملنى على أنى رب الأسرة وسيد البيت وتعودنى احترام النفس والتزام ما يقتضيه مقامى فى البيت وتستوجبه زعامتى للأسرة ، وتنبهنى إلى (مسئولياتى) وإلى التبعات التى يحملها (رجل) مثلى . وكانت حاذقة كيسة فى سلوكها فلا نهر ولا زجر ، ولا أوامر ثقيلة ولا نواه بغيضة . ولا شطط أو إسراف ، ولا تقصير أو تفريط ، ولا إشعار بأن لحريتى حدودا ضيقة غير معقولة أو محتملة وإن كانت الرقابة علي هذا دقيقة وافية .

وكانت - عليها رحمة الله - تتوخى أن تعفينى من المنغصات ،

وتتجنب أن تحملنى الهموم فتستقل بها دونى ، وتتحرى ما يدخل على نفسى السرور ، ويشيع فيها الغبطة والرضا ، ويفيض على البيت الإيناس والبهجة . وكانت ذاكرتها قوية ، فكانت إذا جلست للسمر تتدفق بأحاديث الأيام السوالف وكأنها تحياها من جديد ، فلا يغيب عنها حرف ، ولا يفوتها لون . وكانت لقوة ذاكرتها سجلا عاما للأهل والصواحب ، فمن نسى شيئا فما عليه إلا أن يلجأ إليها . وكانت صديقاتها يستودعنها حسابهن ، وكثيرا ما كان يحدث أن تجئ الواحدة منهن فتقول لها إن فلانة الدلالة تزعم أن علىَّ لها مبلغ كذا ، فما هى الحقيقة ؟ ، فتخبرها الحقيقة فتقوم عنها ويكون هذا هو القول الفصل وكانت قوية الشكيمة فلا رأى إلا رأيها فى الأسرة كلها ، وإن كانت صغرى أخواتها ، وكثيرا ما كانت نفسى تحدثنى أن أنازعها السيادة . ولكنى كنت لا أكاد أهم بذلك حتى أرتد ، وكان يكفى أن ترمى إلىَّ نظرة وتقول استح يا ولد ، فيتحلل العزم ، وأهوى على راحتها باللثمات .

وكانت تكتفى بالنظرة الأولى إذا أمكن أن تستغنى عن الكلمة ، فكنا نتفاهم بالعيون ، والذين حولنا غافلون لايفطنون إلى شيء . فمن ذلك أنها لما حضرتها الوفاة قالت أعطنى ثلاثين قرشاً ، ولم تكن بها حاجة إلى ذلك .

وكنت قد أعددت عدتى لذلك اليوم ، فأدركت أنها تريد أن تطمئن على أن معى ما يكفى لنفقات المأتم ، وكانت جريدة السياسة معطلة والأزمة مستحكمة فأخرجت ما معى وقلت لها : خذى ما تشائين ، فأخذت جنيها دسته تحت الوسادة فظل حيث وضعته حتى ماتت .

وكانت قد أصيبت فجأة ، وفى منتصف الليل ، بذبحة - وكانت من شدة التمزيق الذى تحسه فى صدرها تخبط بيديها فى الهواء كالذى ألقى به فى الماء وهو لايعرف السباحة ، وظلت تقاوم الداء تسعة أيام بقوة إرادة الحياة . ولم أر منها مايدل على التضعضع والانهزام إلا قبيل الوفاة بدقائق . وكنت أناولها الدواء ، فأشاحت بوجهها عنه ، فألححت فقالت : إرضاء لك فقط .. وشربته ، ثم نامت فوضعت يدى على فمها فلم أشعر بنفس .

تلك هى أمى ، أو تلك هى بعض خطوط الصورة . وأنى لجليد فى العادة ، ولكن موتها هدنى . فقد كانت لى أما وأبا، وأخا وصديقا.»[1].



تلك هى كلمات المازنى عن أبيه ، ثم عن أمه . أثرنا نقلها عنه ، لأنها أوفى فى التعبير ، وأصدق فى الحديث ، وإذا كنا نكتفى بها فى الوقت

---

(١) قصة حياة - المرجع المذكور - ص ١٥ و ١٦ .

الحالى للتعبير عن بعض ملامح المازنى ، فان رسم الصورة الكاملة لتلك الملامح قد يضطرنا إلى معاودة الرجوع إلى ماكتبه عن أبويه - وبصفة خاصة عن أمه - ، فما نعرف كاتبا اختص أمه بمثل ما اختصها به المازنى فى العديد من كتاباته ، حتى ليمكن القول ، بأنه ما انقطع عن الحديث عنها فى كل ما كتب.



٤ - ضاع المال ، وبقى الستر ..!

مات والده ، وهو فى سن صغيرة ، لم يجاوز التاسعة من عمره ، وكان أبوه ذا مال وفير ، يكفى كل من خلف وراءه ممن يعول ، إلا أن المال كله وضع فى يد أخيه الأكبر الذى أنفقه باليمين وبالشمال حتى أتى عليه .. أضاعه إلا القليل .. ولم يكن ذلك بالأمر غير المتوقع ، ممن وصفه المازنى بقوله : «وكان أبى فى وقت من الأوقات مدرساً للغة العربية فى المدرسة الخديوية فألحق بها ابنه ليكون تحت عينيه ، فكان هذا الابن البار هو الذى زهد أبى فى التعليم ، فنفض يده منه ، واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء أخى فى هذه المدرسة ، فقد طردوه فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية - لا أذكر - وكان يبيت فيها فصار يغرى زملاءه بالخروج فى فحمة الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدليها من النافذة ، ويتخذ منها هو وزملاؤه حبلاً يتعلقون له ، ويتدلون ، وبه

يصعدون أيضا حين يعودون مع الديكة . وظهر الأمر ، فاشتجر أخى مع ضابط المدرسة ، وتماسكا ، وتضاربا ، فانكسرت رجل الضابط ، ولا آخر لحوادث هذا الأخ ، وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعاً بالعبث» .

وكان تصرف الأخ فى مال الأب على هذا النحو قد آذى الصبى ، وأفزعه حتى لقد رأى أن يتجه إلى أخيه يسائله عن مال أبيه : أين وكيف ذهب ؟ ولكن السؤال لم يسفر عن شىء أكثر من قول الأخ وهو يكاد يشرق بدمعه أنه هو الذى أضاعه ، وجر على الأسرة تلك المحنة ، وإن كان يرجو أن يعوضهم خيراً مما أتلف !

فى تلك اللحظة – كما يقول المازنى [1] – «أحسست أنى شببت جداً عن الطفولة» .. ومن هنا ندرك مدى ما خلفه ذلك فى نفسه من أثر يصفه بقوله :

«فتحت عينى أول ما فتحتهما فى حداثتى على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل ، وتقول له : أتظن نفسك طفلاً له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشد ما ركبك الوهم ياصاحبى ! لا كرة ولا لعب ، وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التى كان ظنك أن ترتع فى ظلها

---

(١) المرجع المذكور – ص٤ .

إلى الكهولة دفعـــــة واحدة ! حتى الشـبـاب يجب أن تتخطاه وثباً أيضا !..» (١) .

«فعرفت فى التاسعة من عمرى – وهى سن غضة جداً – أن هناك واجبات تؤدى لذاتها ، وحقوقاً تقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة . وأحسست من صغرى أن شأنى غير شأن الناس ، وأنى فقير ، وإن كنت مستور الحال ، ولكن الستر لاينفى الشعور بالفقر وغضاضته ومضضه ، فأرهف ذلك إحساسى ، حتى صار ينحى بمثل حد المبراة على قلبى فيحزه ، ويقطعه ، ففزعت شيئاً فشيئاً إلى الانقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون مما يستدعى نفقه ، وفيه كلفه» (٢) .

«وترك هذا كله أثراً فى نفسى ، فاجتنبت أن أعاشر الا الذين أرى حالهم يشبه حالى أو يقاربه ، وصرت أشعر أنى غريب إذا ألقت بى المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف ، فكنت أنفر أشد النفور من مجالستهم أو مخالطتهم ، ويكبر فى وهمى أنهم لايخفى عليهم أنى نشأت فقيراً ، وأنى امتحنت فى صباى أقسى إمتحان ، وأن ما أراه من

(١) المرجع المذكور – ص٣ .

(٢) المرجع المذكور – ص٤ .

مظاهر غناهم ليس إلا مخايلة مقصودة يشقون لى بها جفونى ، ويطلعونى على ما بينى وبينهم من بون» [١] .

ومع ذلك ، وبفضل حزم الأم ، وقوة شكيمتها ، وصدق فراستها ، فقد استطاعت أن تسير بقافلتها الصغيرة دون تعثر ، حتى وصلت بها إلى خير ماترجو متغلبة على كل ما لقيت من صعاب .. حتى ذلك الأثر الذى تتركه الحاجة فى النفس من ضيق بالحياة ، أو سوء ظن بها استطاعت أن تمحوه ، فيحل الرضا عن الحياة محل سواه من المشاعر السوداء فى نفس المازنى .. ولكنه ليس رضا المستسلم ، بل رضا من وصل إلى الغاية ، وأوفى على الغرض ، فهو يقول [٢] .

«ولكن قسوة الكفاح ، ومرارة الصبر على طول الحرمان ، جففتا عبراتى ، وعلمتنى أن أبكى بقلبى دون عينى ، وأن أستر ضعفى عن الناس ، فلا أبدو لهم إلا بصفحة وجه يقرءون فيها آيات الرضا والاستبشار والثقة ، والفضل فى ذلك لأمى» .

«والعبرة بالخواتيم ، وقد انتقلت بى الحال بعد طول الضنك إلى سعة مرضية وخير كثير ، فالحمد لله على ما أنعم ويسر» .

---

(١) المرجع المذكور – ص٥ .
(٢) قصة حياة – المرجع المذكور – ص٦ و ٧ .

«ورضيت عن الدنيا ، وانشرح صدرى للحياة ، ووجدت أن التسامح الذى يبعثه الفهم وصحة الادراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الخاطر وسكينة النفس ، من تلك المرارة القديمة التى كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان ، وألفيتنى اغتبط بأن أتلمس ما يروق ويسر من جوانب الحياة ، وأن أبرز هذه الجوانب الوضيئة للناس وأشركهم معى فى نعيمى بها ، وأحاول أن أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس ،فتضىء لهم وجوه العيش ، وتمنحهم الدفء ، وتشيع الابتسام والجذل فى وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم من أزهار الحياة ريحاناً وآساً ونرجساً ،وأن أجمل ما كان يبدو لى ولهم دميماً ، وأزين العاطب ، وأرقرق الماء فى حواشى النسيم ليعود أندى على القلب ، وأثلج للصدر» .

على أنه قد يكون لنا أن نضيف أن هذا التحول لم يأت ، كما يذكر ، نتيجة لتحسن الأحوال ، ولكنه تحول نابع من الطبيعة السمحة ، والنفس الراضية ، وأما ما كان من ضيق وسوء ظن فهو عارض ، ما إن زالت أسبابه حتى انكشف الغطاء عن الحقيقة الوضيئة لانسان لا تشغله عوارض الحياة عن أرفع مافى الحياة من خير وحب وجمال ..

غير أن الوصول إلى تلك الحال الهادئة الراضية المرضية كانت دونه متاعب وعثرات لعلنا أن نوفق فيما يلى أن نبرز بعض صورها [١] .



(١) المرجع المذكور – ص ١ .

٥ - بيت .. وطفولة .. وشقاوة :

يقول المازنى :

«نشأت فى بيت صارم التقاليد ، فى ساحته الواسعة مصلى وميضأة ، وعلى جانبى مدخله غرف لإقامة الاتباع ، والتلاميذ ، والمريدين ، وكانت آخر هذه الحجرات - مما يلى الساحة مباشرة - غير مسقوفة ، وكانت تتخذ اصطبلاً لمن له بغلة أو فرس أو حمار ، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المتفرقون من هؤلاء الأتباع فى المصلى ، ويتلون (الورد) وهم قعود ، ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام ، فالخلوة ، وفى الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير .. وهناك يتلى (الورد) مرة أخرى ، وتعقد حلقة الذكر .. ثم يؤكل (الفول النابت) والخبز .» .

«وكان يروقنى هذا ويستولى على خيالى ، فأشاركهم فيه ، وأتلو (الورد) الذى يتلونه ، وأصلى على النبى كما أراهم يصلون ، وأهز رأسى وجسمى فى الصف عند (الذكر) كما يفعلون ، وأحاول - عبثاً - أن أجعل صوتى غليظاً عميقاً ، وأرافقهم فى الفجر إلى المقبرة ، وأزيد عليهم فأعرج على قبر أبى فأزوره ثم أرتد إلى الحارة واللعب ، والقلب راض والنفس ساكنه» .

«ولم يكن هذا بيت أبى ، وانما كان بيتاً يسع من يشاء من الأسرة

أن يذهب إليه ، ويقيم فيه ، فقد كان واسعاً كبيراً ، فلما مات أبى ، وساء ت حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصاداً فى النفقة ، وعز علىّ ذلك فى أول الأمر ، فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستانى ، ومن العجيب أنى أذكر مدخل البيت وساحته الرحيبة وحديقته والنافورة والحجرات من حول ذلك، وفيها مكتب أبى ومكاتب الوكيل ومساعديه ، ولكن ما عدا ذلك بهتت صوره . وأذكر أنى كنت أدخل على أبى فى مكتبه وعنده أصحاب القضايا ، فأقف إلى جانبه وهو مكب على الورق ، وأنا ساكت لا أقول شيئاً ولا أتحرك ، حتى يرفع رأسه ويمد يده إلىَّ فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض أبويا .. أبويا .. هات قرش . فيضع يده ثم يخرجها بما تخرج به - بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر - فأتسلل بما أعطيته، فألقى أخى الأصغر ينتظر عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد بائع الدندرمه .. فندفع إليه ما معنا ، ونأكل حتى نشبع ونحمد الله - أو لا نحمده - فنميل على دكان مجاورة لبيتنا فنشترى كرات وبلياً وما إلى ذلكِ .. نبدد الفلوس والسلام» .

«ومن الصور التى لاتزال ماثلة أمام عينى أن جدى دخل على أبى فى مكتبه يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبى واقفاً ، وأفسح الزباين له ليقعد ، ولكنه لم يفعل ، والتفت إلى أبى وطلب منه شيئا ، فاستمهله

هذا، فما كان من الجد إلا أن رفع (العكاز) وأهوى به على كتف أبى فتأوه ، واختبأ تحت المكتب وانصرف جدى غاضباً ساخطاً يلعن العقوق ، وعاد إلى كرسيه فى مدخل البيت» .

«وكان شر ما يمكن أن يعاب به الواحد منا نحن الصبيان ، أن يراه أحد واقفاً يحدث بنتاً أو يلاعبها . يا حفيظ ! ولد يلعب مع بنت .. هذا إثم كبير ، ومعصية توصد من دونها أبواب الغفران ، فانه عيب وسوء أدب وقلة حياء وفساد تربية ! وأشنع من هذا وأبلغ فى العيب وسوء الأدب أن تلعب البنت فى الشارع أو فى ساحة البيت .. ألا تكفيها حجرات البيت التى تطل نوافذها على الطريق وعلى فناء الدار .. وصحيح أن الشبابيك مسمرة ، ولكن النظر من الثقوب ميسور ، وهذا يكفى ، بل كان من العيب أن يرى الرجل زوجة أخيه إذا كانت غريبة أو من غير قريباته» .

«وعندما تغرب الشمس يجمعنا الخادم من الشارع ، ويهش علينا كما يهش على الغنم أو الدجاج ، ويردنا إلى البيت والحجرات ذات الشبابيك المسمرة ، مخافة أن يخطفنا أحد إذا بقينا نلعب فى الحارة ، أو يصادفنا (السماوى) فيسمنا ، أو يظهر لنا عفريت فيركبنا أو يرعبنا أو يفعل بنا غير ذلك مما تفعل العفاريت ..» .

«ويصبح الصباح ، فأحمل إلى الكتاب حملاً ، وهناك توضع قدماى

فى (الفلقه) ويهوى عليهما (سيدنا) - فقيه الكتاب - بالجريدة أو المقرعة أو يكل ذلك إلى مساعده (العريف) ، وبهذا يبدأ النهار ..!» .

ويكمل ملامح الطفولة ، وهو يرسم هذه الصورة (١) :

«ولست أذكر أنى هممت مرة باللعب إلا زجرنى عنه واحد من الكبار، أو مددت يدى إلى شيء إلا نهيت عن لمسه ، وما كان أصعب السكون المقضى علىّ به ، بل ما أقل ما كان الجمود يرضيهم ! فأنا إذا لعبت (شقى) ، وإذا سكنت فلاشك أنى مريض ! وكان ملجئى الوحيد أبى ، هو وحده الذى كان يبدو أنه يفهم ! وقلما كنت أجالسه لأنه رجل ، والرجل فى ذلك العصر ، مكانه بين الرجال ، لا بين الأطفال والنساء ، حتى الأكل كان يتناوله وحده ، أو مع ضيوفه فى (منظرة) الرجال ، حتى القهوة تصنع وترسل له . فهو فى منزله وحده ، وكل من فى البيت يخدمه حتى أمى . بل حتى أمه هو . يستيقظ أهل البيت ، ويكون هو لايزال نائماً ، فالكلام همس ، والسير على أطراف الأصابع ، والأطفال يحملون إلى مكان قصى من تلك الدور القديمة الواسعة لئلا توقظه ضوضاؤهم ثم يفتح عينيه ، ويتثاء ب فينقلب السكون جلبة . هذه تجىء بالطشت والأبريق للوضوء ، وهذه تعد الشاى ، وتلك تهيىء الطعام ،

---

(١) إبراهيم عبدالقادر المازنى - صندوق الدنيا - طبعة دار الشروق - ١٩٨ - فصل تحت عنوان : الطفولة الغريرة - ص ٩٦ - ١٠٣ .

وكأنما يتعمد كل إنسان أن يسمعه صوته ، ويثبت له أنه يتحرك فى خدمته ، فالأصوات عالية ، والنداءات متتابعة ، و(القباقيب) ملبوسة ، والأرجل تدب ، ويكون الشىء المطلوب تحت أنف الطالب ، فيقطع المكان ذاهباً وآيباً عشر مرات قبل أن يمد يده إليه ، ويصيح وينادى ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه ، ويحاسب كل من فى البيت على اختفائه ، ويتوعد ، وينذر حتى إذا ظهر - وهو أدنى شىء منهم جميعاً - انطلق طالبه المتعامى عنه يصف الإهمال والعمى بما يفتح الله به عليه ثم تقص هذه الحكاية بتفصيل واف شاق لأبى ، وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الإبطاء عليه والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت ، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها ، والمتبرم بهذه المتعبات التى تحفل بها ساعات الليل والنهار ..» .

«نعم ، كان المنزل جحيم الأطفال . فالطفل مطالب بأن يكون له عقل الكبار ، وإتزانهم وفهمهم ، ولكنه محروم من مزاياهم ولا يعامل معاملاتهم . وكل شىء يصدر عنه معيب وخطأ ، فاللعب عيب ، والصمت عيب ، والتهويم فى المجلس عيب ، والأرق عيب ، والإستفهام عيب ، ولا شىء فيما يرى الطفل محمود مشكور» .

«وكان فى البيت اثنان لا أراهما أبداً وإن كان ذكرهما على لسانى أبى وأمى ، وهما : (الست) و(الأفندى) ، فأبى يقول مثلا : قولى كذا أو

كذا (الست) ، ويتحدث في أوقات شتى ، ولا سيما حين يكون معه رجال من أقربائنـــا عن هذه (الست) ، وأمي لا تفتأ تقول : (الأفندى) قال - أو الأفندى أتى - أو الأفندى خـرج - فـأعـجب : أين هـمـا ؟ ولماذا لا أراهما ؟ وأصعد إلى السطح باحثاً عنهما ، فلا أجدهما ، وأدخل كل غرفة فلا أهتدى إلى أثرهما ، وأنزل إلى فناء الدار فلا ألتقى ... بهما أين ينامان ياترى ؟ ماذا يأكلان ؟ ألا يشربان أبداً ؟ وعلى كثرة ما فكرت في أمرهما ، وبحثت عنهما لم يفتح الله عليّ بخير أكثر من أنهما لا محالة يلبسان (طاقية الإخفاء) ، ولشد ما كان يلج بي الشوق إلى رؤيتهما ، ويدركني الخوف عليهما أيضا ! وكثيراً ما كنت أقوم من النوم على صوت - لعله موهوم - أتخيل أنهما داخلان وأرهف سمعي ، وأنشر أذني في الليل ، وأفتح عيني جيداً ، وأحدق في الظلام وقد قمت على ذراع، وربما تسللت إلى كل غرفة لعلى أبصرهما ، ناسياً في سبيلهما مخاوفي وما تثيره الظلمة في نفوس الأطفال» .

«وأتفق مرة أنا كنا جميعاً جلوساً في غرفة أبي ، وكان مريضاً - فدخلت الخادمة ، وأسرت شيئاً إلى أمي فقالت لها هذه : أخبريه أن الأفندى مريض . فصعدت روحي إلى حلقي وشعرت بالأسف على (الأفندى) والألم له ، والفرح أيضا لأن مرضه قد يتيح لي أراه أخيراً ... ودنوت من أبي - وكنت عليه أجرأ - فابتسم لي ، ومد يده فوضعها على

كتفى فأطرقت برهة ثم رفعت عينى إليه وقلت : بابا . قال : نعم - وجذبنى إليه فى رقة وعطف - قلت كيف صحة (الأفندى) ؟ فضحكوا جميعاً - أبى وأمى وجدتى وعمتى و .. لا أدرى من أيضاً - وقبلنى أبى ، ولكنه لم يجبنى لا هو ولا سواه . فلم أفهم هذا ، وأحسست بالغيظ ، ورحت أنظر فى وجوههم نظر المحنق ، ثم تولانى العناء ، فعدت إلى أبى أسأله عن صحة (الأفندى) فنظر أبى إلى أمى فتناولت هذه يدى ، وقالت : عيب . الأولى كانت عفوا ، وقد فاتت ، ولكن لا يليق أن تكررها ، فكدت أجن . لماذا يخفون عنى الأفندى والست وهما يراهما كل إنسان سواى ويحادثهما على مايظهر لى مما أسمع ؟ لماذا أحرم وحدى أن أبصرهما وأكلمهما ؟ فقلت : ولكنى أريد أن أرى الأفندى . فقالت أمى : عيب .. قلت لك : عيب .. وفى هذه اللحظة دخل جدى على مهل ، ويظهر أنه سمع أمى تنهرنى ، وكان شديد الحنو علىّ، فسأل : ما له ؟ . فقصوا عليه الحكاية ، فابتسم وأجلسنى على ركبته ، ولم يزل بى حتى سرى عنى ، وجفف دموع الغيظ التى كانت تترقرق فى جفنى ، فشرحت له المسألة ، وكشفت له عن جهودى التى بذلتها فى الاهتداء إلى (الست والأفندى) ، ولم يبق فى الغرفة أحد لم يضحك منى . ولكنى كنت فرحاً باصغاء جدى وتشجيعه لى ، وما كان يبدو على وجهه من الاغتباط والجذل ، فلم أعبأ بالضحك ، ولما فرغت سألته : والآن هل ستخفيهما

أنت أيضا عنى ؟ قال : لا .. لقد أخطأوا معك يابنى ، وكان حقهم أن يدلوك . واستغنيت بعد ذلك عن البحث والتنقيب ، فقد عرفت (الست والأفندى) ، وضحكت أيضاً لما عرفتهما !!..»



بقى أن نقول : أن المازنى ولد «لأب حضر العلم فى الأزهر» ، وعمل فى تدريس اللغة العربية فترة ثم عمل بالمحاماة الشرعية حتى وفاته ، وقد خلفه فيها ابنه الأكبر · محمد خيرى ، وهو الأخ الأكبر الذى تحدث عنه كاتبنا كثيراً ، وكان له من أمه أخ أصغر هو أحمد المازنى .. وكان البيت الذى نشأ فيه يقع يومئذ قريباً من (عين الصيرة) وعلى بضعة أمتار من الطريق الممهد المرصوف الذى يخترق الصحراء بين الإمام ومسجد عمرو ..(١)



٦ – فى الكُتَّاب .. ثم المدارس :

أدخل «المازنى» الكتاب ، لكن مكثه لم يطل فيه ، لأن أمه أصرت على المدرسة .. فأخرجته من الكتاب ، وبعثت به إلى المدرسة .. التى يصفها بقوله :

---

(١) د. نعمات أحمد فؤاد – المرجع سالف الذكر – ص٥ و ٥٦ .

«.. أخرجتنى أمى من الكتاب وبعثت بى إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيداً لإدخالى مدرسة حكومية ، ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكن فيها (فصلا) واحداً للصبيان ، وكانت صاحبة المدرسة (خياطة) ومن هنا معرفة أمى بها ، وارسالى إليها ، وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ولكنه غليظ الكبد . وكل ما أذكره إننا لم نكن نرى البنات أو نختلط بهن ، بل كنا نوضع فى حجرة ضيقة ، توصد علينا بالمفتاح فكانت هذه الحجرة هى المكان الذى نتلقى فيه الدروس ، وهى الساحة التى نلعب فيها ، وإليها يجيئنا طعامنا ظهراً . وكنا إذا تركنا المعلم نزحزح الأدراج عن موضعها لنفسح مكاناً لنا ونحن نتقاذف الكرة أو نجرى (البلى) على البلاط ، وما أكثر ماكسرنا زجاج النوافذ ، وغرم آباونا ثمنه ..» [(١)] .

«وكان مساعد المديرة رجلاً فظا – كما قلت – إذا أخطأنا أو قصرنا يأمر الواحد منا أن يخلع الطربوش ، ثم يضربه على رأسه العارى بالخيزرانه . وكنا فى الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يوماً أن أوسعنا ضرباً على رؤوسنا فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه ، وأشبعناه ركلاً وركلاً ، ومزقنا له سترته الطويلة – الأستانبولين – وخطفنا العصا من يده ، وأذقناه وقعها على أصابع يديه ، وعلى ركبتيه ، ولا أحتاج أن

---

(١) المازنى – قصة حياة – ص١٦ وما بعدها .

أذكر أننا طردنا ، وأن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملاعين» .

«وبعد نحو أسبوع عرف أبى ما كان ، فلم يقل شيئاً وإنما ألحقنا بمدرسة أخرى فى شارع محمد على ، على مقربة من القلعة ، وتسمى مدرسة (القروشللى) .. وفى هذه المدرسة كان الضابط – وهو تركى – يجلدنا بالسوط ، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحياناً ، ولكن السوط كان فى يده ، وكان يكفى أن يلمسنى بطرفه ، وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام وأجتزت أمتحانها ، ولكن صاحبها أبى أن ينقلنى إلى (فصل) أرقى لأنى صغير السن ، فبقيت فى السنة الأولى عاماً آخر بلا موجب سوى حذلقة هذا المدير أو الناظر الذى استضال جسمى ، واستصغر سنى ، واستكثر علىّ السنة الثانية من أجل ذلك» .

– وانتظم «كاتبنا» فى تعليمه حتى نال الشهادة الإبتدائية .. ولم تكن تلك الشهادة بالأمر الهين فى ذلك الوقت ، وفى ذلك يقول المازنى نفسه [1] :

«يمكن بسهولة أن تتصوروا حال التعليم الإبتدائى إذا قلت أن تلميذاً كان معنا فى المدرسة نال الشهادة الإبتدائية فعين فى السنة

(١) المرجع المذكور – ص ٦٣ .

التالية مدرساً فى السنة الرابعة التى تعد لنيل الشهادة الإبتدائية . وأبلغ من هذا فى الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى (الأشياء) وهى عبارة عن معارف عامة ، وكان تدريسها يومئذ باللغة الانجليزية» .

- ويقص علينا «كاتبنا» ماحدث على أثر حصوله على تلك الشهادة فيقول (١) :

«وأخذت الشهادة الإبتدائية فقالت أمى : تذهب إلى المدرسة الخديوية ، وتقدم إليها طلب التحاق بها . ولكن أخى - وقريب لى - جاءا ليقنعا أمى بأن تقبل توظيفى ، فاستغربت ، وقالت : ولكنه طفل . قال قريبى : إن نفقات التعليم الثانوى كبيرة ، فمن أين تجيئين بها ؟ . وعزز أخى رأيه . وألح الاثنان عليها إلحاحاً شديداً ، وهى تأبى وتقول أنها لاترضى بذلك ، وأن ابنها يجب أن يتعلم ، وأن أوان التوظيف وكسب الرزق لايزال بعيداً ، فأغلظ أخى لها فى الكلام ، وعنف معها قريبى ، فطردتهما وأمضت مشيئتها، وأدخلتنى المدرسة . وقد بقيا زمناً غير قصير لا يجترئان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بى إليهما لأزورهما ، وتوصينى ألا أقطعهما ، وتقول إنه خلاف أدى إلى جفوة بينها وبينهما ، وقد فعلت ماتريد ، وقواها الله عليه ، فلا مسوغ لبقاء الهوة ، ولا موجب لها على كل حال فيما بينى أنا وبينهما ، وهى

---

(١) المرجع المذكور - ص ٦١ .

لا تضمر لهما بغضاً ، ولكنها تخاف لعبهما ، ودخولهما مرة أخرى فيما لايعنيهما ، فخير لى أن يبقيا بعيدين حتى أفرغ من التعليم» .



ونصل بعد ذلك إلى مرحلتى الدراستين : الثانوية والعالية .. فنجد أنه قد مضى فيهما غير متعثر ، بل انطلق يجتازهما سنة فسنة بنجاح وتوفيق ؛ ولم يقل لنا «كاتبنا» أنه كان متفوقاً على زملائه ، أو أنه كان من «الأوائل» دائماً . .بل مضى يصف هاتين المرحلتين بأسلوبه الذى يجمع إلى حسن العرض ، ولطافة المأخذ ، عمق النظرة ، وصدق التعبير ، وإن كان يميل إلى المبالغة - فى بعض الأحيان - فى كل مايظهر ضعفه ، وقصوره .. ولنستمع إليه وهو يتحدث عن مرحلة الدراسة الثانوية ، حيث يقول عنها فى فصل يحمل عنوان : ذكريات مدرسية .. مقدماً لحديثه بقوله (١) :

«سأكتفى بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التى تغنى عن التفاصيل . ولست أرمى إلى غاية من هذا التصوير سوى مايمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ، ومواجهة ماض بحاضر . .فمثلاً يمكن أن تتصوروا ....» .

---

(١) المرجع المذكور - ص ٦٣ .

ثم يمضى يتحــدث عن دراسته بالمرحلة الثانوية فيقول (١) :

«كان التعليم الثانوى انتقالاً بأدق المعانى ، فقد صار كل من فى المدرسة انجليزياً - الناظر والمدرسون والتعليم - ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح فى الإمتحانات وأكبر ظنى أنهم كانوا يترفقون بنا ، ويعطفون علينا ، ويتساهلون معنا ويتركوننا ننجح على سبيل الاستثناء» .

- وهذه بالطبع مبالغة من «كاتبنا» - كشأنه دائما فى إظهار ضعفه - وما نشك فى أنه إنما كان يجتاز امتحاناته بنجاح عن مقدرة وجدارة، ويكفى أن نشير إلى مدى اتقانه للغتين الانجليزية والعربية إتقاناً مذهلاً لننفى عنه مايصف به نفسه من ضعف ..!!

- ونواصل بعد ذلك معه حديثه عن تلك المرحلة - وهو يقول (٢) :

« .... وأدع غيرى وأقتصر على نفسى فإنى أعرف بها ، فأقول إنى ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة ، أو أن أقدر فيها على شىء ، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق . وكان الأساتذة يختلفون ، فمنهم الفظ ومنهم الرقيق . وأذكر أن أحدهم كان

---

(١) المرجع المذكور - ص ٦٣ .

(٢) المرجع المذكور - ص ٦٣ .

يذكرنى درسه بالكتاب الذى حفظت فيه القرآن الكريم فقد كان يملى درس الجغرافيا ، فإذا كان الدرس التالى طالبنا به محفوظاً عن ظهر قلب ، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعة واحدة وعلى مكتبه الكراسة والتلاميذ يتلون وهو يسمع ، ثم يضع فى كل ركن واحد من الحافظين ليمتحن زملاءه . وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس فى الجغرفيا حتى كرهتها وكرهت حياتى كلها بسببها .

وكان لنا مدرس آخر من أظرف خلق الله وأرقهم حاشية ، وأعفهم لفظاً ، فكان إذا ساءه من أحدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له : تهج كلمة بليد مثلا أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة . ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها فى الوقت الحاضر ، ولكننا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان ، لا أدرى لماذا . وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص ، وكان رجلاً طيباً ووقوراً مهيباً ، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل نراه أمراً طبيعياً جداً .

وأعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ماغرس فى نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فإنى أرانى إلى هذه

الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ، ولا يسعنى إلا اكبارهم حين ألتقى بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر ومن لطائف الشيخ حمزة أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا ولكنه كان لايكتب فى تقريره إلى الوزارة إلا خيراً . وقد اتفق لى بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين وعينت مدرساً فى المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للتفتيش فأغتنمت هذه الفرصة وقلت : يا أستاذ .. ماهو الاسم العربى لهذا الدخان تارة والتبغ تارة أخرى ؟ . فقال : إنتظرنى ياسيدى حتى أنظر فى «الكناشة» وأخرج مما يلى صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدرى كيف كانت مختبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت :

كأنما حثحثوا حصا قوادمه　　　أو أمر خشف بذى شث وطباق

ومضى عنى .. وفكرت أنا فى كلمة الطباق التى جاء نى بها الشيخ ، فاستحسنتها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة تبغ نعرب بها اللفظ الانجليزى أو الفرنسى «توباك أو توباكو» .

ومن حوادث الشيخ حمزة معى إنى كنت أؤدى الإمتحان الشفوى فى الشهادة الثانوية وكان هو رئيساً للجان اللغة العربية ، فلما جاء دورى اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألنى ماذا أحفظ . وكنت فى صباح ذلك

اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبى «صلى الله عليه وسلم» فعلقت بذهنى وألهمنى الله أن أقول إنى أحفظ خطبة للنبى ، ففرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح : قل لى يا شاطر الله يفتح عليك ، وقد سترنى الله فلم أخطىء ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفانى من النحو والصرف والإعراب .



ونصل به إلى مدرسة المعلمين العليا .. ولكن قبل أن نجتاز معه عتبات تلك المدرسة نجد أنه مما يكمل الصورة ، ويبرز معالمها أن نعرف معه - ومنه - كيف مضت خطاه إليها ، بينما كان يؤهل نفسه ويعدها لدراسة أخرى سواها .. كأن يكون طبيباً ماهراً ، أو محامياً بارعاً ، ولنستمع إلى كلماته التى يسوقها فى بساطة محببة ، ومبالغة مشوقة [1] :

أدركتنى حرفة التعليم كما أدركتنى حرفة الأدب ، فبلائى عظيم ، ومصيبتى كبيرة ، وخطبى أدهى من خطب ابن المعتز الذى لم تكن فيه - مثلى - لو ولا ليت ، وأنا أحمق منه بما قيل فيه ، وأحوج إلى إنصاف الشعراء من ظلم الحياة ، وكنت قبل أن أدخل مدرسة المعلمين العليا - فقد كانت هناك مدرسة أخرى «سفلى» - أعنى دونها مرتبة - أشتهى

---

(١) إبراهيم عبدالقادر المازنى- خيوط العنكبوط - الدار القومية للطباعة والنشر - ص٢٨٣ - ٢٨٥ - فصل عنوانه : «فاتحة عهد» .

أن أكون طبيباً ، لأن الطبيب ليس كمثله أحد ، يقتل الناس ويأخذ كراء يده ثم إنى من مازن ، كما لا أحتاج أن أقول ، والطب كأنما هو فى طباعهم ، وكثيرون من أهلى أطباء ، فلا حاجة بى إلى الغرباء حين يوافى الحين ، وقد اشتهر الموازن فى جاهليتهم باتقان الجراحة ، وكان أحب الألعاب إلى أطفالهم أن يخرجوا إلى مخارم الجبال ويتربصوا وراء صخرها ، حتى إذا عبر الطريق عابر ، سألوا عليه ، وحفوا به وراحوا ينوشونه بالرماح القصيرة ويشكونه بالسيوف الصغيرة ويغمزونه فى المواضع الطرية فيتوثب ويقفز ويصيح : «أوخ .. أى ...» وهم يقهقهون مسرورين ، ولا يزالون يداعبونه ويجمشونه حتى يفتر عن الحركة المسلية والصياح الممتع فيدعونه إلى غيره ممن تقوده اليهم رجلاه .

ولكن الدكتور كيتنج - ناظر مدرسة الطب فى ذلك الوقت - طردنى ورمى لى أوراقى وقذف بى وراءها لأن نتن جثة أحدث لى إغماءً، فوعدته أن أسد أنفى فهز رأسه ، فتعهدت بأن أروض نفسى على حب النتن والعفن فلم يلن ، فخرجت بقلب كسير ، وقلت إذا فاتنى الطب فلن تفوتنى المحاماة ، فان فى قومى مروءة وطول لسان ، وقديما كان الموازن أهل لسن ونجدة ، ومضيت إلى مدرسة الحقوق ، فأخذوا أوراقى وقالوا حباً وكرامة ، وانقلبت إلى بيتى انتظر موعد الدخول ، وإذا بالوزارة تزيد أجور التعليم فى هذه المدرسة من خمسة عشر جنيها فى العام إلى

ثلاثين ، فقلت : ياخبر أسود ! وأسرعت إلى المدرسة فاستعدت أوراقى ، فما كان ذاك يدخل فى مقدورى . وأيقنت أنى ضائع ، وأن التعليم قد سدت فى وجهى طريقه ، وبكيت على صدر أمى ، وقلت لها قد ذهب مع الريح كل تعبك فى تعليمى .

قالت : أدخل مدرسة الهندسة .

قلت : يا حفيظ ! وجفت دموعى من الرعب .

قالت : لم لا ؟

قلت : ألا تعلمين أنى حمار ؟

قالت : لا تكن طفلا . أذهب إليها فما بقى هناك غيرها .

قلت : إنى لست طفلا . إنى حمار .. ! حمار ! ألا تفهمين ؟

قالت : كلا ! لست أفهم .

قلت : إنى لا أستطيع أن أفهم هذه الدروس . ليس لى استعداد لفهمها ..

قالت : وكيف فهمت ما تلقيت من الدروس إلى الآن ؟

قلت : بجهد وعناء .

قالت : إذن تفهم الباقى بجهد جديد وعناء آخر .. قم إلى هذه المدرسة قلت : وحياة رأسك إن هذا مستحيل .

فأقصرت ، فقد كنت أصدقها ولا أحلف بحياة رأسها كذبا ، وكانت هى تعرف ذلك معرفته .

ثم فتحت مدرسة المعلمين العليا فدخلتها وأنا أقول أن هذا على كرهى له أهون من هندسة مدرسة الهندسة» .

وانتظم فى دراسته فى مدرسة المعلمين العليا : يدرس اللغة الانجليزية وآدابها .. وما نعتقد إلا أنه كان يأخذ تلك الدراسة بجدية تامة تدفعه إلى ذلك أمور عدة : لعل أهمها رغبته فى انجاز الدراسة فى مدتها المحددة دون تأخر ، ومنها أيضاً إجادته للغة الانجليزية ، وتطلعه إلى مزيد من الإجادة لها والتعمق فيها ، باعتبارها أداته فى الإطلاع على ثقافة الغرب - بصفة عامة - ووسيلته إلى دراسة الأدب الانجليزى - بصفة خاصة - ومنها - كذلك - ما كان سائدا فى ذلك الوقت من أخذ الأمور كلها بجدية تامة ، وبخاصة من أبناء الطبقة الوسطى الذين كانوا يتطلعون لأدوار القيادة والريادة فى مجتمع جديد.

وقد تحدث «كاتبنا» عن هذه الفترة من حياته كما تحدث عن سواها .. فقال يحكي عن ذكرياته عن الشيخ حمزة .. وغير ذلك من الذكريات .. فقال :

«ولكنه - أى الشيخ حمزة - فى مرة أخرى كاد يضيِّع علىّ سنة . وكنت طالباً فى مدرسة المعلمين وكانت لجنة الإمتحان فى اللغة العربية

برياسته فقال أحد أخوانى بعد خروجه من الإمتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ، ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذى يقع عليه الاختيار ، ولم نكن ندرس نحواً ولا صرفا في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب فأيقنا بالفشل . وجاء دورى فدخلت وأنا واثق من الرسوب ، وجلست أمامه وناولنى كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهى : إعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها .. إلخ .

فقال : ضع الكتاب . فوضعته ، فسألنى عن العدوان والفعلين عدا واعتدى ، وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التى يكون عليها الفعل (واعتدى) مثل (اعتديا) للماضى المثنى (واعتديا) للأمر ، فسألنى لماذا كان الماضى بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سبباً وقلت أنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : ولكن لهذا سبباً ، قلت : إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، ومادمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفى ولا داعى للبحث عن سبب مختلق . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه وحدثت نفسى أنه خير لى وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطى الجهل . وأصررت على رأيى وكاد يحدث ما لا يحمد، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش – وكان عضوا فى اللجنة – تدارك

الأمر ، فقد نظر فى ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال : العصر وجب يا مولانا . فنهض الشيخ وهو يقول : «أى نعم» ، وذهب للصلاة ، ونسينى فكان فى هذا نجاتى ، وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتى به» .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة فى مدرسة المعلمين ، ويكفى أن أقول أنه كانت لنا فى الأسبوع ثمانى ساعات لا نتلقى فيها أى درس ، فترك هذا التخفيف وقتاً كافياً للمطالعة الخاصة .. وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعوننا عليها بكل وسيلة ولايفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعنا جدا .» .



٧ - المازنى .. مدرساً :

تخرج المازنى فى مدرسة «المعلمين العليا» فى سنة ١٩٠٩ - أى إنه كان ابن عشرين عاماً - وهى سن صغيرة بالنسبة لمن يصبح -كما أصبح المازنى - مدرساً للترجمة فى مدرسة السعيدية الثانوية .. ولنستمع إليه وهو يتحدث عن أولى تجاربه فى هذا الصدد [١] :

---

(١) قصة حياة : إبراهيم عبدالقادر المازنى- المرجع سالف الذكر - ص ٢٨٥ - ٢٨٨ .

«ومضت الأيام – أعنى الأعوام – وصرت معلما ، وتسلمت من الوزارة الشهادة لى بذلك ، ولكنى لم أفرح بها لأن ذلك كان بكرهى ، كما صار من لا أذكر اسمه فى رواية لموليير طبيبا على الرغم من أنفه ، فعينتنى الوزارة مدرسا للترجمة بالمدرسة السعيدية الثانوية ، وكنت صغير السن ولم تكن لى لحية ولا شارب ، فكنت أحلق وجهى بالموسى ثلاث مرات فى اليوم لعل ذلك يعجل بانبات الشعر ، فقد اشتهيت أن يكون لى شارب مفتول وخدان كأنما سقيا عصير البرسيم ، ولكن الموسى لم تجدنى فتيلا .

وكنت أبكر فى الذهاب إلى عملى بلا موجب ، وأدخل المدرسة مع التلاميذ ، ثم اتفق أن تأخرت يوما إلى مابعد الساعة الثامنة ، فأقفلت أبواب المدرسة كما هى العادة ، فلما بلغت أول باب قلت : افتح ياعم محمد .

وكان نوبيا ، فنظر إلىّ وقال :

– من الباب الثانى .

قلت : هل من سبب ؟

قال : أيوه .

قلت : ماذا ؟ .

قال بايجاز : الأوامر .

قلت : ألا تتفضل بشيء من الإيضاح ؟

قال وهو ينظر إلى ممتعضاً : تأخرت .

ففهمت وقلت : تريد أن تقول التلاميذ الذين يتأخرون يكون دخولهم من الباب الثانى ؟

قال : أيوه .

قلت : ولكنى لست تلميذا .

فلم يخف ضجره وهو يقول : روه . روه !

فرحت - أعنى انصرفت - فما بقيت فائدة من خطاب هذا النوبى الجاهل ، وعلى أن هذا لم يكن ذنبه ، ولو كان لى ولو شارب واحد على الأقل لما ركبه الوهم ولا خلطنى بالتلاميذ .

وبلغت الباب الثاني فألفيت البواب النوبى جالسا وبين يديه كتاب عرفت بعد ذلك أنه دلائل الخيرات ، وكان رأسه يهتز هزاً عنيفاً وهو يقرأ ، ولم أكن أعرف اسمه فقلت : هوه ، فرفع رأسه عن الكتاب ولكنه ظل يحركه إلى الأمام والخلف فقلت بلهجة الجد : إفتح ، فلم يقطع التلاوة واكتفى بأن يشير بسبابته إشارة بالرفض .

فأعدت الكرة بصوت أعلى :

- أقول لك افتح .

فأشار فى هذه المرة بذراعه كلها أن أنصرف .

فألححت وحملت صوتى أشد مايحتمل من العنف .

فقال : تؤ .. تؤ ...

فصحت به وقد كدت أجن :

ـ تز فى عينك.. افتح..

فنطق لأنه غضب، وقال: اسمك أيه؟

قلت يافرج الله! وذكرت اسمى وفى ظنى أنه لا يكاد يسمعه حتى يسرع إلى الباب فيفتحه على مصراعيه وينثنى على يدى يقبلها ويعتذر ويسألنى الصفح.

ولكنه لم يفتح بابا ولم يتناول راحتى ولم يطلب عفوى وإنما قال وهو يخرج من جيبه قلما ويبل سنه بلسانه:

ـ اسمك إيه؟

قلت: إيه؟

قال: اسمك إيه؟

قلت لعله لم يسمع، وأعدته عليه فكتبه على ورقة وقال متوعدا: استنى!

ومضى عنى إلى حيث لا أعلم، وفى هذه اللحظة لمحت الأستاذ الهراوى ـ وكان موظفا معنا فى المدرسة ـ فصحت:

- ياهراوى أفندى! ياهراوى أفندى!

فالتفت على صوتى فصحت مرة أخرى:

- أدركنى يا أخى! هذا البواب الأحمق لايريد أن يفتح لى الباب - وأخبرته الخبر فانطلق يضحك ويقهقه فقلت:

- هلا فتحت لى أولا؟؟

فجاء بالبواب، وعرفت أنه كان قد ذهب يشكونى إلى الضابط، فلما دخلت قلت للضابط الأول :

- ياصاحبى إن لى عندك رجاء. أن تجمع الخدم والبوابين جميعا وتعرفنى بهم وتعرفهم بى، فنتصافح ولا يحدث بعد ذلك مثل هذا الخطأ، فلست أضمن أن أجد الاستاذ الهراوى كل يوم بحيث يسمعنى إذا دعوته إلى النجدة.

ولكن الخطأ لم يمتنع بعد ذلك، فقد كنت مرة واقفا فى غرفة المدرسين، ولم يكن بها فى تلك اللحظة سواى، فمر الناظر، وكان انجليزيا، فرآنى، وكان ظهرى اليه، فظننى تلميذا بعث به أحد المدرسين ليجيئه بكتاب أو كراسة أو غير ذلك، فغضب، ودعا كبير الضباط إلى غرفته، وأخبره أن فى حجرة الأساتذة تلميذاً وأن هذا لا يجوز، وأن عليه أن يبلغ المعلمين أن الناظر يرجو منهم أن لايخرجوا التلاميذ من المكاتب لقضاء شيء ما لأنهم يجيئون إلى المدرسة ليتعلموا لا ليقضوا حاجات المدرسين.

ودخل الضابط عليَّ فسألنى:

ـ من كان هنا يا أستاذ؟

قلت: ـ متى؟

قال: الآن؟

قلت: أنا..

قال: أنت؟

قلت: نعم..

قال: لا أحد غيرك؟

قلت: لا أحد ـ لماذا تسأل؟

فقص عليّ الحكاية وضحكنا، وصار الناظر لا يرانى إلا قهقه، ولكن هذا لم يمنعه أن يغلط مرة أخرى غلطا أفحش، وكنت أتمشى ، ويداى فى جيبى البنطلون، فما أشعر إلا وكف غليظة تقبض على عنقى، وتهزنى بقوة، وبعد لأى ما تملَّصت ، وواجهت هذا المعتدى فإذا به هو الناظر وإذا به يتراجع مبهوتا ويقول:

ـ آسف .. آسف جدا.

قلت، ويدى على قفاى: إيه ؟؟ آسف ؟؟ ولكن أى مزاح هذا؟

قال: أكرر لك أسفى.. على أنى لم أكن أمزح.

قلت مستغربا: لم تكن تمزح؟ ولكن لماذا تريد أن تخلع لى رأسى؟

قال: لم أكن أريد أن أخلعه..

قلت: إيه؟ ولكنك كدت تخلعه.

قال: لقد توهمتك تلميذا هاربا من الدرس. وأحسب هذا سيكون درسا لى ، لن تمس يدى تلميذا بعد اليوم.

وكانت لى جرأة عليه لأنه كان أستاذى، وكنت أحبه واحترمه، فزادتنى صراحته إكباراً له، ولم يسعنى إلا أن أعترف ـ فيما بينى وبين نفسى ـ أنه معذور.

ولم يتكرر الخطأ بعد ذلك، ولكن هذه الفاتحة لعهدى بالتعليم لم تكن أسعد الفواتح.

ولا كان من شأنها أن تقلب كرهى لهذه المهنة حبا، ونفورى منها إقبالا عليها. وقد ظللت أتحين الفرص بنفسى فلم تسنح منها واحدة إلا بعد عشر سنوات».



ومع ذلك، فقد كان «معلما» ناجحا، محبوبا، ذا مهابة ومكانة بين تلاميذه، فقد كان له من قوة الشخصية، ما استعاض به عن قصر القامة، وضآلة الحجم، بل ما أغناه عن استعمال الشدة، أو الالتجاء إلى العقاب.. وهو نفسه يحدثنا عن ذلك فيقول (١) :

(١) ابراهيم عبد القادر المازنى – قصة حياة – المرجع المذكور ص ٦٧ – ٧٠ .

« .... وقد صرت معلما بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشر سنين، خمس منها فى الوزارة وخمس فى المدارس الحرة، وفى هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذا أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية.. ولم يقصر التلاميذ في محاولة المعاكسة.. ولكنى كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ، فكنت أعرف كيف أقمع هذه الرغبة الطبيعية فى الشقاوة، وكانت طريقتى أن أتجاوز عن الذى لا ضير منه فلا أشغل به نفسى والتلاميذ، مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه فى ذلك فلا أعد هذا الكلام الذى لايباح، ولا أقيم ضجة من أجله، وقد حدث يوما وأنا مدرس فى المدرسة الخديوية أن دخلت فرقة فألفيت على مكتبى كل أدوات الرياضة مرصوصة على نحو لا شك أنه متعمد، وكان تلاميذى لايجهلون كرهى للرياضة، وكنت أنا لا أكتمهم أنى أعد نفسى جاهلا بها، حمارا فى علومها، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثونى عسى أن أثير الضجة التى يشتهونها ولا يفوزون منى بها، ولكنى لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها فى مكانها ثم بدأ الدرس.. واتفق يوما آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت صيفا والجو حاراً جدا فضاعف الحر شعورى بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة، وأدركت أنها هى المادة التى كنا ونحن تلاميذ نضعها فى الدواة

مع الحبر فتكون لها هذا الرائحة المزعجة، فقلت لنفسى أنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد، وإذا كانت الرائحة القبيحة تغثى نفسى فإنها تغثى نفوسهم معى أيضا، فحالهم ليس خيراً من حالى، والإحساس المتعب الذى أعانيه ليس مقصوراً علىَّ ولا أنا منفرد به، وأنهم الأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معى وقد أرادوا أن يفردونى بهذه المحنة، والفوز فى هذه الحالة خليق أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال.

فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودون إلى مثلها بعد ذلك، وقد كان. تصبرت وتشددت ودعوت الله فى سرى أن يقوينى على الاحتمال، ومضيت فى الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسى عما أعانى من كرب هذه الرائحة الملعونة، وكنت أرى فى وجوههم أمارات الجهد الذى يتكبدونه من التجلد مثلى فأسر واغتبط وازداد نشاطا فى الدرس والإغضاء عمن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا فى الكلام فقد كنت عارفا أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا فى فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها.

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها تزهق، ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصررت على عنادى المكتوم، واغتنمت فرصة

أصبع مرفوعة وسألت صاحبها عما يريد ، فقال : إنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد، قلت افتحها، وفتحت النوافذ كلها، وتشهدنا جميعا وأستأنفنا الدرس، ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال ما لا يطاق، وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورائى ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بى، وقال لى واحد منهم إنهم يأسفون لما حصل، وأن الأمر كان مقصودا به غيرى، وأنهم يطلبون الصفح، فسررت ولكنى تجاهلت وسألتهم عما يعنون.. قالوا.. الرائحة الكريهة التى كانت في الفصل.. قلت: رائحة.. أى رائحة..؟ إننى مزكوم ولهذا لم أشم شيئا فلا محل لاعتذاركم. ومضيت عنهم، وكان هذا درسا نافعا لهم ولو أنى عاقبت أحدا لما أثمر العقاب إلا رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينغصوا علىَّ، وأن ينجح معى عبثهم الطبيعى فى مثل سنهم.

وفى آخر سنة من اشتغالى بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت للأساتذة: إننى ألغيت العقوبات جميعا فلا حبس ولا عيش حاف ولاشىء مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ.

ونظريتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة.. وخير له أن يشتغل بغيرها.. وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن تقوم على المودة والاحترام، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها

هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له يبغى له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوى مداركه وينمى استعداده، وأنه لايلزمه بدرس، ولا يفرض عليه شيئا بل يرغبه فى الدرس ويحبب إليه التحصيل.

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى معونة على ضبط النظام، وقد كان . قضينا فى هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأننا إخوان كبار لهم وأصدقاء نافعون.

ولم أكتف بهذا بل ألغيت (الجرس) الذى يدق إيذانا بابتداء الدرس أو انتهائه لأنى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور والمواظبة من تلقاء أنفسهم، وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم فى الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضا عن الدفاتر الكثيرة التى تستعمل فى المدارس والتى تحتاج إلى موظفين كثيرين لا داعى لهم.

وقد كنت أحب أن أظل فى هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة، ولكن الحركة الوطنية بدأت فى صيف ذلك العام وجرفنا جميعا تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة.

ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع.»

فقد عمل المازنى خمس سنوات مدرساً فى مدارس الحكومة (وزارة المعارف) ثم استقال بعد ذلك ليعمل خمس سنوات أخرى فى المدارس الأهلية.. وذلك كما روى هو نفسه، فقد كتب فى رسالة بعث بها إلى أحمد عبيد استجابة لطلبه لينشرها فى كتابه (مشاهير شعراء العصر) ـ حيث ذكر فيها عن فترة عمله بالتدريس [(١)] :



«تخرجت فى مدرسة المعلمين الخديوية العالية سنة ١٩٠٩ وعينتنى وزارة المعارف مدرسا للترجمة فى المدرسة السعيدية الثانوية ثم الخديوية الثانوية ثم مدرسا للغة الانجليزية بمدرسة المعلمين الناصرية، ثم طلبت الإقالة فى سبتمبر ١٩١٤ بعد قيام الحرب الكبرى بشهر فراراً من اضطهاد وزير المعارف يومئذ، وكان صديقا لحافظ إبراهيم الشاعر الذى انتقدته، واشتغلت مدرسا للترجمة والتاريخ بالمدرسة الإعدادية الثانوية، ثم بوادى النيل، ثم عينت ناظراً للمدرسة المصرية الثانوية، ولما قامت الحركة الوطنية المصرية طلقت المدارس وانصرفت إلى السياسة، ومازلت إلى هذه الساعة محرراً بجريدة الأخبار بالقاهرة».



(١) نص هذه الرسالة منشور فى كتاب أعلام الأدب المعاصر فى مصر – ٢ – ابراهيم عبد القادر المازنى للدكتورين حمدى السكوت ومارسدن جونز .

٨ ـ المازنى.. صحفيا:

عندما استقال المازنى من عمله فى التدريس ليتفرغ لقلمه، وعمله الفكرى ـ فقد اختار لنفسه بذلك الطريق الذى ييسر لموهبته أن تثمر، ولفكره أن يتحرر، ولابداعاته أن تنطلق إلى أقصى مدى.

والواقع أنه عندما اتجه ـ بكليته ـ إلى الصحافة لم يكن يرتاد طريقا جديداً عليه، بل كان يمضى فى ذات السبيل الذى عرفه وارتاده منذ أن كان طالباً بالمعلمين العليا يراسل بعض الصحف التى تنشر له ما يوافيها به من قصائد شعرية، ومقالات نثرية تحمل الصورة الأولى للمازنى ـ الأديب الناشىء.. وقد واصل السير فى ذات الطريق بعد أن عمل فى التدريس ، فلم تنقطع ابداعاته عن الصحف طوال السنوات العشر الأولى من حياته العملية التى جمع فيها بين التدريس والكتابة الصحفية.. ففى هذه الفترة التى امتدت حتى سنة ١٩١٩ كانت قصائده ومقالاته تنشرها صحف عديدة منها: الدستور ـ الجريدة ـ البيان ـ عكاظ الأسبوعية ـ الأفكار ـ وادى النيل ـ الأهالى [١].

بل إن دراساته الأولى قد نشرت على صفحات تلك الصحف فى هذه الفترة. منها مقالاته وأبحاثه عن: الأساليب الكتابية ـ الشعر

---

(١) دكتور محمود أدهم : ابراهيم عبد القادر المازنى - بين التاريخ والفن الصحفى - ١٩٩١ - مكتبة الأنجلو المصرية ص ٩١ .

والشعراء ـ شوقى وحافظ والعقاد ـ ابن الرومى ـ شعر حافظ إبراهيم .. وذلك فضلا عن العديد من المقالات التى تناولت نواحى اجتماعية مختلفة.

ولكنه إذ استقال وتفرغ للصحافة ، فقد ظل لفترة قصيرة يكتب لصحف ومجلات متعددة إلى أن استقر فى جريدة الأخبار التى أصدرها ورأس تحريرها أمين الرافعى ، وظل يعمل بها ردحاً من الزمن أثر عنه فيها جولات أدبية وسياسية ملحوظة العناية.. محفوظة القدر فى سجل الحركة الوطنية والأدبية على السواء [(١)] .

ومع أن مدة عمله متفرغا بالأخبار كانت محدودة، الا أنه قد نشر بها حوالى ٥٠٠ مقالة على مدى حوالى ٥٢ شهراً: أربعة أعوام وأربعة شهور.. وقد بدأت هذه المقالات بمقالته التى نشرها فى ١٩٢١/١٢/٢٣.. والتى كان عنوانها : (ينادون فى الظلام: حطموا الأقلام) وانتهت بمقالته التى نشرها فى ١٩٢٥/٤/٢٩ والتى كان عنوانها (الجامعة الأميرية ورؤساء أقسامها).. نعم حوالى ٥٠٠ مقالة، غير المترجمات والتعليقات والردود على بعض القراء.. وإن أهم ما يميز هذه الكتابات عن تلك المتصلة بالمرحلة السابقة أن النمط السياسى منها، ثم النمط المجتمعى ، كان لهما وجودهما القوى.. وحتى هذه

---

(١) د . ابراهيم عبده تطور الصحافة المصرية ص ٢١٨ .

المقالات السياسية فانها لم تقتصر على القضية المصرية فقط، وإن كان من الطبيعى إن تكون لها الغلبة على ما عداها، وإنما تناولت موضوعات عديدة فى السياسة العالمية والعربية وهاجمت الاستعمار خاصة الانجليزى فى أى مكان.. بل إنه على صفحات هذه الجريدة الوطنية الكبرى.. بدأت مقالات الرجل التى تتناول قضية السودان، ووحدة وادى النيل ومحاولات انجلترا فصله عن مصر، وكذا التفرقة بين الشعبين ، وهى المقالات التى عبرت عن اهتمام أصيل عنده بالسودان الشقيق، لم يتخل عنه طوال حياته.. على أن ذلك كله لم يمنعه من طرق موضوعات أخرى عديدة، مثل الهجوم على سعد زغلول، وتناول حرية التعبير.. كما لم يكن ذلك أيضا على حساب كتاباته المحورية، أو الأساسية، فى الأدب والنقد، أو دراساته الأدبية والفلسفية.. ونقول أن عددا لا بأس به من مقالاته النقدية والذاتية (التى نشرت فى هذه المرحلة) قد أعيد نشرها فى كتابه الأشهر: «حصاد الهشيم» (١) .

على أنه فى المرحلة التالية لم يشأ أن يقصر مجال عمله، وما ينشره من ابداعات فى مجلة أو صحيفة واحدة.. حتى لقد كانت كتاباته تنشر فى أكثر من عشرين صحيفة ومجلة، بين كبيرة، ومتوسطة وصغيرة، سياسية ومجتمعية وأدبية وفنية.. وكأنه يقول: إنى هنا.. لقد

(١) د . محمود أدهم المرجع السالف الذكر ص ٩٦ ، ٩٨ .

ظهرت كتاباته ـ خلال الفترة منذ منتصف عام ١٩٢٥ وحتى قيام الحرب العالمية الثانية : ١٩٣٩ على صفحات : الكشاف ـ اللواء المصرى ـ الاتحاد ـ روز اليوسف ـ الزهراء ـ الجديد ـ مصر المصورة ـ الدنيا المصورة ـ المصور ـ كل شيء ـ أبوللو ـ الجامعة ـ الأسبوع ـ المجلة الجديدة ـ شهر زاد ـ الوادى ـ مجلتى ـ الشباب ـ الجهاد ـ الراديو المصرى ـ السياسة ـ السياسة الأسبوعية ـ البلاغ ـ الرسالة ـ وأهم ما يمكن تقديمه من ملاحظات تتناول هذه المرحلة إنها شهدت كذلك ... الكتابة السياسية، ثم النقدية، وتليها تلك المتصلة بالانماط الأقرب إلى الأدب، والأدب الصحفى لاسيما المقالات القصصية والفكاهية والصور القلمية (١) .

ولعلنا نخص بالذكر جريدة السياسة، والسياسة الأسبوعية.. فقد بدأ نشر مقالاته بالسياسة الأسبوعية أولا ثم ظهرت مقالاته بعد ذلك فى نهاية يوليو عام ١٩٢٨ فى الشقيقة الكبرى ـ السياسة ـ واستمرت مقالاته بهما.. حتى لقد بلغ ما نشر له فى السياسة الأسبوعية (٨٩) مقالة عامة وصورة قلمية أعيد نشر بعضها بعد ذلك فى كتابه «صندوق الدنيا».. بينما استمرت كتابته فى السياسة حتى عام ١٩٣٣ وقد

---

(١) د . محمود أدهم المرجع المذكور ص ١٠٠ .

وصل عدد ما نشر له بها حوالى الأربعين مقالة .. وفى هذه الفترة ذاتها كان يكتب أيضا فى مجلتى : الجديد - والهلال (١) .

وتأتى بعد ذلك المرحلة التى يسميها الدكتور محمود أدهم بمرحلة «النضوج والخصوبة» (٢) حيث يصفها بأنها المرحلة الأخيرة من حياته عامة، ومن حياته الصحفية - بصفة خاصة - تلك التى تبدأ منذ نهاية الثلاثينيات وحتى وفاته عام ١٩٤٩ .. أى أنها فى عمر الزمن وبمقياسه حوالى عشرة أعوام أو تزيد قليلاً، وفى عمره القلمى الأدبى والصحفى معا، هى مرحلة النضج والاستقرار والثبات بكل ما يتصل بها من خبرات وما تجمع داخل حدودها من نتائج التجارب العديدة، وحصاد السنين والمعرفة معا.. وكان نتاجه - خلالها - يسير فى الجانبين معا: جانب الأدب، والأدب الصحفى، مع عناية خاصة بالجانب الثانى وبشكل غير مسبوق، ونشاط غير مسبوق أيضا.. فقد كان يحسن الاختيار لوسائل نشر هذين النشاطين، فيختار للمادة الأدبية ما يناسبها من صحف أسبوعية، ومجلات ، وللمادة الصحفية ما يناسبها - وكان من أبرز إنماط نتاجه فى هذه الفترة المقالة الافتتاحية ثم مقالة الخواطر والتأملات، وتلك المجتمعية.. أما أهم الصحف والمجلات التى شهدت

---

(١) د . محمود أدهم المرجع المذكور ص ١٠٥ .

(٢) د . محمود أدهم المرجع المذكور ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

كتابته، وحملت نتاج قلمه إلى القراء فى تلك الفترة فهى: البلاغ - الهلال - الرسالة - المصور - الأهرام - الاثنين - الاثنين والدنيا - أخبار اليوم - الاساس - الجيل الجديد - الدستور - العزيمة - المقتطف - روز اليوسف - المواهب - مسامرات الجيب - الكتاب.

ونضيف إلى ذلك أنه قد نشر لفترة فى صحيفة «الاخوان المسلمون»، وقيل أنه ودع الكتابة بها لما لاحظه من إسرافهم في عداواتهم، وغلوهم فى حرب خصومهم الفكريين، لاسيما .. حين حرقوا كتب العلم الانجليزية، فقد اعتبر ذلك تعصباً لا يتفق ورسالة الاسلام التى تدعو للعلم وتدفع اليه [1] ..

ولا نختم هذه الفقرة قبل أن نشير إلى فترة كتابته بانتظام في (أخبار اليوم) ثم (الاساس) حتى وفاته.. فمنذ صدور أخبار اليوم وهو يتابع الكتابة فيها أسبوعياً، وعلى أثر صدور الأساس - لسان حال حزب السعديين - فقد ظل يتابع الكتابة فيها على نحو منتظم، وأن كنا نلاحظ «أن كتابته على صفحاتها لم تكن حزبية الطابع بالمعنى المفهوم، وإنما كانت سياسية عامة .. كانت تعنى بالقضية المصرية بصفة عامة من خلال المصلحة القومية العليا، وذلك بصرف النظر عن الحزبية والأحزاب أو النظرة الضيقة التى تتجة الى الأمور من خلالها فقط .. بل لعل من أبرز ما يلفت انظار المتابع هنا هو مواصلة كتاباته لا من منطلق

---

(١) د . ابراهيم عبده تطور الصحف المصرية ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

مصرى فقط، وانما من منطلق عربى أيضاً، وهو فى ذلك يتحدث عن الواقع العربى ومشكلاته، لا سيما ما اتصل بموضوعات السودان والقضية الفلسطينية، وغيرهما (١) .

★

ذلكم هو المازنى صبياً، ثم فتى يافعاً، فى مسيرة حياته التى لم تكمل ستين عاماً، وتلك هى المجالات التى ارتادها: طالب علم، ثم مدرساً، يجمع بين التدريس والكتابة الى الصحف، الى أن يتفرغ للقلم مع قيام ثورة ١٩١٩ فينذر له نفسه، ويظل ولا هَمٌّ له الا الكتابة والابداع، فى حياة لا عمل له فيها إلا الاشتغال بأمور الفكر، مدافعاً عن الوطن، مشغولاً بشئونه وشجونه ومشاكله دون أن ينسيه ذلك ابداعاته الرائدة فى عوالم النقد والشعر والأدب بصفة عامة والأدب القصصى والصور القلمية بصفة خاصة، وذلك على النحو الذى نحاول أن نرسم صورة لملامحه فى الصفحات التالية.

ولعلنا - قبل أن نمضى الى الصفحات التالية - أن نشير الى أننا ونحن نراجع ما تيسر لنا من مقالات للمازنى، فقد اطلعنا على مقالة له نشرت فى (أخبار اليوم) فى عددها الصادر فى ١٩٤٩/٧/٢٧ أى قبل وفاته بأسبوعين .. ولعلها كانت آخر أو من أواخر ما كتب فقد قضى ما يقرب من أسبوعين - قبل رحيله - مريضاً ..

---

(١) د . محمود أدهم المرجع السالف الذكر ص ١١١ ، ١١٢ .

والمقالة كان عنوانها: (السعادة فى المزاد) .. يقول فيها [(١)] :

«تلقيت رسالة يشكو فيها صاحبها من هموم الماضى ومن أوهام المستقبل، والخوف مما عسى أن يجئ به من الكروب .. وقد سألنى كاتب الرسالة : كيف يقاوم هواجسه ووساوسه فى الليل، ولا سيما حين يأوى إلى فراشه، فان الخوف من الموت يزعجه ، ولست استغرب سؤاله، فإنى أنا أيضاً أعانى هذه الهواجس، فأنا أعذره، ولست أخشى على نفسى الموت، فإن الأعمار بيد الله، ولكل أجل كتاب، ولابد مما ليس منه بد، وإنما أخشى على أولادى أن يضاموا ويذلوا بعدى، ولكنى أقاوم هذه الهواجس بأن أقول لنفسى : إن الموت شر وبلاء ما فى ذلك شك، ولكن أمره لا ينبغى أن يكون مدعاة للكرب والحزن والغم، لأنى ما دمت حياً، فالموت لم يقع، فلا داعى للتفكير فيه، والجزع منه سلفا، فاذا جاء الأجل، فانى لن أكون حينئذ موجوداً، ولا حيلة لى بعدئذ فى شئ، فالموت إذن لا شئ، لا للأحياء لأنهم أحياء ولم يموتوا، ولا للأموات لأنهم أصبحوا ولا وجود لهم إلا حين يشاء ربنا أن ينشرهم.

فالجزع من الموت سلفا لا معنى له، وهو سخافة، لأنه خوف من مجهول لا يدرى أحد متى يقع.

---

(١) ابراهيم عبد القادر المازنى - السعادة فى المزاد - أخبار اليوم ١٩٤٩/٧/٢٧ .

وفى هذا يقول أبيقور - وتالله ما أحكمه !- «عود نفسك أن تعتقد أن الموت لا يعنينا أمره لأن الخير والشر إنما يكونان حين يحسان، والموت هو انتفاء كل احساس، ففهم حقيقة معنى الموت خليق أن يزيد استمتاعنا بكون الحياة فانية.»

يريد أن يقول أن فهم حقيقة الموت حقيق أن يصرفنا عن التطلع عن الخلود واللهفة عليه والحسرة على امتناعه ..»

، رحمه الله ..

وكأنى به كان يحس دنو الأجل، وقرب ساعة الرحيل، فأراد أن يستقبل الموت بذات كلماته الساخرة التى تعبر عن فلسفته التى تستهين بكل المشاكل، وترى ترك كل أمر الى حينه، فما تستاهل الحياة الانشغال بهمومها المقبله، وكفانا ما نلقاه فى حاضرنا من أوهام وأباطيل .. لا تعدو أن تكون فى أحسن الأحوال : حصاد الهشيم أو قبض الريح ..!

★★★

الفصل الثانى

المازنى .. وعالمه الشعرى *

اذا كان المازنى قد انصرف عن قول الشعر بعد أن أصدر ديوانيه : الأول والثانى، فإن قصائد محدودة دعت إليها دواع أو مناسبات معينة، ثم راح يتنكر لشعره، وينكر على نفسه شاعريتها، وكان ما يزال – عند ذلك الانصراف – في قمة نضجه وعطائه.. إلا أننا –رغم ذلك – يحق لنا أن نقرر انه ظل على ولائه لعالمه الشعرى الذى ابتدعه، ورسم معالمه،

---

* ديوان المازنى الذى نشير إليه هو الديوان الذى أصدره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية (والذى صار الآن : المجلس الأعلى للثقافة) – بتوصية من لجنة الشعر به ، وتولى مراجعته وضبطه وتفسيره الأستاذ الشاعر : محمود عماد – ١٩٦١ – ولم يطبع بعد ذلك وحتى أعداد هذا الفصل – مارس ١٩٩٧ – والديوان يضم أجزاء ثلاثه ، ويشير الأستاذ عماد إلى أن الجزءين الأول والثانى طبعا فى حياة المازنى ، أما الجزء الثالث فهو يشمل «الشعر الذى لم يسبق نشره فى حياة الشاعر ، قدمه إلى لجنة الشعر أخوه الأستاذ / محمد عبد القادر المازنى .

وخط حدوده، وظلت ابداعاته لا تخرج عن اطار الشعر بمعناه الذى ارتضاه، وإن جاءت قولاً منثوراً، فهى وإن لم تأخذ قالب الشعر الا إنها كانت موصولة بعالمه فكراً ومعنى وابداعاً..

فصلة المازنى بالشعر لم تقف عند القصائد التى أبدعها، وضمتها دفات دواوينه الثلاثة، الا انها امتدت على طول حياته ومدار انتاجه - وابداعه - كله، فهو الشاعر مبدعاً، وهو الشاعر ناقداً، وهو الشاعر مفكراً، وهو الشاعر قاصاً وراوياً، وهو الشاعر فى نظرته للحياة، وحديثه عن المجتمع، وتصويره للناس، بل وفى أحاديثه عن السياسة، وخوضه لمعاركها ..! ذلك أنه كان يرى أن الشعر ما هو الا الصدق فى الترجمة عن النفس : «وما الشعر الا معان لا يزال الانسان ينشئها فى نفسه، ويصرفها فى فكره، ويناجى بها قلبه ، ويراجع فيها عقله، والمعانى لها فى كل ساعة تجديد، وفى كل لحظة تردد وتوليد، والكلام يفتح بعضه بعضاً، وكلما اتسع الناس فى الدنيا اتسعت المعانى كذلك، والصدق فى الترجمة عن النفس والكشف عن دخيلتها أبلغ فى التأثير وأنجح. والأصل فى الشعر وسائر الفنون الأدبية على اختلاف وتباين مراميها وغاياتها، النظر بمعناه الشامل المحيط».

«إن الشعر ديوان يقيد فيه أهل العقول الراجحة ما يجيش فى خواطرهم فى أسعد الساعات، وهو الذى ينقذ من الفناء والعدم خواطر

الالهام، وهو يحلق بالمرء فوق الحياة، ويرغمه أن يحس ما يرى، وأن يرى ما يحس، وأن يعلم ما يتخيل، وهو يجعل القبح جمالاً، ويزيد الجمال نضرة وجلالاً، ويفجر فى النفس ينابيع الا من الفزع والسرور والألم، ويذهب مياه الموت المسمومة المتدفقة فى عروق الحياة. فلا جرم كان الشاعر أحس الناس وأعمقهم حكمة، وأجمعهم لخلال الخير، وخصال الفضل - نقول الفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز القراء رؤوسهم انكاراً، فان الشعر أساسه صحة الادراك الأخلاقى والأدبى، ولست واجدا شعراً إلا وفى مطاويه مبدأ أخلاقى أدبى صحيح، وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا الإدراك الأدبى تكون قيمة شعره.»(١)

وإذا كان ذلك قوله فى مطلع حياته وفى أولى خطاه نحو النضج والاكتمال.. فإنه ظل هو منهاجه على طول حياته : صدق قول، واخلاص سريرة، وبحثاً عن الجمال فى كل مناحى الحياة .. نقول ذلك رغم ما قاله عنه البعض، بل ما قاله هو عن نفسه، من أن هناك «مازنيين» يفترق كل منها عن صاحبه :

كأننا اثنان ليس يجمعنا	فى العيش إلا تشبث الذكر
مات الفتى المازنىُّ ثم أتى	من مازن غيره على الأثر

(١) المازنى : الشعر : غاياته ووسائطه . دار الفكر اللبنانى ١٩٩٠ .

فرغم ذلك نقول : أن المازنى الجديد هو ذاته المازنى القديم، وإن أصبح أكثر نضجاً، وأشد عمقاً، وأنفذ نظرة الى الحياة .. غير انه ظل هو هو صدقاً، وإخلاصاً، وإعلاء للجمال -

وفى تناولنا للمازنى الشاعر نتناول أمرين أساسيين : أولهما آراؤه فى الشعر فناً وابداعاً ثم مَنْ نقد من الشعراء، وسيكون هذا التناول بمثابة التقديم للحديث عن المازنى نفسه شاعراً مبدعاً، ورائداً مجدداً..



١- المازنى .. وقضايا الشعر :

منذ مطالع حياته الأدبية، وهمه الأكبر - أو «وكده» كما كان يؤثر أن يقول - هو قضية الشعر .. حتى لقد كان أول ما ظهر له من كتب مطبوعة - بعد ديوانه الأول - كتابه «الشعر - غاياته ووسائطه»، ثم كتابه عن «شعر حافظ» - وهما كتابان لا يتحدثان الا عن الشعر وقضاياه المختلفة من وجهة نظر جديدة، تتسم بعدم الأخذ بالمسلمات، كما انها لا تكبر ما هو قائم، بل تفجأ القوم بهز الأركان الثابتة، وعرض ما هو جديد غير مسبوق، مما يخالف ما هو سائد ومعروف.. حتى اذا ما اكتملت نظرته، أصدر مع زميله - ورصيفه العقاد - كتابهما المعروف بـ «الديوان» والذى صار علماً على مدرسة عرفت فيما بعد بـ «مدرسة الديوان» لما كان لها من أثر فى تجديد الشعر العربى : أوزانا

وأغراضاً .. قوافى ومعانى .. شكلاً ومضموناً . ومن أسف أن تلك المدرسة لا تلقى اليوم من دعاة من يسمون أنفسهم بأهل، وأصحاب، أو دعاة الشعر الحديث الا كل هزء واستهتار، والرأى عندنا أن من يذهب هذا المذهب هو الأولى بالهزء والاستهتار .. على انه لا يفوتنا أن نشير الى أن جميع هؤلاء ليسوا على هذا الرأى، فمنهم من عرف لمدرسة الديوان مكانها ومكانتها ودورها فى تجديد وبعث الدماء فى عروق الشعر العربى. ومنهم من أشاد بالمازنى ووصفه بأنه الشاعر الكاتب الفنان [1] .

وإذ شرعت فى إعداد هذا الفصل عن عالم الشعر فى أدب المازنى، فقد رحت أراجع كل ما كتبه الباحثون عنه، فكان من أول ما لاحظته انهم لا يجدون خيراً من كلمات المازنى نفسها فى التعبير عن أفكاره وآرائه ومنهاجه .. وتأتى بعد ذلك تعليقات الدارسين وآراؤهم مدحاً أو قدحاً، إكباراً أو امتهاناً، وإن كان ما يصدر عن المنصفين منهم يعلى من مكانة الرجل، ويشيد بدوره الريادى الكبير .. ولم أجد جاحداً لفضله إلا واحدا من اثنين : مغرضاً أو جاهلاً ..!

ومن هنا كان ايثارى منذ مطلع الحديث للنقل عن المازنى نفسه، سواء اتصل القول بمسيرة حياته، أو دار حول أفكاره، أو تناول الحديث عن دوره الريادى فى عالمى الشعر والنثر.

---

(١) صلاح عبد الصبور ماذا يبقى منهم للتاريخ ؟ ص ١١٣ .

ونذكر أن للمازنى كتابين أفردهما لحديث الشعر هما الكتابان اللذان سبقت اشارتنا إليهما وهما : «الشعر : غاياته ووسائطه» و«شعر حافظ» - كما أن له دراسات متفرقة عن الشعر والشعراء ضمها فصول كتابيه : «حصاد الهشيم» و«قبض الريح» كان من أهمها دراساته عن الشاعرين الأصيلين : «المتنبى» ثم «ابن الرومى» - ويعتبر ما كتبه فى مقدمة ديوان العقاد ثم فى مقدمته للجزء الثانى من ديوانه (ديوان المازنى) بمثابة دراستين تحدث فيهما عن مدرسة الديوان، وبسط فيهما آراءه فى الشعر: صياغة وأغراضاً، كما أنه كان أحد اثنين شاركا فى إصدار كتاب «الديوان» الذى لم يظهر منه سوى جزءين اثنين، ثم توقف عند هذا الحد.. وكان من آخر ما كتبه المازنى دراسته عن (بشار بن برد) التى ضمنها كتابه الذى صدر فى عام ١٩٤٤ - وذلك إلى مقالات أخرى أنشأها فى أخريات أيامه عن حافظ وشوقى رجع فيها عن كثير من آرائه المبكرة فيهما، وفى شعرهما، وهى مقالات تتميز بهدوء النبرة، والرغبة الصادقة فى الانصاف بعد أن خفت حدة الانفعال، بتقدم السن، ونتيجة لما مر به من تجارب وأحداث.

وفى عرضنا فيما يلى لآراء المازنى فى عالمه الشعرى نقف عندما يمثل خطوطها الرئيسية، ويكفل ابراز الملامح الأساسية التى ميزت فكره - وابداعه - عمن سواه، حتى عن أولئك الذين شاركوه فى إقامة عمد «مدرسة الديوان».

وليس من شك - فى رأينا - أن تلك الآراء التى ضمنها رسالته الأولى عن الشعر : غاياته ووسائطه كانت بمثابة النواة لكل ما تفرع عنها، وتطور منها من آراء وأفكار، ومن هنا كان اهتمامنا بعرض هذه الرسالة فكراً، ومضموناً، ومنهاجاً.

٢- عن رسالته : الشعر - غاياته ووسائطه :

أصدر المازنى هذا الكتاب فى سنة ١٩١٥، ولم يطبع فى حياته طبعة ثانية [١] - بل إنه لم يهتم هو نفسه بالإشارة إليه أو الى ما ضمنه من آراء فى كتاباته التالية عن الشعر والشعراء وإن ردد بعض تعبيراته ومعانيه فيما كتب من مقدمة لديوانه الثانى.. وإن كان هذا الكتاب يحتل مكانة كبيرة لدى كل دارسى المازنى، ومقدرى فنه، لما يتميز به من الدقة والتركيز من ناحية، ومن الشمول وتعدد الأغراض من ناحية أخرى، فضلاً عما جاء به من أفكار غير مسبوقة - فى العربية على الأقل - وأيا ما كانت أقوال النقاد من أن ما ورد فى هذا الكتاب من آراء إنما هو نتيجة تأثر بقراءاته فى الأدب الانجليزى بصفة خاصة، فان ذلك لا ينفى ما لهذا الكتاب من دور ملحوظ فى الريادة والسبق،

---

(١) وقد أعيد طبع هذا الكتاب فى عام ١٩٨٦ تقديم وتحليل دكتور مدحت الجيار عن دار الصحوة بالقاهرة كما طبع مرة أخرى عن دار الفكر اللبنانى ١٩٩٠ ، تحقيق الدكتور فايز ترحيلى وهذه الطبعة الأخيرة هى التى نرجع إليها .

بحيث يمكن لنا أن نقرر انه ساهم بنصيب مشكور - وملحوظ - فيما شهده الشعر المعاصر من تطور وأن تأخر ذلك طويلا .. حتى ليمكن القول انه كان بذرة احتضنتها أرض مصر، وتعهدتها بالرعاية، وأمدتها بما اعانها على النماء، لتؤتى أكلها جنى طيبا مباركا، حتى وان تمثل ذلك فى معارك وجدل ونقاش، فقد كان ذلك هو السبيل للنهضة، فتعددت المدارس، وتنوعت المفاهيم..

ويستهل الكتاب - أو المازنى - القول بالحديث عن «الشعراء»، فيوسع من دائرتهم، حتى ليقول [1] :

«لصدق من قال أن الإنسان حيوان شعرى، وان لم يلقن قواعد النظم وأصوله ! فالطفل الذى يستمع الى اساطير العجائز شاعر، والقروى الذى يرى قوس الغيام فيجعله قيد عيانه شاعر، والحضرى الذى يخرج ليرى موكب الأمير شاعر، والبخيل الذى يقبض كفه على الدرهم شاعر، والرجل الذى يتندى على اخوانه، ويتسخى (يعنى يكون كريماً جواداً) على أصحابه شاعر، وصاحب الملك الذى ينوط آماله بابتسامة، والمتوحش الذى ينقش معبوده بالدم، والرقيق الذى يعبد سيده، والظالم الذى يحسب نفسه إلها، والمزهو والطامح والشجاع

---

(١) المازنى الشعر غاياته ووسائطه ص ٣٤ .

والجبان والغنى والفقير والشاب والشيخ وسائر خلق الله، ما منهم الا من يعيش فى عالم من نسج الخيال وسرح الأوهام !»

وينقل عن «شيلى» الشاعر الانجليزى قوله (١) :

«صدق الألوان، فان الشاعر .. لا يقتصر على رؤية الحاضر كما هو، ولا يجتزى باستطلاع القوانين والأنظمة التى ينبغى أن تنزل على حكمها أموره (أى أمور الحاضر)، بل يستشف المستقبل من وراء الحاضر، فليست خواطره إلا بذرة الزهرة التى يجنيها الزمن الأخير ونوارته، وما الشعر إلا موقظ الأمم، وباعث الشعوب، ورسول الانقلابات فى الآراء والتقاليد .. والشعراء هم قساوسة التنزيل الالهى، ورسل الوحى القدسى، وشراح الحكمة الربانية .. وهم المرايا التى تتراءى فى صقالها أظلال المستقبل الضخمة الكثيفة الملقاة على الحاضر .. وهم اللفظ الناطق بما لا يفهمون، المعبر عما لا يدركون .. وهم قبل وبعد المشرعون الذين لا يعترف بهم الناس»

ثم يمضى المازنى - بعد ذلك - فى محاولة للوصول إلى تعريف للشعر وإن كان يقرر منذ البداية أنه لا يرى للتعاريف غناء فيما نتكلف .. على إنه وإن كان لابد منها فان حقها ولا شك التأخير لا التقديم .. و«ليس يكفى فى تعريف الشعر مثلاً أن يقال انه الكلام

---

(١) المرجع المذكور ص ٣٥ .

الموزون المقفى، فان هذا خليق أن يدخل فيه ما ليس منه ..» ثم يضيف الى ذلك قوله : «ولا يغنى فى تعريفه أن نقول أنه مرآة الخواطر الأبدية الصادقة، فان هذا فضلاً عن غموضه الشديد خطأ صريح ليس فيه شعاع من نور الحق، وذلك لأن الشعر لا يمكن أن يكون .. مرآة الخواطر الأبدية الصادقة، وليس هو الا مرآة الحقائق العصرية، لأن الشاعر لا قبل له بالخلاص من عصره، والفكاك من زمنه، ولا قدرة له على النظر الى أبعد مما وراء ذلك بكثير فحكمته حكمة عصره ، وروحه روح عصره .. ولا أبدى فيما نعلم الا عواطف الانسان (١) »

ويمضى بعد ذلك ليثبت قوله : «وليس الشعر كما وصفه الشيخ الذى زعم الجاحظ أنه ذهب الى انه صياغة وضرب من التصوير، وكما سماه ارسطاليس (فنا تصويرياً) لأن الأصل فى الشعر (الاحلال والاقتراح) لا التصوير : احلال اللفظ محل الصور، واقتراح العاطفة أو الخاطر على القارئ .. قال بيرك : أن من يتدبر حسنات الشعراء وبراعاتهم يجد أنها لا تستولى على النفس من أجل ما تحدثه من الصور، بل لأنها توقظ فى النفس عاطفة تشبه العاطفة التى ينبهها الشئ الذى هو موضوع الكلام.. نقول وهذا صحيح حتى فى الشعر الوصفى الذى هو بطبيعته وغايته ألصق بالتصوير مما عداه من فنون

---

(١) المرجع المذكور ص ٣٦ ، ٣٧ .

الشعر وأبوابه، وذلك لأن الشاعر لا يصور الشئ كما هو، ولكن كما يبدو له، ولا يرسم منه هيكله العريان، بل يخلع عليه من حلل الخيال بعد أن يحركه الاحساس» [(١)] .

وكذلك فقد ذهب المازنى إلى «أن الألفاظ ليست إلا رموزا مجردة تمر بالسمع.فيكتفى العقل منها بلمحة دالة تفيد عن الصورة» [(٢)] .. كما ذهب إلى أن يتساءل : «وهل الشعر الا خاطر لا يزال يجيش فى الصدر حتى يجد مخرجاً، ويصيب متنفساً ؟» [(٣)]

ثم يمضى ليقرر «أن الالفاظ قاصرة عن العبارة عما فى النفس، والاحاطه بجميع ما يختلج فى الصدر، ويدور فى الذهن من المعانى ..» [(٤)]

ويخلص إلى قوله : «ومن هنا قالوا فى تعريف الشعر انه لمحة دالة، ورمز لحقائق مستترة، يعنون بذلك أن الشاعر ليقذف بالكلمة فتأخذها الاسماع ، وتعيها النفوس ، ويستوعب معانيها الخيال» [(٥)]

ثم يضيف : «إن الشعر مجاله العواطف لا العقل، والاحساس لا الفكر، وانما يعنى بالفكر على قدر ارتباطه بالاحساس. ولا غنى

---

(١) المرجع المذكور ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) المرجع المذكور ص ٤٤ .
(٣) المرجع المذكور ص ٥٠ .
(٤) المرجع المذكور ص ٥١ .
(٥) المرجع المذكور ص ٥٥ .

للشعر عن الفكر، بل لابد أن يتدفق الجيد الرصين منه بفيض القرائح، ويتحفى بنتاج العقول، وجنى الاذهان ، ولكن سبيل الشاعر أن لا يعنى بالفكر لذاته ولسداده ورزانته، بل من أجل الاحساس الذى نبهه أو العاطفة التى أثارته، فربما كان الفكر أصلاً فروعه الاحساس، وثماره العواطف، وربما كان فرعاً أصله الاحساس ، فالفكر من أجل الاحساس شعر ، أما الفكر لذاته فذلك هو العلم، وعلى هذا أكثر من كتبوا فى الشعر من فحول العلماء والشعراء» .. و «لابد فى الشعر من عاطفة يفضى بها اليك الشاعر ويستريح، أو يحركها فى نفسك ويستثيرها، وإذا كان هذا هكذا فقد خرج من الشعر كل ما هو (نثرى) فى تأثيره ، أو ما كان فى جملته وتفصيله عبارة عن قائمة ليس فيها عاطفة ولا هو مما يوقظ عواطف القارىء ويحرك نفسه ويستفزها ، مثل شعر الحوادث اليومية الذى ولع به حافظ (يعنى الشاعر حافظ ابراهيم) واشباهه ممن لا يفهمون الشعر ولا ينظرون الى أبعد من أنوفهم ، ولا يرمون به إلى غير الكسب ومجاراة العامة من القراء والكتاب أيضا. ومثل شعر المديح كله الذى اكتظت به دواوين شعراء العرب..» (١) .

وعلى ذلك فانه يقرر فى قطع ووضوح أنه :

« لا شك فى أن العاطفة فى الشعر هى الأصل فى هذه المحسنات

---

(١) المرجع المذكور ص ٥٨ – ٦١ .

التى يخلعها عليه قائلوه، ومبعث هذا البديع الذى جن به الناس، وافتتنوا ببهجته فى الزمن الأخير ، وذلك لأنه لما كان الشاعر لا يسوق لك الشىء من أجل أنه حقيقة وحسب بل كما تراه وتحسه روحه فقد صار لا بد له من لغة حارة مستعارة بها عنه . وقد يستعمل هذه المحسنات طائفة من النظّامين والمقلدين، ولكنك تراها فى كلامهم نافرة مرذولة ثقيلة الورود على النفس، ممجوجة فى السماع من أجل أنها محسنات أتى بها صاحبها لبريقها ورونقها لا لأنها عالقة بالعاطفة .. أما الشاعر المطبوع الذى يؤثر خياله فى إحساسه أو إحساسه فى خياله ، فليس به حاجة إلى الكد والعمل، وإنما يجى ذلك منه عفوا على غير جهد، فلا تكاد تحس إن هنا شيئاً من البديع (١) ..

ويؤكد المازنى أن النثر مهما كانت رقته وبلاغته ، فإنه لا يكون شعرا .. فهو يتساءل.. «هل يمكن أن يكون النثر شعرا ؟ ليجيب بأن من يقول بأنه يمكن أن يوجد الشعر فى المنثور كما يوجد فى المنظوم إذا أحدث تأثيرا فى النفس .. فقد فاته أن النثر قد يكون شعريا - أى شبيها بالشعر فى تأثيره ، ولكنه ليس بشعر، وأنه قد تغلب عليه الروح الخيالية ، ولكن يعوزه الجسم الموسيقى ، وأنه كما لا تصوير من غير ألوان، كذلك لا شعر إلا بالوزن.. ويقول فى بسط هذا المذهب ، وبيان

---

(١) المرجع المذكور ص ٦٤ .

دعائمه : .. وتعليل ذلك فيما نعلم أن كل عاطفة تستولى على النفس ، وتتدفق تدفقا مستويا لا تزال تتلمس لغة مستوية مثلها فى تدفقها فاما وفقت إليها واطمأنت ، وإلا أحست بحاجة ونقص قد يعوقان تدفقها الطبيعى، وربما رفعاها الى مجرى غير طبيعى فيضر ذلك بالجسم والنفس جميعا، كالحامل لا تزال تتمخض حتى تلد . وهذا هو السبب فيما يجده الشاعر من الروح والخفة بعد أن ينظم احساسه شعرا، ولم تزل العواطف العميقة الطويلة الأجل منذ كان الانسان تبغى لها مخرجا، وتتطلب لغة موزونة ، وكلما كان الاحساس أعمق كان الوزن أظهر وأوقع ، ولكنه لابد لذلك من أن يجمع الاحساس بين العمق وطول البقاء، فان بادرة الغضب على حدتها ليس لها علاقة طبيعية بالوزن ولا بالموسيقى .

إذن فالوزن ضرورى فى الشعر وليس هو بالشىء المصطلح عليه، ولكنه جوهرى لابد منه وإن شئت فقل هو جثمان الشعر ، وليس يكفى أن تدعوه ثوبا يخلعه الشاعر على معانيه ، فتشير بذلك الى أنه شىء منفصل عن الشعر ، لأن الإنسان لم يخترع الوزن - ولا القافية - ولكنهما نشأ منه ، ولا شعر الا بهما أو بالوزن على الأقل .. وقد يكون النثر شعريا جائشا بالعواطف ، ولكنه ليس شعرا ، ولابد من تفهم ذلك ، فان فيه الحد بين الشعر وبين غيره من فنون الكلام ..(١) »

---

(١) المرجع المذكور - ص ٦٥ - ٦٨ .

ذلك هو حديثه عن الشعر وعن غاياته بصفة عامة، لينتقل بعد ذلك عن الحديث عن وسائط الشعر ..

فننقل أول ما ننقل عن المازنى قوله : ننتقل الآن إلى الكلام عن واسطة الشعر ، وأن لبوسه الجمال، وهى مسألة كثيرا ما يغفلها الكُتّاب والنقاد والشعراء أيضا لسوء الحظ ..

ثم ننقل عن الهامش الذى أورده محقق الكتاب.. حيث يقول : «الواسطة مؤنث الواسط مقدم الكور، الجوهرة التى فى وسط القلادة : وهو أجودها» ثم ننقل عن المعجم الوجيز أن (الواسطة : واسطة القلادة : الجوهر الذى فى وسطها ، وهو أجودها ومن معانيها : ما يتوصل به الى الشىء ..

وفى شرح مراده يقول المازنى : «وإذا كان امتياز الشعر بالتأثير فليس لشاعر على شاعر فضل فى مذهبنا الا بسهولة مدخل كلامه على النفس ، وسرعة استيلائه على هواها ونيله الحظ الأوفر من ميلها ، وإنما يلائم الشاعر بين أطراف كلامه، ويساوق بين أغراضه ويبنى بعضها على بعض ، ويجعل هذا سببا من ذلك لتكون عبارته أفعل باللب ، وأملك للسمع والقلب ، وأبلغ فى التأثير .

فالمزية هى فى القدرة على ايلاج المعنى فى ذهن القارىء، وذلك هو الأصل فى جميع فنون الكتابة .. [1] »

(١) المرجع المذكور ص ٧٠ .

وهو ينكر الغموض والتكلف فى التعبير.. فيقول : قد يكون عمق الفكرة مانعا من فهمها ، ولكن الغموض على أية حال عيب فى الشاعر أو الكاتب ، لأن الكلام مجعول للإبانة عن الأغراض التى فى النفوس ، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد ، وأوضح فى الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، مستنكر المورد على النفس، حتى يتأبى بغرابته فى اللفظ عن الافهام .. فما كان أقرب فى تصوير المعانى ، وأظهر فى كشفها للفهم، كان مع ذلك أحكم فى الإبانة عن المراد. وأشد تحقيقا فى الايضاح عن المطلب . وأعجب فى وضعه، وأرشق فى تصرفه، وأبرع فى نظمه ، كان أولى وأحرى بأن يكون مؤثرا وليس معنى هذا أن التأثير لا يتأتى إلا لاناقة اللفظ ورشاقة العبارة فقد يكون الكلام حسنا مؤثرا ويتفق له ذلك من غير رشاقة ولا نضارة ، وإنما الألفاظ أوعية للمعانى فأحسنها أوضحها وأشرفها دلالة على ما فيها .. ألا ترى كيف جنى أبو تمام على نفسه بحبه لتطريز الكلام ومبالغته فى تدبيجه ، وإسرافه فى استعمال الخشن النافر من الألفاظ ، وإكثاره من الاستعارات والتكلف لها اغتراراً بما سبق من مثل ذلك فى كلام القدماء ، حتى كثر فى شعره الرث الفاسد ، والغامض الذى ينبو عن الفهم ، وحتى صار أجدر الناس لا يقوى على اتمام قصيدة من شعره من غير تحامل على نفسه وارهاق

لذهنه ، وحتى جاء شعره غير مستو لكثرة اعتسافه ومزجه الغرر بالعرر، والمأنوس بالوحشي الكدر [1] .. فقد تراه يخلط الحسن بالقبيح.. والجيد بالردىء، والحلو بالمر، وذلك لا ريب نتيجة التكلف ، ولو أنه أطلق نفسه على سجيتها ما اختلف شعره هذا الاختلاف ، ولا عظم الفرق بين جيده ورديئة.. وقد وقع فى هذا العيب كثير منْ كُتَّاب العرب وشعرائهم ..[2]

ثم يضيف إلى ذلك قوله : «وتأثير العبارة لا يكون بحسن تأليفها ، وجودة تركيبها وجمال وصفها فان ذلك وحده على شدة الحاجة اليه – غير كاف بل لابد للشاعر كما أسلفنا – أن تكون نواحى نفسه جائشة بما يحاول أن ينسجه من خيوط الالفاظ، ولهذا كان المديح ثقيلا علي النفس ، ممجوجا فى الأذن إلا فى الندرة القليلة ، والقلة المفردة.. ففضيلة التأثير راجعة أيضا وفى الغالب الى شعور جم وإحساس قوى بما يجرى فى الخاطر ويجيش فى الصدر والى القدرة على إبراز ذلك فى أحسن حلاه.. [3]

ثم يتساءل : « وهل الشعر إلا مرآة القلب، وإلا مظهر من مظاهر

---

(١) الغرر : الخطر – العرر الفقر والسوء بما يعنى مزجه ما هو خطير بما هو سيىء وفقير .

(٢) المرجع المذكور – ص ٧٠ – ٧٢ – ٦١ .

(٣) المرجع المذكور ص ٧٣ – ٧٤ .

النفس ، وإلا صورة ما ارتسم على لوح الصدر، وانتقش فى صحيفة الذهن، والامثال ما ظهر لعالم الحس وبرز لمشهد الشاعر .

ويضيف الى ذلك قوله : «نعم .. إن الاحساس الجم، والشعور الملح لا يكفيان ، بل لابد من قوة التأدية ، وعلو اللسان للترجمة عنهما ، ولكنك إن عولت على ملاحة الديباجة وجمال الأسلوب وحسن السبك لم تعد أن تكون صنيعا أى صانعا حاذقا بصيرا بصرف الكلام ، متصرفا فى رقيقه وجزله ، مجودا فى مرسله ومسجعه يتخرج عليك طلبة الكتابة ، وينسج على منوالك روام الانشاء نسجهم على منوال الجاحظ ..»

على أنه – فيما يرى المازنى – «ليس يكفى المرء أن يكون صائب الفكر، صحيح النظر ، ولا أن يجعل صدره رائدا لقلمه ، وقلبه صوزة للسانه بل لابد له إذا ملك أعناق المعانى أن يحسن تسخير الألفاظ لها فإنه كما لا تكون الفضة أو الذهب خاتما أو سوارا أو غيرهما من أصناف الحلى بأنفسهما ولكن بما يحدث فيهما من الصورة كذلك لا تخلص المعانى من اكدار الشبهات، ولا يتم استيلاؤها على هوى النفوس، إلا بما يحدث فيها من النظم ، وإذا كان لا معنى إلا باللفظ ، فما أحراه أن يكون مشرقا محكم الأداء ، والشعر بعدُ فن، ولابد فى كل فن من الاحسان والتجويد وإلا بار على أهله [1] » .

---

(١) المرجع المذكور ص ٩١ .

ويتساءل : «نقول بأى شيء تفضل البيت على أخيه ، وهما فى المعنى سواء إن لم يكن بأحكام السبك، والبراءة من وصمات التعقيد والقلق والضعف؟ ويضيف قوله : على أنه لا ريب فى أن فن ابراز المعانى رهن أيضا بصحة النظر وسلامة الذوق، وصدق السريرة ولكنه أيضا فوق هذا وذاك ، ليس بمستطيعه إلا من أعدته له طبيعته، وهيأت له أسبابه فطرته، فهو على أنه فن يحتاج الى مواهب وملكات فالاجادة والاحسان ملكة لا تحصل بالدرس ولا تتهيأ بالمعاناة والطلب، لأن القدرة على استشفاف الصلات بين الأشياء وإدراكها ليست فى كل حال مقرونة بالقدرة على اختيار أفضل الرموز اللفظية لابراز هذه الصلات وتوضيحها، هذه قدرة الكاتب ، وتلك قدرة المفكر .

«ولابد لذلك من حافظة قوية بعيدة النسيان ، ينتقى منها الكاتب أو الشاعر خير الرموز وأكفلها بأحداث الصور المطلوبة فى ذهن القارئ ، وذوق سليم يحور إليه المرء فى اختيار هذه الرموز ليكون حسن الاختيار ، واتساق النظام معينين للذهن على قبول ما يراد نقله . ولتعلم أن قدرة الذهن على استظهار الألفاظ - كقدرته على إدراك الحقائق ووعيها - ليست إلا مصدرا واحدا من مصادر القوة العقلية إذا لم يؤازرها الذوق السليم، والسليقة صارت قوة تنتهى بصاحبها إلى ضعف فعلى قدر نصيب المرء من سلام الذوق ولطف السليقة ، يكون انتفاعه بمحفوظه ..

«فإذا صح ما نذهب إليه من الرأى استوجب ذلك أن لا تكون لغة الشاعر كلغة الناس بل لغة تصلح لهذه الأفواه السماوية التى تخرج منها وتند عنها ، ولا يتهيأ ذلك بالمجاز والاستعارة وما إلى ذلك فقط بل بإغفال كل لفظ وضيع مضحك، ونعنى باللفظ الوضيع ما تحوم حوله ذكر وضيعة ، فإن كل لفظ لو تفطنت مبعث طائفة من الذكر بعضها وضيع وبعضها جليل ، ولا مسمح للشاعر عن التنبه الى ذلك وإلا أساء إلى نفسه وإلى جلالة خواطره وإحساساته وخيالاته ، وكثيرا ما يسىء الشعراء من هذه الناحية عن قصد وعن غير قصد، فيخلطون الغث بالسمين ويطوون المضحك فى ثنايا الجليل - أترى لو كان كافور نبيا أتعبأ به شيئا أو يكون له قدر فى نفسك وجلال فى صدرك بعد هجاء المتنبى له ، وسخريته منه، والتهكم عليه ؟ (١)

وعن غاية الشعر .. يقول :

«قد نبغ الشعراء من كل أمة كائنة ما كانت ، وظهروا فى كل شعب كل على قدر مبلغه من الرقى الفكرى ، أفلا يستشف المرء من ذلك شيئا؟ وهل ليس للشعر غاية إلا ما يعزونها إليه من إدخال اللذة على القلوب والسلوان على النفوس ؟ أم هل صحيح ما يزعمون من أن الفنون تنشأ من أميال الإنسان الطبيعية وتملأ فراغ الرجل المستوحش والمتمدين

---

(١) المرجع المذكور ص ٩٣ - ٩٦ .

المترف سواء بسواء ، إن هذا الرأى الذى لا يخرج إلا من رأس منطيقى جاف يسفل بالشعر الى منزلة الألاعيب ويا سوؤها منزلة ، ولكن هذا المنطلق مكنوب لحسن الحظ وذلك أن السرور واللذة الحاصلين من الشعر إحدى غاياته ، ولا ريب لأنه إذا لم تحدث المتعة فقد ضاع فعله وصار كأنه لم يكن ولكنها ليست الغاية القصوى ، وإنما نتج هذا الغلط من الجهل وعجز الذهن عن التفكير الصحيح .

«إن من يتدبر تاريخ الشعر لا يسعه إلا التفطن إلى عنصر مكون له فى كل دور من أدواره وصفة غالبة عليه فى كل طور من أطواره وهى ما أسميه الفكرة الدينية ، فإن كل شاعر فى كل عصر نبيه وطفله معا. ومهما تكن أغانيه مصبوغة بألوان عواطفه وإحساساته وخيالاته فإنه لا يزال لها هذه الغاية : السمو بقومه إلى درجة من الفكر أعلى مستوى من التصور وأرقى ..

وعن الفكرة الدينية يقول :

وليس فى الأرض من ينكر فعل الشعر وتأثيره الأخلاقى ، ولكن هذا التأثير إذا حللته صار ماذا ؟ أليس هو الفكرة الدينية ؟ ولسنا نعنى بالفكرة الدينية هذه الأديان التى جاء بها محمد وعيسى وموسى وغيرهم وإنما نعنى أن كل فكرة عليها مسحة من الصبغة الدينية التى هى قاعدة كل حقيقة تدفع إلى تدبر اللانهاية تدبرا جديدا أو إلى مظاهر جديدة فى

صلاتنا الاجتماعية ، فالحرية والمساواة والأخوة وتلك شعار القرن المنصرم ليست قوانين فى شريعة العصر ولكنها لما كانت غايتها النهوض بغرض اجتماعى فلسنا نرى ما يمنع من أن نسميها دينية .
وليحذر القارىء من تضييق الخناق على مدلول ألفاظنا ولا يتعجل فى تطبيقها ، إذ لا ريب أن الشاعر لا يسوق لك هذه «الفكرة» عريانة الهيكل وقد لا يحسها أو يدركها ، ذلك سبيل الفيلسوف . وعلىَّ أنا وإن كنا نستعمل لفظة الكفرة بأوسع معانيها العامة، وكنا نعنى بها روح العصر جملة، إلا أنه لا تخفى عنا عناصرها المتضادة التى تتألف منها ولا يغيب عنا أنه قد لا تحتوى القصيدة إلا بعض هذه العناصر ولكن ندع شرح ذلك وتبيينه لما نحن موردوه عليك بعد .

وعلى ذلك فهو يخلص إلى :

أنه «ليس أظهر فى تاريخ الشعر ولا ألفت للنظر من علاقته بالدين ولقد كان عماد الشعر القديم وقوامه الأناشيد الدينية والأساطير المقدسة والآمال الحارة قال الدكتور أولريكى فى كلامه عن شكسبير : «الأصل فى الشعر وفى الدين واحد - وفى هذا دلالة على أنه إلهى وأنه إلهام ثان أ . هـ» .. وأنهما لكذلك فى جوهرهما أيضا ، وليس جنوح الشعر فى عصور المدنية عن وظيفته المقدسة إلا فى الظاهر ، لأن غاية الدين وغاية الشعر كانتا ولا تزالان واحدة وغاية الدين فيما نعلم ليست العقيدة

النظرية ، بل النتيجة العملية ، أى السمو بالناس إلى منزلة لا تبلغهم إياها غرائزهم الساذجة وعواطفهم الطليقة، وتلك لعمرى غاية الشعر أيضا ولكن من طريق الجمال . فالفرق بينهما ليس فى الغاية ولكن فى الوسيلة ، لأن الشعر يطهر الروح من طريق إلعواطف والإحساسات لا بالصوم والصلاة وغيرهما من مراسم العبادة. وقد يستعين الدين بالعواطف ولكنه أبدا يستعين بالعقل ويخاطبه أكثر مما يخاطب العواطف ..

ومن هنا فإنه ينتهى إلى قوله :

إن «غاية الشعر أن يدخل فى متناول الحس والعواطف والمدركات وكل ما له وجود فى العقل وأن يوقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة، وأن يملأ القلب ويشعر النفس كل ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله وكل ما له قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وأن يدرب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الخلال والأبد والحق ، وأن يمثل ذلك للاحساس ويحضره للذهن ، وأن يكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والإثم ، وأن يعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور واللذة ، وأن يخفق بالوهم على جناح الخيال ويفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وأن يسد النقص فى تجاريب المرء ، وأن يثير فيه تلك العواطف التى تجعل حوادث الحياة أشد تحريكا له وتجعله أشد استعدادا لقبول المؤثرات على اختلاف

أنواعها ودرجاتها ، لأنه ليس بالإنسان حاجة إلى التجريب الشخصى لتتحرك فيه هذه العواطف بل حسبه ظاهر التجريب الذى يهيئه له الشعر ، وإنما يستطيع الشعر أن يقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما يمثل للمرء ، لأن كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل فى الرأى قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الإرادة .(١)

وينهى كتابه أو رسالته بهذه الفقرة التى يذهب فيها إلى أن الشعراء لا ينبغون إلا فى عصور النزاع والقلق والاضطراب :

«وبعد ، فإذا كان رأينا غير صحيح ، وليس ثمة «فكرة» ينطق بها الشاعر ويترجم عنها، ولم يكن الشعر إلا عبارة عن الإحساس من أجل أنه إحساس فما تأويل أن كل العصور لا تنتج الشعراء على السواء ؟ ولماذا يظهر الشعراء فى عصر من العصور ثم ينام بأمثالهم الزمن قرونا؟ لا أرى الصدفة تكفى فى شرح ذلك وتعليله، لأن الذى يقلب تاريخ الأمم لا يسعه إلا نبذ هذا الرأى إذ كان الشعراء لا ينبغون فى عصور الترف والخمول والسلم السمين، بل فى عصور النزاع والقلق والاضطراب - تأمل أثينا بلاد القلق والاضطراب وايطاليا أيام دانتى وبترارك حين كان يتنازعها الأحزاب وتفت فى عضدها الحروب وإنجلترا

(١) المرجع المذكور - ص ٩٧ - ١٠٠ .

فى عـهـد اليـزابيث وجـيـمس وبعـد الثـورة الفـرنسـاوية ، والعـرب فى جاهليتهم وفى عصور النزاع والاضطراب التى تلت الإسلام، وفى غير هذه فإنك حيثما قلبت طرفك لابد واجد مصداق قولنا، وإنما كان هذا هكذا لأن كل ثورة أو انقلاب إيذان بمولد فكرة أو مذهب يحسه الناس جميعا فينشأ الشعراء ليعبروا عن هذه الفكرة أو المذهب وليشرحوا للناس آمالهم فى الحياة فى المستقبل. ولكن الشاعر كما أسلفنا القول لا يعطيك من هذه الفكرة جثمانها العريان، ولعله لا يفهم هذه الفكرة كل الفهم، ولا يحسها كل الإحساس ولا يتناول إلا وجوها منها : ومن هنا نشأت الحاجة الى أكثر من شاعر واحد ليتم إيضاح الفكرة من جميع جهاتها وعلى كل وجوهها. وهذا أيضا هو السر فى كثرة المقلدين الذين يتعقبون آثار الشاعر لأنهم يجدون خواطرهم وإحساساتهم مترجمة لهم فى كلامه فيشايعونه ويجرون وراءه رافعين أصواتهم بمثل ندائه وشبه آماله ومخاوفه .(١)

★

ذلكم هو الشـعـر ، وتلك هى المكانة التى يحتلها الشاعر عند المازني .. فالشاعر عنده هو صوت الحياة ، ومرآة العصر ، ونبى المستقبل .. إنه الصوت الذى يوقظ فى النفس عواطفها ، وفى الفكر يقظته ، ويخلع - فى نفس الوقت - على الحياة من حلل الخيال ما

(١) المرجع المذكور ص ١٠٢ - ١٠٣ .

يحرك الأحاسيس ، فهو لمحة دالة ، ورمز لحقائق النفس ومجاله العواطف لا العقل ، والاحساس لا الفكر ومع ذلك فلا غنى للشعر عن الفكر ، فليس ثمة شعر جيد إلا إذا كان فيض القرائح ، ونبع العواطف فى آن واحد ، وليس شعرا ما لا يوقظ العواطف، ويحرك النفس ، بل ويستفزها ، والشعر بعد ذلك لا يكون شعرا ما لم يكن مصاغا صياغة شعرية فلا شعر إلا بالوزن ، وكلما كان الاحساس أعمق، كان الوزن أظهر وأوقع .

والشعر – فى نفس الوقت – لبوسه الجمال – والجمال هو سهولة مدخل الكلام على النفس ، وسرعة استيلائه على هواها .. ومن هنا فان التكلف والغموض يعيبانه .. فإنما الألفاظ أوعية للمعانى.. وتأثير العبارة إنما يأتى نتيجة لصدورها عن نفس جائشة وشعور واحساس قوى بما يجرى فى الخاطر ويجيش فى الصدر مع قوة فى التأدية وعلو اللسان للترجمة عنها. لأن الشعر فن، ولابد فى كل فن من الاحسان والتجويد. وفن ابراز المعانى رهن بصحة النظر، وسلامة الذوق ، وصدق السريرة، وبأن يكون الشاعر صاحب موهبة أعدته طبيعته وهيأت له أسبابه فطرته وملكاته .. ومن هنا كان على الشاعر أن يتميز فلا تكون لغته كلغة النـاس بل هى اللغة التى تصلح لهذه «الأفواه السماوية» التى تخرج منها .. والشعر بعد إنما يصدر عن فكرة دينية .. نعم فان كل شاعر فى كل عصر نبيه وطفله معا ، ومن هنا وجب عليه أن يكون متوجهه السمو

بقومه إلى درجة من الفكر أعلى ومستوى من التصور أرقى .. فغاية الشعر أن يدخل فى متناول الحس والعواطف والمدركات وكل حالة وجود فى العقل وأن يوقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة ، وأن يملأ القلب ويشعر النفس بكل ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله.. وأن يدرب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والأبد والحق.. وإن يكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والإثم .. وأن يعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور واللذة، وأن يخفق بالوهم ويفتنه بسحر عواطفه وخواطره، الى آخر ما هنالك من غايات تهدف الى أن تسد النقص فى تجاريب المرء ، وتثير فيه تلك العواطف التى تجعل حوادث الحياة أشد تحريكا له..



٣ - المازنى .. ودراساته التطبيقية لثلاثة من الشعراء السابقين :

وإذا أرسى المازنى دعائم نظرته [١] الى الشعر والشعراء - وهى نظرة مرنة ، متحررة ، ترفع من مستوى الشعر ، وتهدف الى الارتفاع بمكانة الشعراء، ومن هنا فهو يبعد بهم عن التكلف فى القول ، وتعمد

(١) نؤثر هذا التعبير : للنظرة عن التعبير السائد فى عالم الدراسات النظرية .. لما فى التعبير الاثير لدينا من حرية تحرر ومرونة بعكس ما توحى به «النظرية» من أننا بصدد قواعد تتصف بالجمود والتحديد ..

الصنعة وزخرف القول، ليأتى جمال الشعر نابعا من ذاته مما يعبر عنه من معان ، ومما يثيره فى النفس من مشاعر ، ومما يوحيهِ الى متلقيه من أحاسيس وأفكار .. ومن هنا كانت أيضا كراهيته لشعر المدح من ناحية ، ولشعر اللفظ الموشى من ناحية أخرى ، وللشعر الذى يفتقد جودة الصياغة ودقة الاختيار وتلاؤم اللفظ مع المعنى من ناحية ثالثة ..

وقد ذهب بعد الى إعمال قلمه وفكره فى تقديم نماذج نقدية من الشعر ، فاختار، من قدامى الشعراء : المتنبى ، وابن الرومى ، ثم بشار ابن برد ، وتناول من المحدثين عددا منهم ، كان من أهمهم : حافظ ابراهيم .. وعبد الرحمن شكرى.. وذلك إلى جانب مقالات عابرة تناول فيها - بإشارات موجزة - عددا من الشعراء المعاصرين .

وإذا كان كتاب الديوان يحمل الاسم الذى تنتسب اليه «مدرسة الديوان» والتى يعتبر عبد الرحمن شكرى من مؤسسيها ، فإن العجيب أن «الديوان» قد ضم بين دفتيه مقالين للمازنى يصف فيهما شكرى بأنه «صنم الألاعيب» حيث تناوله بلاذع النقد الذي بعد به كثيرا عما عرف عنه من تحرى الانصاف دائما، إلا أن ذلك كانت له أسبابه التى سوف نشير إليها فيما بعد .

ومدرسة الديوان لا تجد أصولها - على نحو كامل وشامل - فى كتاب الديوان حيث لم يزد ماورد فى هذا الكتاب بجزءيه عن دراسات تناولت الشاعرين : شوقى وشكرى، فضلا عن دراسة لأدب المنفلوطى..

ولكن هذه المدرسة تجد أصولها - ونظرات اصحابها المتقاربة - فى كل ما قدموه من دراسات ، وما أبدعوه من أشعار ..

فقد جاء ت دراسات المازنى للشعراء الثلاثة الذين أشرنا إليهم من منطلق نظرته الى الشعر والشعراء التى بسطناها مستخلصة من رسالته عن الشعر : غاياته ووسائطه :

فعن المتنبى [(١)] .. ينبه المازنى الى ما لشعر المتنبى - أكثر من شعر من سواه من الشعراء الفحول - من سيرورة تجعله أعلق بالذاكرة ، فنرى الناس أحفظ لشعره وأكثر رواية له وتمثلا به منهم لشعر غيره - وهو يرجع ذلك الى مافى شعره من قوة تخطئها فيمن عداه من مشاهير شعراء العرب، رغم أن المتنبى لم يكن من المكثرين بل من المقلين ، وهو على إقلاله لا يطيل قصائده.. بل إنه ماكان يقول الشعر فى سيف الدولة إلا إذا عرضت مناسبة لذلك كغزوة أو نحوها ، وأنه كان أشبه بصديق لممدوحه منه بشاعر وظيفته الثناء عليه وكان المتنبى فضلا عن ذلك يستنكف أن ينشد وهو قائم ، ويضيف المازنى قوله : وقد بدأ حياته بالتطلع الى ولاية أمر من أمور الدنيا، ولم يزل يطمع فى ذلك الى أن وافاه الحين. وفي هذا وحده ، فضلا عن حوادث حياته دلالة كافية على روحه ، وأنه من أصحاب الشخصيات القوية التى خلقت للكفاح والنضال لا للاستجداء والتمسح بالاقدام ، وهذه الشخصية البارزة ظاهرة فى

---

(١) المازنى : حصاد الهشيم - ط أولى -

شـعـره .. ومن الاطالة فى غـيـر مـحل لذلك أن نفـيض فى بيـان شـعـور المتنبى بنفسه ، ومعرفته لقدره ، وطموحه فى بروز شخصيته .. وهو فى شعره يأخذ بيدك إلى مـا يريد مبـاشرة، ولا يطيل اللف والدوران معك إلى غاية . وهذا من أسباب القوة.. وليس ممن يهزرون ولا يقدرون قيمة الاقتصاد أو يحشون كلامهم بما يراد به التظاهر والمفاخرة بسعة المجال وطول البـاع . بل هو يدفع إليك المعنى الذى فكر فيـه وأنضـجـه تامـا محبوكا لا يحتاج الى زيادة ولا يتأتى نقص حرف مما عبر به عنه [1] ثم يتركك وشأنك ، وما يبدو لك فى هذا الذى ألقاه اليك ، إذا شئت خالفته أو وافقته ، أما هو فينام كما يقول ملء عينيه ، ولايبالى كيف وقع كلامه من نفسك بعد أن ألقاه بلهجة الجزم القاطعة التى لا تردد فيها .. وسواه من الشعراء لم يرزقوا رجولة المتنبى التى تخرج البيت مخرج المثل، ولم يمنحوا مثله أحكام التسديد الى الغاية ، والاقتصاد الى الحد الواجب، وحسن تخير الألفاظ التى يؤدى بها المعنى ، والحلاوة فى سبكها وتعليق بعضها ببعض ، وهى صفات قلما يخلو منها شاعر كبير ، ولكنها لا تؤدى الى مثل ما تحسه فى شعر المتنبى .

---

(١) يضرب لذلك مثلا ببيتين للمتنبى يقول فيهما :

ومن عرف الأيام معرفتى بها — وبالنـــاس روى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به — ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

فأنت ترى مما نقلناه عنه في دراستـه لشعـر المتنبى أنه يرفـعه الى هذه المنزلة لما تميز به من حسن التسديد الى الغاية .. وحسن تخير الألفاظ التى يؤدى بها المعنى ، والحلاوة فى سبكها وتعلّق بعضها ببعض، وهى صفات قلما يخلو منها شاعر كبير ، ولكنها لا تؤدى الى مثل ما تحسه في شعر المتنبى .. أى انه قد استوفى واستكمل السمات التى بسطها المازنى فى كتابه عن الشعر: غاياته ووسائطه ..

وعلى ذلك يذهب المازنى الى استكشاف ملامح شخصية المتنبى من شعره :

فهو لم يكن يعد نفسه شاعرا يثنى على سيف الدولة، ويدون وقائعه وحسناته ، ويمشى فى ظله بل صديقا وكفئا، ولو سوى المتنبى لشعر بالضعف أمام القوة المادية التى يملكها الملوك الذين غضب عليهم ، وجفاهم ، وهجاهم ، ولكنه كان يشعر بقوة لديه تكافىء فى نظره قوة الجيوش وبأسها ، بل كان يحس أن فى وسعه أن يعتو ويسطو كذلك على العاتين والساطين ، فمن ذلك قوله لما خرج من مصر :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وفيت ، وأنى أبيت وأنى عتوت على من عتا

ولو شاور الحزم الدنيوى لما أصدر هذا الاعلان ، ولا أشهر هذا الانذار ولخطر له أن يتقرب الى من نابذهم قبل مضيه عن مصر كسيف

الدولة على الأقل ، ولكن المتنبى ليس من هذا الطراز لأنه لا يعـرف ضـعف النفس ولو خلت يده من كل وسـائل البطش ، وكـثـر عـداته وقل إخوانه فنفسه أبدا شابة قوية على الأيام ... (١)



وفى دراسته لابن الرومى يقدم لها بقوله :

«فمـا نعرف رجـلاً أصـاب ابن الرومى، ولا شـاعراً تهـاون به المناس حياً وميتاً وتناسـوا مـا يجب له الا هـو ! بل لست أعرف قومـاً هـم أشد استصغاراً لكبرائهم، وأقل إجلالاً لرجالاتهم، وأعظم تـهاوناً بحقوقهم، وأضال تنبها لحقيقة أقدارهم من العرب» (٢)

وفى دراسته لشعر ابن الرومى ، ونواحى تميزه، يرى المازنى أن ابن الرومى ليس كغيره من شعراء العرب وما فى الوسع أن تقتطع له أبيات من هنا، وأخرى من هناك ثم نقول هذا هو ابن الرومى .. وإنما كان ذلك – فيمـا يرى المازنى – لأن ابن الرومى أقـرب إلى شـعراء الغرب، وبهم أشـبه، ولأن البـيت فى قـصـائده يندر أن يكون وحدة قـائمـة بنفسـهـا، مسـتـقلة عمـا قبلها، وبعدها إلا من حيث مـعانى النحو – كمـا هو فى قـصـائد الـعرب .. ويعـبـر المازنى صـراحـة عن مكانة ابن الرومى عنده

(١) المرجع المذكور ص ١٩٧ .
(٢) المرجع المذكور ص ٣٢٢ .

فيقول «وابن الرومى أحب شعراء العرب إلينا، وأعزهم علينا، فليس أعذب ولا أشهى لدينا من أن نقضى ساعة معه ولو كل أسبوع ..» و « .. ناهيك برجل كان يسح بالشعر سحاً، ويملأ الدنيا بالرائع منه المتداول الذى ينشد فى مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء، ويرى فى حلقات العلماء والأدباء ..»(١)

وإذا كان ما روى عن حياته أقل من أن يرسم صورة كاملة لها، فان ذلك لا يترك أمام الدارس سوى شعره، يعول عليه، ومنه يتبين أن ابن الرومى «عاش ما عاش ساخطا على الحياة، ناقماً علي العصر وأبنائه، مضطغناً على الزمن وصروفه، طافح النفس بالمرارة والألم إلى حد لم يعرفه أحد من الشعراء المعاصرين له . وشعره الذى قيد فيه كل حالة من حالات نفسه، وأودعه ما استطاع من إلتفاتات ذهنه حافل بالشواهد على ذلك . وعذره من هذا التمرد عذر كل حساس مصقول النفس، مثقف العقل، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال . وليس أقسى من ذلك فى النفس وأوجع» (٢)

وابن الرومى رجل كان «يريد أن يحيا حياة فنية : أى حياة تكون أقرب إلى مثله العليا التى كان ينشدها، وأخلق بما يفهمه من وظيفة

---

(١) المرجع المذكور ص ٣٤٥ – ٣٤٨ .

(٢) المرجع المذكور ص ٣٦٢ .

الشاعر، وأليق بمنزلته كما هى فى نظره، تمنى ذلك، وعجز عنه، ولم يظفر به، وعزه أن يكيف نفسه على مقتضى الظروف والأحوال التى تحيط به، ومن هنا حفل شعره بذكر نفسه، واكتظ بالمقابلة بين الرغبة والامكان، وبين الأمل والواقع ..»[1]

«وقد كان ابن الرومى .. فنه الشعر .. فالشعر عنده أحق ما فى الحياة بالعناية والاكبار، وقائله أولى الناس بان توفر له أسباب الحياة التى يتطلبها .. وهو (ابن الرومى) بصفة خاصة أحق مخلوق أو شاعر بذلك . فمن حقه على الناس أن يرزقوه اذا لم يستخدموه»..[2]

ويعرض المازنى لأثر ذلك كله فى شعر ابن الرومى وفنه الذى جمع بين عمق الفكرة، وبراعة التصوير، وحسن السبك، إلى ميل للسخرية والفكاهة فى كثير من الأحوال :

«ومن الأمثلة أسلوبه الروائى الذى يطالعك من أكثر قصائده، وعدم اقتصاره على الظواهر المحسوسة، ومحاولته الافضاء إلى البواطن وتصويرها، وتتبعه لحالات نفسه، ولما ينقلب عليه، ويمر به، حتى غلب ذلك على شعوره على الرغم من الأغراض الأخرى التى كان ينظم فيها الشعر من مثل المدح والهجاء والعتاب والاستعطاف وغير ذلك» [3]

(١) المرجع المذكور ص ٣٦٦ .

(٢) المرجع المذكور ص ٣٨٢ .

(٣) المرجع المذكور – طبعة دار الشعب – ص ٢٩٤ .

«وابن الرومى كان حاد المزاج، سريع الغضب، متمرد الطبع، فعصره من ناحية كان يتيح له أن يفحش، وأن يأتى بالشناعات .. ولكنه لا يعيبك حتى فى افحاشه أن تلمح باعثا خلقياً سامياً يخرجه عن طوره، فقد كان الرجل على كثرة أضاحيكه جاداً فى حياته، وفى النظر إليها. ولم يكن لهوه وعبثه إلا لفرط إحساسه بمرارة الجد فى هذه الحياة .. وهو على كثرة ما فى شعره من الفحش، صحيح الادراك من حيث الآداب والاخلاق .. أما أهاجيه الفكاهية فمن أبدع ما له . وهو فى أكثرها مصور كعادته (لا تنقصه الا الريشة واللوحة، بل لا تنقصه هاتان لأنه استعاض من الريشة بالقلم، ومن اللوحة بالقرطاس، وأثبت فى النظم البديع ما لا تثبته الألوان والاشكال) - كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد . [1]

ومن هنا فقد خلص المازنى إلى أن . «ابن الرومى شاعر مشرق الديباجة، ناصع الأسلوب، واضح الحجة، وهو غراض لايستخفه ما يعن له فى أول الخاطر، ومصف يأبى أن يدع ذرة تنفلت، ودقيق دوار العين يطلب الاحاطة بجوانب ما يتناول، وملماح لا يجتزىء بان يدفع اليك الفكرة ناضجة تامة ويدعك وشأنك معها، بل يبرزها لك كلما عرضت مناسبة ليقسرك على الالتفات اليها، والعناية بها ..» [2]

(١) المرجع المذكور - ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .
(٢) المرجع المذكور ص ٣٠٦ .

من أول ما يلفت النظر فى شعر ابن الرومى نوع احساسه بالطبيعة، فهو لا يحسها ولا يتأملها إلا احساساً شعرياً، ونعنى بذلك أن ينشط ، وأنه حين يتدبر قواتها ومباهجها وحالاتها المتنوعة يفيض من حياته هو عليها، ويعيرها من إحساسه وخوالجه حتى تعود فى نظره حية نابضة مثله، لها حس وروح وذاكرة، بل واراده ..» حتى تعود فى نظره حية نابضة مثله، لها حس وروح وذاكرة، بل وإراده ..» (١)

ويختتم تلك الدراسة – أو النظرات – فى شعر ابن الرومى بقوله :

«وقل من بين شعراء العرب أو غيرهم من يقارب ابن الرومى فى دقة احساسه بالجمال فى جميع مظاهره وأشكاله . ولقد فقد شبابه وبكاه فى عدة قصائد، فكان أكثر ما بكى منه أن فقد به القدرة على التمتع بالجمال.» (٢)

تلك خلاصة دراسته لهذا الشاعر الفحل حيث كان شعره هو مصدره فى دراسته، وكان تحليله لهذا الشعر هو طريقه لابراز فن الشاعر وقدراته وملكاته، وكأنى بالمازنى يريد أن يقول : إن ما بسطناه من نظـرة إلى الشاعر والشعراء ليجد خير مثال له فى شعر ابن الرومى .. ذلك الرجل الذى ظلم فى حياته ثم بعد مماته حتى قدر له أن

---

(١) المرجع المذكور ص ٣٠٨ .
(٢) المرجع المذكور ص ٣١٢ .

يعود إلى الوجود، ويعلو بشعره المتميز عن كل الشعراء المعروفين .. فهو الشاعر الذى أدرك حقيقة الشعر، ورسالة الشاعر، وكان شعره هو الحقيق بالالتفاف اليه، والاهتمام به، ودراسته بتعمق . فهو الشعر مشرق الديباجة، الذى يتدفق من إحساس صادق، ويعبر عن نظرة نافذة، وهو المعبر عن رسالة الشاعر فى ابراز ما فى الحياة من جمال وما فى الطبيعة من جلال وما فى النفس البشرية من أعماق وأغوار، وعمـــا ينبغى أن يكون عليه المسار فى تحرى الحق والخير وكريم الخلال .. ومن ثم فشعره يروعك، وصدقه يأخذك، وموهبته الشعرية تستلب إعجابك وتفتنك ..! .

★

وعلى العكس من ذلك جاء ت دراسته عن بشار بن برد، ذلك أن المازنى وإن ذهب إلى أن بشاراً ، لغته متينة، وعبارته رصينة، ولا سيما اذا مدح أو هجا أو قال فى غرض جدى - الا أنه ما كان ينافق ويصانع إلا رغبة ورهبة - رغبة فى الحظوة والغنى والمتعة فى الحياة، واتقاء بطش القادرين على البطش .. وقد أسرف فى الهجاء المقذع بل السب الصريح، فما كان هذا هجاء وانما كان قذفاً، وأسرافاً فى المجون والخلاعة .. وأكثر من شعر الغزل الذى استهتر به الشبان والنساء .. «ولسنا نقدم شعراً قديماً فيه اسفاف، ولكن بشاراً جاوز الحدود السابقة، فقد خرج إلى ما لم يخرج اليه السلف. ولست تجد شاعراً

واحداً وتقدمه وفى كلامه مثل هذه الجملة من الهجاء الشخصى القبيح، والقذف الصريح بل المسف، وكان الشعراء قبله اذا هجوا يتعلقون على الاكثر ، وفى الأغلب بالمعانى (الاجتماعية) فيعيبون المهجو بما يعد نقصا فى هذا الباب مثل البخل والجبن وقلة المروءة وسقوط الهمة والذلة وهوان القدر وما إلى ذلك مما يجرى هذا المجرى .. وكان الذم الشخصى أو الطعن فى العرض قليلا إذا قيس إلى ما قال بشار بمفرده» (١)

ومن هنا جاء شعره غير صادق، وغير كاشف عن عواطفه «وتقرأ شعره، فلولا من قيل فيهم - مدحاً أو هجاء - لما عرفت أهو من شعر الصبا، أم من شعر الكهولة، فان النفس واحد، والروح لا يتفاوت أو يختلف فيما عدا ما كان يتلهى به من الهزل والعبث . ولقد ضرب بالسياط حتى مات، وكان قد جاوز السبعين .. ولا يزال يسكر سكر الفتيان الأشداء .. ولم يزل أحب متاع الدنيا اليه - كما قال - (طعام مز، وشراب مر، وبنت عشرين بكر) ، فهو مشغول أبداً بمطالب الجسد، وشهوات البدن، وبعيد جداً أن يكون ذا الطبيعة الحيوانية ممن تحركهم العاطفة أو تستولى عليها فكرة، *ولهذا لم يرتق فى شعره قط إلى لب الفن*، حتى حكمته *لم تكن لا ثمرة التجربة للحياة ومواقفها* .. ومعظم معانيه وسط ، أو لا جديد فيه» (٢)

---

(١) ابراهيم عبد القادر المازنى : بشار من برد - ١٩٤٤ - من سلسلة «أعلام الإسلام» دار احياء الكتب العربية ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) المرجع المذكور ص ١٠٧ - ١٠٩ .

وعلى ذلك «فلم تكن مزية بشار سمو المعنى، وقوة الخيال، أو صدق العاطفة، أو إخلاص السريرة، أو نفاذ البصيرة، وإنما كانت قدرته على الأداء الجيد للمعنى الذى يعالجه، والغرض الذى يقول فيه. واذا كان لم يجىء فى الهجاء بشىء من البراعات، فلا عجب فما كان الهجاء عنده الا زجراً وتخويفاً وانذاراً، يصد به من يهمون به أو يتحفزون للوثوب عليه، وينهر من يخوضون فيه، ويهدد السراة الذين يرجى نوالهم ، ليجودوا عليه .. وأكثره فحش .. لإسرافه فى البذاءة التى تشبه بذاءة العامة والسوقة والسفلة، ولانه ليس فيه معنى نفيس، أو صورة بارعة، ولم يكن باعثه على الهجاء انه يطوى أضالعه على حقد كامن يتلهب فى صدره، أو أنه كان يرى من سيرة المهجوين ما يستحق الزراية والتشهير، أو ما يدعو إلى التقويم، وإنما كان رجلا أحب أن يكون له مال وشأن ومقام، ولم يكن له من الأدوات غير الشعر وما اليه من ضروب الكلام، فقال أمدح فاذا أعطيت الجزيل مضيت فى إفراغ المدائح على من يهب ما فيه لى مرضاة، وإذا أقلوا، هددتهم، وتوعدتهم وخوفتهم، حتى تبلنى منهم سحابة الجود .. وإذا ردّوه خائباً لم يبق الا الشتم والولوغ فى أعراضهم بأقبح لفظ، وأشنع عبارة، فاذا لم يجد معهم ذلك كان خليقاً أن يروع غيرهم . وأما غيرهم من الفقهاء والعلماء والناس جميعاً، فالهجاء

يفزعهم، فيتملقه منه الضعيف، ويتقيه المسالم» [1] ..«وقد أخذ بشار عن غيره، وأخذ منه غيره، فأحسن الأخذ وأحسنوا، ولعل الأشبه بالصواب أن نقول أن معانيه – ومعظمها وسط – كثيرة فى كلام من سبقوه، ومن جاءوا بعده، وهى ليست من البراعة أو العمق بحيث لا يغفل أن تخطر على بال ..» [2]

– ولكن لِمَ كان بشار بن برد يرد الأسباب على هذه الصورة.، ولم وصل إلى هذا المستوى المفزع .؟ يرجع المازنى اسباب ذلك إلى أن بشاراً اجتمعت عليه جملة من الأسباب أدت به إلى ما كان عليه، وكان – فوق هذا – دميماً، مجدوراً، فظيع العمى، وهذه كلها خليقة أن تثير فى النفس مرارة قليلة أو كثيرة.»

«وقالوا إن بشاراً كان خليقاً به أن يتحمل الآفة التى منى بها بالصبر، والتجمل ولاشك أن الصبر كان حرياً أن يكون أجلب للعطف . ولكن من الذى قال أن عطف الناس مطلب كل انسان ؟ ومن الذى يزعم أنه يخف على النفس الأبية، والطبع الحمى ؟ ان نشدان العطف مظهر ضعف أو مكر فى الإنسان، ولم يخلق

---

(١) المرجع المذكور ص ١١٢ – ١١٣ .

(٢) المرجع المذكور ص ١١٥ .

بشــار ضـعـيفــاً، بل بنى على القـــوة و التـمــرد ، ولا حـيلة له فى هـــذا ..»

والواقع أن عصر بشار بن برد - فيما يقرر المازنى - هو «عصر مضطرب، وزندقة فاشية، وخلاعة شائعة، وبواعث كافية للتمرد من ذات نفسه ومن بيئته .. فكيف كان يمكن أن يكون بشار إلا كما كان؟ وهنا موضع التحرز من شبهة، فلسنا نسوغ ما كان من بشار، وإنما نحن نحاول أن نبين أنه كان له عذره، وأنه كان خليقاً أن يتغير ويتهذب، لو واتاه زمانـــه وبيئته، أو لو شاء ت قدرة الله أن تخرجـــه غير هذا المخرج ....»

وهكذا تركزت العيوب فى شعر بشار فى أنه لم يكن صادقاً، ولم يكن وليد عاطفة، أو نبع أحاسيس جياشة، ولا هو ثمرة فكر متعمق، فضلاً عن أنه لم يتضمن ما هو سام من المعانى، بل جاء متهتكا مناقضا للمثل العليا التى ما ينبغى للشاعر - حتى وإن هجا - أن يتنزل عنها، أو عما هو منتقى من اللفظ وما هو دونها .. وذلك كله إلى عدم تميز فى الصياغة، أو فى اختيار ما هو منتقى من اللفظ وما هو ملائم ومطابق لما يريد الشاعر إبرازه من معان، ورسمه من صور، وإثارته من عواطف، والتعبير عنه من أحاسيس ، وهى ذات المقاييس التى أرسى أسسها فى رسالته عن الشعر : غاياته ووسائطه ..

٤ - المازنى .. والديوان .. والشعراء المحدثون :

كانت للمازنى آراؤه فى الشعر التى أسلفنا الاشارة إليها ، وكذلك كانت للعقاد نظرته فى الشعر ، وما هى الصورة المثلى لإبداعه صياغة ومعنى ومقاصد - وكانت آراؤهما تلتقى مع آراء عبد الرحمن شكرى فى الشعر كذلك، حتى أن ثلاثتهم ليكونون مدرسة متميزة فى عالم الشعر ، عبروا عنها فيما قدموه من دراسات فى مجالات مختلفة، ضمت بعضها صحائف الجرائد والمجلات ، وكان بعضها الآخر مقدمات لدواوينهم سواء كان كاتب المقدمة هو صاحب الديوان نفسه أو أحد زميليه .. وقد تراءى لهم أن تضم هذه الآراء دفتا كتاب كبير من عشرة أجزاء . ومن أسف عندما صح العزم على ذلك كانت قد وقعت نبوة بين المازنى وشكرى ، فلم يشاركهما شكرى فى هذا السفر ، بل انفرد باصداره العقاد والمازنى.. بل ومن أسف كذلك أن هذا السفر قد انطوى على نقد - بل هجوم - لعبد الرحمن شكرى، كان بقلم المازنى فى فصلين..

ففى يناير من عام ١٩٢١ أصدر العقاد والمازنى الجزء الأول من «الديوان» - وقد ذكرا فى مقدمته أنه «إن كان للسكوت عن الخوض فى أحاديث الأدب داع، فقد زال ذلك الداعى اليوم، وقد تجددت دواعى الكتابة فى أصوله وفنونه، أخصها الأمل فى تقدمه، لالتفاف الأذهان إلى

شتى الموضوعات، ومتنوع المباحث ، والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الأدعياء والفضوليين عليه، وتسلل الأقلام المغموزة والمآرب المهتمة إلى حظيرته. وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل ، وتوقى تلك العلل. وهو كتاب يتم فى عشرة أجزاء . موضوعه الأدب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة..»

أما عن المذهب الجديد فتقول المقدمة : «وأقرب ما تميز به مذهبنا أنه مذهب انسانى مصرى عربى . انسانى ، لأنه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من تقلب الصناعة المشوهة. ولأنه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة. ومصرى لأن رعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية . وعربى لأن لغته العربية. فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منذ وجدت، اذ لم يكن أدبنا الموروث فى أعم مظاهره الا عربيا بحتا يدير بصره إلى عصر الجاهلية» [1] .

فى ضوء هذا المنهاج ضمن الشاعران كتابهما دراسات عدة كان من أهمها ما تضمنته كتابات العقاد فى نقده لشعر شوقى حيث راح يحصى عليه عيوبه، وكان مما وجه به الحديث إلى شوقى قوله :

«إعلم أيها الشـــاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء

---

١ - الاستاذ عباس العقاد - والأستاذ المازنى - الديوان - طبعة دار الشعب - ص ٣، ٤ .

لا من يعددها، ويحصى أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه، وانما مزيته أن يقول ما هو ، ويكشف لك عن لبابه ، وصلة الحياة به. وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع ، وانما همهم أن يتعاطفوا يودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطاعه أو كرهه ، واذا كان وكدك من التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ، ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار ، فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع علي وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك. وما ابتدع التشبيه لرسم الاشكال والألوان ، فان الناس جميعا يرون الاشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا ، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه لأن يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع فتضاعف

---

١ - المرجع المذكور صـ ٢٠ - ١ .

٢ - د . شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر فى مصر - الطبعة الثانية - صـ٦٥ .

سطوعه ، والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه ، يزيد الموصوف وجودا إن صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان إحساسا بوجوده ، وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطىء فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره: فان كان لايرجع إلى مصدر أعمق من الحواس ، فذلك شعر القشور والطلاء وإن كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ، ووجدانا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ، ونفحات الزهر إلى عنصر العطر ، فذلك شعر الطبع القوى ، والحقيقة الجوهرية ...»[1]

ويعلق الدكتور شوقى ضيف على هذه الفقرة بقوله :

«والعقاد إنما يصور فى ذلك رأيه ورأى مدرسته فى الشعر ، فالشاعر ينبغى أن يتغلغل فى أعماق الأشياء ، حتى يذيع بواطنها أو أسرارها ، وهو لن يصل إلى ذلك إلا اذا كانت له نفس قوية الاحساس بالكون ومشاهده ، تنفذ إلى أغواره ، وتتسمع إلى كل نبضاته وأصدائه فى الانسان وغير الانسان»[2] .

واذ يعرض بعد ذلك لما أخذه صاحبا الديوان على شوقى من مآخذ أخرى فانه يذكر أن «هذه النظرات للعقاد والمازنى جميعا تعد شيئا قيما جدا فى تاريخ شعرنا الحديث لأنها تصور مذهبهما الجديد فى

١ - المرجع المذكور صـ ٢٠ - ١ .
٢ - د . شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر فى مصر - الطبعة الثانية - صـ٦٥ .

عمل الشعر ونظمه، وتوضح مدى الخلاف بين مدرستهما ومدرسة الإحياء السابقة ، وأيضا ، فان كثيرا منها قام من شعرنا مقام السكان [١] ، والمجداف من السفينة ، فهو يحرك ويدفع ويثير» [٢].

وللمازنى آراؤه بالنسبة للعديد من الشعراء المعاصرين ، أوردها فى العديد من المقالات التى نشرت فى مختلف الصحف والمجلات، ويقصر بنا الجهد عن تتبعها فى مظانها حيث لم يحرص المازنى على أن يضمها ضمن فصول كتبه، فيما عدا دراسته عن شعر حافظ إبراهيم، ثم ما كتبه عن شعر رصيفه : شكرى حيث كان حديثه عنه أول الأمر حديث الراضى المقدر - بل المعجب - ثم ينقلب به الأمر إلي النقيض ، فاذا بشكرى - المبدع - يضحى وهو «صنم الألاعيب» ..!



أما عن حافظ إبراهيم .. فقد كتب عنه كثيرا ، بل خصه بدراسة متكاملة وإن ظهرت فى صورة مقالات متفرقة نشرت فى مجلة «عكاظ» بين عامى (١٩١٣ - ١٩١٥) جمعها بعد ذلك فى صورة كتاب بعنوان «شعر حافظ» بعد أن أضاف إليها كتابات أخرى عن حافظ وقدم لها بمقدمة تشرح هدف الكتاب وموضوعه .. وبعد أن نشر هذا الكتاب فى

---

١ - ما تسكن به السفينة - وتمنع من الحركة والاضطراب وتعدل من سيرها .

٢ - المرجع المذكور - ص ٦٧ - .

عام (١٩١٥) لم يجر نشر له ثانية إلى أن رأت مجلة «فصول» أن تعيد نشره ، حيث جعلته ضمن الوثائق التى تنشرها بين الحين والآخر

وقد قدم لهذه الطبعة «دكتور مدحت الجيار» بعبارة جامعة جرى نصها على النحو التالى :

«فى ظل حركة نقدية شابة وجديدة ، تخرج على السائد والمألوف فى شعرنا ونقدنا العربى فى بدايات القرن العشرين، كتب إبراهيم عبد القادر المازنى مجموعة من المقالات المهمة فى تاريخ نقدنا العربى الحديث . هذه المقالات تدور حول هدفين : هدف يهدم الماضى فى جوانبه البالية ، وهدف ثان يضرب فى الجديد ، ليبنى نظرا نقديا جديدا وكان من الطبيعى أن يتعرض المازنى لشعراء عصره ، ليقارن بين ما يكتبونه ، وما كان يكتبه الأسلاف ، وما يكتبه الغربيون ، وقد حظى الشاعر «حافظ إبراهيم» بنقد طويل ظهر فى المجلات والجرائد التى كانت تنشر للمازنى . وقد كثف المازنى نشاطه النقدى التطبيقى التحليلى فى مجال الشعر ، مختصا به شعر حافظ إبراهيم . فكتب مجموعة من المقالات فى جريدة عكاظ متفرقة جمعها فيما بعد فى صورة كتاب ..» (١).

---

١ - الدكتور مدحت الجيار في تقديمه للطبعة الثانية من شعر حافظ - مجلة فصول - العدد - ص ٢٧٦ .

الا أنه من الملاحظ – كما ذكر ذلك مقدم الكتاب أن المازنى قد وقف عند مرحلة بعينها من حياة حافظ الشعرية اذ توقف عند تاريخ طبع الكتاب (١٩١٥) فى حين ظل حافظ يبدع حتى وفاته .. ومن ثم فهذه الدراسة تعبر عن فكر المازنى وعن شعر حافظ حتى ذلك التاريخ دون أن يتعرض لما جد بعد ذلك من تطور وتحول فى الفترة التالية، وهى فترة طويلة تزيد على ضعفى ما سبقها ..

ومع ذلك .. فقد تنكر المازنى نفسه لهذا الكتاب – كما تنكر لشعره – وكتب عنه فى خاتمة كتابه : «حصاد الهشيم» يروى دواعيه لذلك التنكر ، قال :

«ويرى القارىء فى كتابى هذا مقالا كان فى الأصل مقدمة لكتاب جمعت فيه ما نقدت به شعر حافظ منذ أكثر من عشر سنين (نشرت الطبعة الأولى من حصاد الهشيم فى ١٩٢٥) وللقارىء الحق أن يستغرب أن انقل مقدمة كتاب مطبوع ، وأن أدسها هنا . ولهذا سبب لا أرى بأساً من ايضاحه: جمعت فيما مضى نقدى لشعر حافظ وطبعته ونشرته ، وبعت منه عددا ليس بالقليل ، ثم أخذ الشراة يبطئون علىّ ، فضقت ذرعا بما بقى من نسخه ، فحملتها إلى بقال رومى اشتراها منى بالأقة ! وعزيت نفسى عن ذلك بقولى لنفسى : إن جبن الرومى وزيتونه أحق بهذا النقد ، ثم مضت عشرة أعوام وبعض عام وشرعنا نطبع «حصاد الهشيم» هذا ، وإنا لماضون فى ذلك اذ جاء نى صديق

يعودنى، وكنت مريضا ، وأطلعنى علىٰ صحيفة ينشر فيها بعضهم نقدا لشعر حافظ واكثره مسروق من قديم ، وسألنى الصديق : أأنت الكاتب؟ قلت : كلا قال : إذن فهى سرقة يحسن التنبيه إليها .. فقلت : أنا يا صديقى استحى أن أنبه إلى سطو صاحبنا المتلصص على نقدى ، مخافة أن يتنبه الناس إلى ما أرجو مخلصا أن يكونوا قد نسوه من أنى أنا كاتب ذلك الهراء القديم ، ومن أجل ذلك أهب للصنا ما عدا عليه وبزنى إياه ، وما أسهل أن يهب المرء غير شىء .. ! فضحك صاحبى وانصرف . وخطر لى بعد أن وهبت النقد أن استنقذ المقدمة»

أما تلك المقدمة التى «استنقذها» فقد نشرها فى كتابه : حصاد الهشيم تحت عنوان «تقليد القدماء» وفيها بسط لمذهبه - أو نظرته - فى قول - واستلهام - الشعر ، وفيها جملة ما يأخذه على الشعراء المعاصرين من تقليدهم للأقدمين ووجوب الرجوع عن ذلك الخطأ - خطأ التقليد ، لأنه «مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثمة مساغ للشك فى أنك لا تستطيع أن تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد .. وانما ينبغى أن يدرس المرء فى كتاباتهم الأصول الأدبية العامة التى لاينبغى لكاتب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال - كالصدق والاخلاص فى العبارة عن الرأى أو الاحساس - وهذا وحده كفيل بالقضاء علىٰ فكرة التقليد» [1].

---

١ - ابراهيم عبد القادر المازنى - شعر حافظ منشور فى (فصول) المرجع المشار إليه صـ ٢٨٠ .

ويوجز موضع الخلاف بين «المذهب الجديد» الذى يدعو إليه ، وبين «المذهب القديم» السائد فى ذلك الوقت فيقول :

«سيقولون ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم، وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعونا إليه ؟ وبأى معنى رائع جئتم ؟ وماذا ابتكرتم من المعانى الشريفة، والأغراض النبيهة التى تطلبونها وتبحثون فيه عنها ، ولا تألون أنتم جهدا فى الغوص عليها، وفتح أغلافها ، والتكلف لها ! .. (ونقول) : إن لنا فضل الصدق ، وعليكم عار الكذب ، ودنيئة الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعا، وحسبنا ذلك فخرا لنا وخزيا لكم .. أوَ لَيس يكفيكم أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه واحساساته وخواطره ، ومظاهر نفسه ، سواء أكانت جليلة أم رفيعة، شريفة أم وضيعة؟ وهل الشعر الا صورة للحياة؟ وهل كل مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة حتى لايتوخى الشاعر فى شعره الا كل جليل من المعانى ورفيع من الأغراض ؟ وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف؟ أليس شرف المعنى وجلالته فى صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل . الا أن مزية المعانى وحسنها ليسا فيما زعمتم من الشرف فان هذا سخف .. ولكن فى صحة الصلة أو الحقيقة التى أراد الشاعر أن يجلوها عليك فى البيت مفردا أو فى

القصيدة جملة .. وهذا يستوجب أن ينظر القــارىء فى القصيدة جملة لا بيتا بيتا ..» [1].

وبعد :

فقد مضى المازنى في فصول كتابه ينقد حافظا ، ويظهر عيوبه ، ويكشف عما يشوب شعره من افتعال وصنعة دون أن يكون تعبيرا عن احاسيس صادقة.. وكان سبيله إلى ذلك أن يجرى مقارنة بين شعر حافظ وشعر شكرى «عبد الرحمن شكرى» فحتى ذلك الوقت لم تكن العداوة قد ثارت بينهما .. فهو يصف شكرى بأنه «شاعر مطبوع» ويصف حافظا بأنه «ممن ينظمون بالصنعة» ، وبالتالى - وكما يقول - فان الله لم يخلق اثنين أشد تناقضا فى المذهب ، وتباينا فى المنزع ، من هذين ! .

ثم يمضى - من بعد - فى عرض وجهة نظره ، وأسس تقييمه لكل من الشاعرين، فيقول : «حافظ رجل نشأ أول ما نشأ بين السيف والمدفع ، ومن أجل ذلك ترى فى شعره شيئا من خشونة الجندى وانتظام حركاته واجتهاده وضعف خياله ، وعجزه عن الابتكار والاختراع والتفنن ، ولعل هذا هو السبب أيضا فى أن حافظا لا يقول الشعر إلا فيما يسأل القول فيه من الأغراض ، بيد أنه على ما به من

---

١ - المرجع المذكور - ص ٢٨١ .

ضيق المضطرب ، وتخلف في الخيال ، كان أفصح لسان تنطق به الصحف ، وأقدر الناس على نظم معانيها ، وتنضيد أخبارها، وتنسيق فقرها لو أن هذا مما يحمد عليه الشاعر ، أو أن في هذا فخراً لأحد شاعراً كان أو غير شاعر .»

«أما شكرى فشاعر لا يصعد طرفه إلى أرفع من آمال النفس البشرية ، ولا يصوبه إلى أعمق من قلبها - ذلك رأيه ووكده - وهو لا يبالغ كحافظ في تحبير شعره وتدبيجه بل حسبه من الوشي والتطريز أن يسمعك صوت تدفق الدماء من جراح الفؤاد، وأن يفضي إليك بنجوى القلوب والضمائر ، وأن يريك عيون الندى على خدود الزهر ، وافترار ضوء القمر على مكفهر القبور ، ووميض الابتسامات في ظلام الصدور ، وأن ينشقك نسيم الرياض ، وأنفاس السحر ، وأن يشعرك هزة الحنين ورفعة اليأس والأمل.. يتناول أبسط معانى الطبيعة والعقل وأشدها ارتباطا بالحياة، واتصالا بالنفس ، ثم يصوغ لك منها شعراً نقى المستشف ، كثير الماء ، جم المحاسن ، وعلى الجملة فان شعره وهو الطبيعة ورسالة النفس.»

«وكذلك يختلف أسلوبه الكتابى عن أسلوب حافظ ، كما تختلف أغراضهما الشعرية ، ومناهجهما في استفتاح أغلاق المعاني ، وذلك أن حافظا شديد التعمل ، مفرط التكلف ، كثير التأنق . وشكرى يسح

بالشعر سحا ، لايسهر عليه جفنا ، ولايكد فيه خاطرا ، ولا يتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح . وحافظ يكسو المعانى المطروقة الأسمال البالية، وشكرى لايبالى أى ألبس معانيه ما دامت هذه صحيحة لايقوم بينها وبين النفوس حجاز» .

«وبعد ، فان حافظا اذا قيس إلى شكرى لكالبركة الآجنة إلى جانب البحر العميق الزاخر ، وحسب القارىء أن يتأمل ديوانيهما ليعلم ما بينهما من البعد ، وليعرف كيف يقعد الخيال بحافظ ، ويسمو بشكرى فى سماء الفكر ، وكيف يجنى التقليد على الرجل ويغلق فى وجهه أبواب التصرف والتفنن، فان حافظا قد حذا فى شعره حذو العرب ، وقلدهم فى أغراضهم ، وفرط عنايتهم بصلاح اللفظ ، وإن فسد المعنى . وشكرى قد صرع هذه القيود وفكها عن نفسه، لعلمه ان المقلد لا يبلغ شأو المبتكر ، وأنك مهما قلدت العرب فلن تأتى بخير مما جاءوا به ، ولأن له من سلامة الذوق، وصدق النظر ما يريه غثاثة هذه الأغراض القديمة الدارسة وفسادها ولأنه وجد من سخاء خياله ، وخصب قريحته، وسعة روحه خير معين له على اختراع طريقة بكر لم يبتذلها الطراق ، ولا عفا على رسمها القدم»[1] .

وقد عمد بعد ذلك إلي بعض قصائد حافظ بالنقد والتحليل متحاشيا أن يبرز حسنة واحدة ، أو وجها للاجادة ، حريصا على أن

---

١ - المرجع المذكور ص ١٨٢ - ٢٨٣ .

يحصى سرقاته ، وأن يكشف عن سوءاته ، وما في شعره من ضعف وركاكة ، وما فى تعبيراته من حشو وتكرار ، وما في معانيه من ضحالة وسوقية ، وما في شعره - بصفة عامة - من بعد عن الصدق حتى ليقول :

«ولو كان للأدب حكومة تنتصف له من المسيء ، وتكافيء المحسن، لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتكب من الشعر أن يبتاع ما اشتراه الناس من كتبه ثم يحرقها بيده لأن شعره جناية على الأدب ، وأنت فقد تعلم أن من الشعر ما يكون آثما ، ومنه ما هو بريد صالح ، أما الآثم فذلك الذى يفسد الذوق ، ويعود الناس الكذب، ويضلل النفوس ، وشعر حافظ من هذا النوع» [1].

ثم يقول : «إن الرجل ليس لنا بصديق ولا عدو ، ولسنا نحتقره كما توهم آخرون، ولكننا نحتقر شعره ، ونزدرى مظاهر نفسه، فإن الرجل ظريف المحاضرة ، مليح النكتة ، عذب المحادثة، ولا عيب فيه الا أنه يحاول أن يقول شعرا ، ويعالج ما ليس فى طبعه، رحم الله الأستاذ لامام ، فانه هو الذى ورطه وزين له هذا المجال..» [2]. .. وهو يرى ان حافظاً «ليس بشاعر ، ولكن وزان تفاعيل ، ومقطع أبيات» [3].

١ - المرجع المذكور - ص ٢٨٥ .

٢ - المرجع المذكور ص ٢٨٧ .

٣ - المرجع المذكور ص ٣٠١ .

ويختم المازنى نقده - وتحليله - أو دراسته - لحافظ بقوله:

«هذا ما كتبنا نقداً لشعر حافظ ، ولا ندعى اننا أحطنا بكل صغيرة وكبيرة فان ذلك ما لم نقصد إليه فضلا عما فيه من التطويل الممل ، وإنما أردنا أن نقدم للقارىء (أمثلة) مما نأخذه عليه، ونعيبه به من تقليده، ونظمه مقالات الصحف وسرقاته وفساد معانيه واضطراب مبانيه وخطئه اللغوى والنحوى ولو كان له حسنات لاغتفرنا له ما فى شعره من السيئات .. فليقس القارىء على ما أوردنا ما لم نورد ، وهو بعد قمين أن يصل إلى ما وصلنا إليه .. أما شعره الذى نظمه أخيرا فلا نتعرض له الآن، ولكنا نقول له يا حافظ إن الصدق فى العبارة عن الاحساس أول الرأى أو ما ينبغى على الشاعر .. ولتعلم أن حاجتنا إلى الأصوات أشد من حاجتنا إلى الأصداء .. ولتعلم أن الرغبة فى الشهرة تختلف عن الزهو فى أنها خيال تصورى فى التمنى ، والزهو شخصى لأن الراغب فى الشهرة لايطلب أن تتطامن له المفارق أو تخشع أمامه العيون ، وإنما يرجو أن يعرف الناس لعبقرياته حقها، وحب الحق عند الشاعر قبل حبه لنفسه ، هى أول وله المحل الثانى ، لأن لديه من المشاغل ما يذهله عن نفسه، ويسليه عن حبها، والافتتان بها .. فمن أراد أن يكون عظيما، فليتضاءل فى مرأى عينيه لأن حب الشهرة عبارة عن حب الاتقان..» [1].

---

١ - المرجع المذكور ص ٣٠٨ .

نقول : إن المازنى نفسه قد رجع عن هذا النقد ، ووهبه لمن سرقه ، «وما أسهل أن يهب المرء غير شىء» .. وكانت له مقالات فى أخريات حياته أشاد فيها بحافظ ابراهيم وحكى الكثير عن مجالسه وظرفه .

وفى الحقيقة إن كتاباته عن حافظ وإن جاءت من منطلق يتفق مع نظرته إلى الشعر ، وما يجب أن يتصف به من سمات ، وما يقوم عليه من عمد ، وما يهدف إلى تحقيقه من أغراض. الا أنه قد بالغ فيما وصل إليه من نتائج بالنسبة لحافظ ، فليس من شك أن لحافظ ابداعاته التى لا تنكر ، وأنه كان المعبر عن آمال الشعب وآلامه، وأنه أجاد فى الكثير من قصائده - حتى بالمعيار الذى انطلق منه المازنى - ولعل ما كتبه المازنى من نقد له وان كان قاسيا - بل وغير منصف فى الكثير من المواضع - الا أنه أحدث أثرا عند حافظ نفسه ، فان شعر حافظ فيما تلا نقد المازنى نلمس فيه تجديدا فى الأغراض ، ودقة أكثر فى الصياغة، وتنوعا فى الموضوعات .. أو بعبارة أخرى ، إن هذا النقد وإن كان غير منصف إلى الحد الذى كنا نرجوه الا أنه أحدث أثرا ، وهدى المنقود إلى مواضع الضعف ومواطن النقد ، فحرص - ما أمكنه - على تفاديها، والتخلص من بعض ما أخذ عليه من عيوب .. وإن كان شعره منذ عمله بدار الكتب قد صار محدودا ، فقد «أخذت الوظيفة تغل لسانه

فلم يعد ينظم فى شـئوننا الســياسية والاجتمــاعية كما كان شأنه قبل توظفه»[1].

ومن ناحـيـة أخرى فـقـد أبدى كثـيرون من الدارسين المحـدثين آراء لاتفترق كثيرا عن آراء المازنى.. وفى هذا يقول د. شوقى ضيف : «ليس من شك فى أن حـافظا كان مـجددا فى شـعره بالمقدار الذى يستطيعه ، وهو تجديد يستجيب فيه لبيئته وعصره ، أما الآداب الأجنبية فلم تسعفه مـعـرفـتـه لها بـغـذاء عـقلى جـديد . وقـد نظـم فى مـوضـوعـات قـديمة كالاخوانيات والخمريات والغزل ، وهـو فـيـها مـقلد ، وإن كـان له جمـال السبك والصياغة أحيانا. وربما كان خير موضوع أجاد فيه هو الرثاء ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يتفق وطبعه الحزين ، ونفسه القلقة الشاكية ، وأيضـا فانه كان شديد التأثر بالشعب وآلامه .. فقد كان حافظ يشعر بما يشعر به شـعبه شـعوراً دقيقا .. واستطاع أن يصـوغ هذا الشعور فى لغة متينة صياغة باهرة»[2].



على أن موقف المازنى من شكرى – عبد الرحمن شكرى – ليدعو إلى العـجب ، ذلك «أن المازنـى قـد التـقى بشـكرى طالبين فى مـدرسـة المعلمين العليا ، جمعت بينهما الصداقة والزمالة ثم التقيا بالعقاد حول

(١) د . شوقى ضيف الأدب العربى المعاصر فى مصر طبعة ثانية ص ١٠٣ .
(٢) المرجع المذكور ص ١٠٩ – ١١٠ .

عام ١٩٠٩ ، فوثق التقارب الفكرى بين الجميع على الرغم من اختلاف الموطن والمزاج ، فالعقاد اسوانى معتز بنفسه، وشكرى من بورسعيد ومفرط فى الحساسية ، والمازنى ساخر من الحياة والاحياء . وقد استهل شكرى والمازنى حياتهما الأدبية عقب تخرجهما على حين تعددت اهتمامات العقاد، وسافر شكرى إلى انجلترا (١٩٠٩ - ١٩١٢) ، وتوثقت الصلة بين العقاد والمازنى ، وعندما عاد شكرى من غربته انضم اليهما فى التبشير بالمبادىء الجديدة التى يدعوان إليها . وما لبث الخلاف أن دب بين المازنى وشكرى ، واذا كان شكرى قد أهدى ديوانه الثالث : (أناشيد الصبا) إلى صديقه المازنى ، فقد ختم ديوانه الخامس (الخطرات) الذى صدر عام ١٩١٦ بما أرق صاحبه ، وأقض مضجعه ، فاتهمه بالسرقة ، وعنفه على تلك الغفلة.. وانتهت العلاقة بين شكرى والمازنى ، وانصرف كل منهما إلى عمله.. إلى أن أصدر العقاد والمازنى (الديوان) واختار كل واحد من الناقدين أن يتناول بالدراسة نموذجين مخالفين لمبادىء المدرسة وأهدافها ، فوقع اختيار العقاد على شوقى ، ومصطفى صادق الرافعى ، واختار المازنى صديقه السابق شكرى ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وذلك ليبينا من خلال هذه النماذج تهافت الأفكار التى تقوم عليها القصيدة العربية التقليدية التى آن لها أن تندثر، وأن يقوم على أنقاضها شعر يحقق عما يدعوان إليه من المبادىء »[1].

---

١ - د . الطاهر أحمد مكى - الشعر العربى المعاصر - طبعة رابعة ص ١٢٦ - ١٢٧ .

على ان ما كتبه المازنى عن شكرى لم يكن فى حقيقته نقداً بقدر ما كان هجاء قاسيا ، فاقت قسوته ما كتبه عن حافظ .. وقد أورد ذلك فى فصلين يحملان ذات العنوان : صنم الألاعيب – وقد حاول فى الفصل الثانى أن يعلل هجومه ونقده على شكرى بعد اعلائه لشأنه واكباره لشعره فقال. «ولقد كنا فى كل ما كتبناه فى أول عهـده بقرض الشعر لا نغفل إلى جانب التشجيع أن ننبهه إلى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء الثانى من ديوانه أنه يطأ مفاخر الصفوة بقدميه، وأنه لا يتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح ولا يبالى أى ثوب ألبس معانيه . وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه نتيجة طبيعته لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء المال العتيق ، أى أنه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الأخري غطيط المقلدين فى كهف الماضى وكان ذلك فى سنة ١٩١٣ .. فهل يرى أحد أن رأي اليوم (سنة ١٩٢٥) لا يتفق مع رأى الأمس إن صح أن هناك رأيين؟ كلا .. لقد أدينا الواجب له وللأدب قديما ولكنا اليوم نؤدى حق الأدب..» [1].

وقد قدمنا – عند حديثنا عن حافظ – ما قاله المازنى عن شكرى وكيف انه يسح بالشعر سحا وأن شعره وحى الطبيعة ورسالة النفس ..

ومن هنا يبدو غريبا أن يجيء المازنى فى مقالتيه: صنم الألاعيب فيقول عنه :

---

١ – عباس العقاد – ابراهيم المازني – طبعة دار الشعب – ص ١٧٨ .

«شكرى صنم ولا كالأصنام .. نفس خامدة ، وقوة راكدة ، وجبلة باردة جامدة.. وليس في كل مفاتن الطبيعة ، وروائع الحياة، ومعانيها ما يحرك هذا الصنم .. وأنت أيها القارىء قد تعلم أن سر النجاح فى الأدب هو علو اللسان ، وحسن البلاغ وقوة الأداء .. وقلما ظهر كاتب أو شاعر الا بالأداء .. وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجة إلى ضرورة فن الأسلوب .. ولعل هذا أكبر الأسباب التي أفضت إلى خمول شكرى وفشله في كل ما عالجه من فنون الأدب لأنه لا أسلوب له اذا كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره في كلامه ليدرك ذلك ...» [1].

وإذا راجعنا كل من كتب عن «شكرى» من الدارسين لا نجد من نظر إليه هذه النظرة ، أو تدنى به إلى تلك الدرجة الهابطة.. بل أن ما قاله المازنى لم يكن ليعبر عن رأيه الصحيح ، فقد كان شكرى عنده أجل من ذلك وأعلى ، بل إنك لو تدبرت مقالتيه لوجدتهما مضطربتين على غير عادته فيما يكتب، بما يؤدى بك إلى أن تبحث عما دفع المازنى إلى هذا الموقف الذى قد تراه غير منصف .. والا فكيف يوصف بتلك الأوصاف

---

١ - المرجع المشار إليه ص ٥٧ - ٥٩ .

من بعث إلى المازنى بهذه الأبيات على أثر تلك الجفوة ، ومحاولة كل منهما اصلاح ذات البين .[1].

حنوت عن الود الذى كان بيننا وإن صد عنه ما جنينا على الود

حنوت ولو أنى حنوت وما حنا ولو أنه يبغى هلاكى من الحقد

ولا أكذبن الناس، قلبى كقلبه له آنةً ميل عن النصف والقصد

كلانا جنى شــرا فعا إخاؤنا محالا حكى ذكرى الشباب على بعد

فياطيب ذكراه ، وما بعد عهده وأين قديم الود من حاضر الصد

وعن هذه الناحية تحدثت د. نعمات أحمد فؤاد طويلا.. وكان مما قالته :

«وقد يقول قائل : أليق بالمازنى أن يتحرج عن رسم صديق بمثل هذه النعوت اذا جاز له أن ينقده نقدا فنيا ..؟ على أن هذا اللوم لايلبث أن ينحسر اذا علمنا أن عبدالرحمن شكرى هو الذى استفز المازنى أولا .. بل سعى الواشون بينهما بأن شكرى يدس له عند حشمت باشا وزير المعارف .. ولو أن المازنى تحرى الحقيقة لما حنق على الرجل وان كان ليس عليه أن يفعل بعد أن شهر شكرى باقتباساته من أدب الغرب» ..

ويقول الأستاذ على أدهم : «ولم يكن ما كتبه شكرى فى نقد المازنى والعقاد من المستوى اللائق بأدبه العالى وثقافته الممتازة ، وواضح أن

---

١ - نعمات أحمد فؤاد - المرجع السابق - ص ٣٤٢ وهذه القصيدة نشرت بالرسالة فى ١٩٣٥/١٠/٢١

المازنى فى كتاب الديوان أراد أن يثأر لنفسه ، بعد أن احتمل شهوراً استرسال شكرى فى نقده على صفحات عكاظ، ولذلك لم يكن من المنتظر أن يكون نقد المازنى لشكرى نقدا موضوعيا قوامه البحث الهادىء والتحليل الدقيق ، وتحرى الانصاف ، ونشدان الحقيقة .. فغير ملوم المازنى إذن حين يصدق ما يرجف به المرجفون فى باب الكيد والعداء .. وقد كان المازنى فى شبابه شديد الحماسة، متطرفا فى كل شىء ، فلا يلزم الوسط إن رضى أو غضب..» (١).



ذلكم هو المازنى باحثا وذا نظرة متعمقة فى عالم الشعر .. ثم ناقدا للشعراء القدامى والمعاصرين .. ومن الواضح مما قدمنا أنه كان مخلصا لأفكاره ، وإن جاء نقده مندفعا إلى حد ما .. ومع ذلك ، فقد ثاب – بعد فورة الشباب – إلى الهدوء ، والاعتدال ، بل وانصرف – فى معظم انتاجه – عن الشعر إبداعا ونقدا الا فى حالات نادرة .

بقى ان نحاول أن نلج إلى عالمه الابداعى فى مجال الشعر.



٥ – المازنى .. وإبداعه الشعرى :

عندما أوصت لجنة الشعر بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب

---

١ – على أدهم – عبد الرحمن شكرى – المجلة – فبراير ١٩٥٩ ص ١١٣ – ١١٥ .

والعلوم الاجتماعية بطبع ونشر ديوان المازنى ، عهدت بمهمة مراجعته وضبطه وتفسيره إلى الأستاذ الشاعر محمود عماد الذى تولى هذه المهمة، وقام بها على خير وجه - وقدم للديوان بهذه الأبيات التى أوردها تحت عنوان : «المازنى وشعره»..

نظم الشاعر هذا الشعر يوما وارتآه
وبيوم آخر أنكره ثم .. نفاه
قال إن الشعر فن ماله عندى أراه
والذى سطرت منه دون قلبى وعاه
وأوى لاينظم الشعر إلى يوم الوفاه
قلت ما انصرف إبراهيم قد أتاه
أين من بالنظم يوما قد تقصى مبتغاه ؟
إن للنفس كلاما لا تؤديه الشفاه
خير شعر الشاعر السلس القوافى ما عصاه ! (١).

وهذه الأبيات التى قدم بها الأستاذ / محمود عماد لديوان المازنى - بأجزائه الثلاثة - وقد كان ظهوره مع مطالع الستينات - والتى تنكر على المازنى تنكره لشعره ، لأنه فى حقيقته شعر صادق وأصيل .. إنما تعبر عن حقيقة واقعة ، فما كان للمازنى أن ينصرف عن قول الشعر ، وهو ما زال فى زمن الفتوة للشاعر ، وما كان له أن ينكر على نفسه

---

١ - ديوان المازنى ص ٥ .

شاعريتها ، وهو - فى الحقيقة - شاعر مبدع أصيل ، يشهد بذلك ما قدمنا من آراء له عن الشعر والشعراء ، ويشهد به قبل ذلك شعره الذى ضمه ديوانه المنشور..!!

وقد سبق الأستاذ العقاد إلي هذا الرأى .. ففى كلمته التى ألقاها فى ذكرى الأربعين للمازنى (١٩٤٩/٩/١٩) كان مما قاله:

«لقد كانت ملكات المازنى أول ما تناوله باستخفافه، وكان الشعر أول ما تناوله من تلك الملكات . ولكن استخفافه بشعره من قبيل استخفافه بكل شيء : فرط إحساس لا قلة إحساس . ومن كان الشعر عرضا فى حياته ، لا يحس بلاعجه مسلطا على سريرته كما كان يحسه رحمه الله.

بعثت اليه من أسوان بقصيدة ضمنتها تحية من ابن شقيقتى الصغير إلى ابنه محمد . فأجابنى بقصيدة من وزنها وقافيتها يقول فيها:

لا مـــال أخـــشى منه اتلافـــه
- عـــبـــاس - فى المقـــبل من عـــمـــره
ولست أخـــشى أن أراه فـــتى
قـــد وسع العـــالم من شـــره
لكنمـــا أشـــفق يا صـــاحـــبى
من أن يجـــيش الشـــعـــر فى صـــدره
من يشـــترى شـــعـــرى على حـــبـــه

براحة الغافل عن دهره ؟؟

من يشترى دمعا يحس الفتى

جولته لا الفيض من قطره؟؟

من يشترى نفسا وآلامها

بثقلة المأفوك في فكره؟؟

من يشترى هذا سوى مائق

يسعي برجليه إلى ضزه ..؟؟

كلا . ما هكذا يعتلج الشعور بالشعر فى السريرة الا أن يكون كأنه سلطان مارد متحكم فيها متغلغل فى أوائها ، يسومها شططا، ويعييها الفكاك منه ، والخروج عليه. ولو لم يكن المازنى متجنيا على ملكاته - ومنها بل وأولها الشعر - لكان فى سريرته عارضا لا يباليه ، ولم يكن فيها ذلك اللاعج الذى يخشاه على نفسه وبنيه .

قال يؤاسى والدته فى غاشية من غواشى الضنك والأسى :

يا أمّ لاتجزعى مما يحيق بنا من الخطوب ولاتأسى لما فاتا

تمضى المقادير فينا الحكم عادلة ويقسم الله أرزاقا وأقواتا

وكل ضائقة تمضى إلى فرج وإن لليسر - مثل العسر - ميقاتا

ضلَّ الذى يرتجى تأخير قسمته قد مات كالكبش اسماعيل.. قد ماتا

هذه الأبيات قد أودعت نفس المازنى كلها : نفس المازنى الشاعر

الذى لاتجديه براءته من الشعر . نفس المازنى العطوف الذي يؤلمه الحزن فى نفس أمه ولا يشغله عنه حزنه وألمه وهما أشد وأقسى . نفس المازني القدرى الذى أسلم دنياه لقضاء الله. نفس المازنى الذى طرقت أبواب خلده حكمة الاستخفاف وقلة المبالاة . وما نفع المبالاة؟ .. إن اسماعيل (سيدنا اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام) قد مات كما مات الكبش الذى فداه..»[1].



ويبقى هناك سؤال على قدر كبير من الخطورة والأهمية:

- لم انصرف المازنى عن الشعر فى ذلك الوقت المبكر من حياته .. بل وهو مازال فى مطالع حياته الأدبية؟؟

علل المازنى ذلك فى المقدمة التى صدر بها ديوان العقاد بقوله:

«كلما قرأت شيئا أسأل نفسى : هبنى لم أكن قد قرأت هذا أو لم يكتبه صاحبه فماذا كنت أخسر ؟ وأى نقص كنت حريا أن أحسه ؟ .. لقد نصبت هذا الميزان لنفسى ، فانتهيت إلى أنه لا خير فيما قرضت من الشعر ، وأن الأدب المصرى لايزيد به، ولا ينقصه اذا فقده ، فكففت عن النظم ، ونفضت يدى من القريض»[2].

---

(١) ديوان العقاد - طبعة بيروت ص ٨٦٢ .

(٢) المرجع المذكور ص أ .

غير أن هذا التعليل لم يقنع الكثيرين..

من ذلك ما قرره الأستاذ عبدالسميع المصرى حيث يقرر بأن «المازنى الناثر أشعر من المازنى الناظم أى أن المازنى أقدر على تصوير خواطره وهواجسه نثرا منه نظما.. وكأنى بالمازنى قد اقتنع بهذه الحقيقة، فأقلع أخيرا عن نظم الشعر وكرس قلمه للنثر ، لا سميا وأن النثر أنسب للمهمة التى نصب نفسه للقيام بها.. أى الثورة على ما تواضع عليه الناس من تقاليد أدبية واجتماعية، وما تتطلبه الثورة من سرعة ، النثر بها أخلق، وعليها أقدر . ولعل المازنى قد آثر التحرر من ضرورات القافية ليبسط أفكاره فى حرية ووضوح يتلاءم وروح العصر ، ومطالب القراء - لاسيما أوساط القراء - الذين يؤثرون السهولة والوضوح على اكتناه مرمى الشعر ، والغوص على معانيه ، وتعنية النفس فى تفسير كتاباته واستعاراته وحكمة تراكيبه.» (١).

وتعلق الدكتورة نعمات أحمد فؤاد على هذا الرأى بقولها:

«ولكنى أحسب أن هناك ظروفا مادية وأدبية وشخصية عزفت به عن صوغ القريض . فالشعر يستطيع أن يصور الحياة ولكنه لايستطيع أن يقيمها . هذا وقد وافق تفتح شاعرية المازنى عصرا كان لأمر ما لا يذكر فيه غير شوقى وحافظ ومطران وكانت الصحف وأدوات النشر جميعا

---

(١) ورد فى كتاب د . نعمات أحمد فؤاد ص ١٧٣ - ١٧٤ .

تبدو وكأنها وقف على هؤلاء . وكان فى المازنى أنفة وقلة اكتراث معا فلم يحاول اللفت اليه، ولم يبال ذكرته الصحف أم تغافلت عنه . ثم أضف إلى هذا الكساد الأدبى ضعف ثقته بشعره. كان يقيسه إلى النماذج المثالية التى إطلع عليها.. فى الأدبين العربى والغربى ، فيزهد غير طامع فى أن يضيف شيئا إلي ما قالوه.» [1].

ويذهب الدكتور عبداللطيف عبدالحليم - أبو همام - نفس المذهب ، فيقول :

«وقد جار المازنى - فيما جار - على شاعريته - وهى أخصب ملكاته فى رأينا- فأنكرها على نفسه ، وانتهى - كما قال - إلى : (احدى اثنتين : إما أن يقول المرء شعراً من أعلى طبقة، وإما أن يريح نفسه ، ويريح الناس ، فلا خير فى غير الكلام الخالد على الدهر ، وأنا أعرف بنفسى من أن يداخلنى الغرور فى شأنها ، ولقد نظرت فيما قرضت من الشعر فهززت رأسى ، وقلت : هذا كلام فارغ وأولى بى أن أعرف قدر نفسى فلأقلع ، ورميت ديوانى حتى ما أعرف أين هو الآن إذا كان لايزال باقيا .. والشعر على كونه إلهاما فن يسلس بالمرانة ، وقد أهملته حتى صرت لا أستطيع أن أنظم شطراً واحدا ، وحسنا فعلت ، فما ينقص الدنيا الكلام الوسط ، فانه فيها بحمد الله كثير ثم

---

١ - د . نعمات أحمد فؤاد ، المرجع سالف الذكر ص ١٧٣ - ١٧٤ .

بحمد الغرور الذى فطر عليه الانسان) ، وقد ترددت هذه النغمة فى كثير من كتبه ، والمازنى له الحق فى أن يري لنفسه ما يشاء بقدر ما للدارسين الحق فى رؤيتهم ما يشاءون أيضا .. فالمازنى - فيما نعتقد - يستصغر كل جهد انسانى بجانب الأقدار والخلود ، ويرى أنه لم يقل كل ما أراده ، ويريده مرتئيا أنه لاحاجة به إلى منٍّ الناس عليه ممن يحسبون أنهم يحسنون إليه بالتوقير والتقدير والعرفان..»

على أننا - وإن كنا نرى أن ما قيل مما أوردناه فيما سبق قد يكون موافقا للحقيقة - الا أنه لا يعبر عن كل الحقيقة.. فكلام المازنى - الذى أشاروا إليه - إنما هو محاولة لتبرير انصرافه عن قول الشعر بما يقنع أنه هو الذى أراد ذلك، وقصد إليه عن إرادة حرة ، ورغبة أكيدة ، واقتناع انتهى إليه بعد طول تفكير ..! .

والحق - فى تقديرنا - أنه قد انصرف عن قول الشعر مضطراً ، وسلاه على غير ارادة منه، ولو أن الأمر بيده لظل «يسح بالشعر سحا» حتى آخر أيامه .. فقد وجد نفسه - بعد أن ترك الوظيفة - ولا سلاح معه سوى قلمه ، بعد أن أصبحت الكتابة مصدر دخله الوحيد .. وأن عليه لكى يواصل حياته أن يكتب ويكتب ويكتب .. وهذا ما كان يفعله ، ويداوم عليه .. فقد كانت مقالاته تزين معظم ما يصدر من صحف ومجلات على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، وليس من شك أن هذا

الانتاج الضخم كان يستغرق منه وقتا طويلا ، وجهدا ضخما ، لا يدع له مجالا للتفرغ لقول الشعر ، ونظم القريض.

قد يقال : كيف ذلك والعقاد كان أكثر منه انتاجا ، ومع هذا فانه لم يتوقف عن قول الشعر ؟ وهذا قول مردود .. لأن القدرات تختلف ، وليس العقاد بالشخص العادى الذى يصح القياس عليه..

ومن هنا كانت مطالب الحياة - وأعباؤها - هى التى اضطرته إلى التخلى عن قول الشعر ، والانصراف بكل جهده إلى الكتابة النثرية التى كانت تعود عليه بما ييسر له أمور حياته ، وبما يعينه على مواجهة أعبائها .. وذلك كله إلى جانب ما أشار إليه من أوردنا أقوالهم من عوامل أخرى جعلت انصرافه عن الشعر حتما مفروضا .. وان كان الأدب العربى هو الخاسر فى النهاية .



وأخرى نشير إليها ، ونلم بها، فما يصح أن نغض الطرف عنها، وتلك هى ما تحدث عنه الكثيرون- وعلى رأسهم شكرى - عن سرقات المازنى الشعرية .. فقد أطال شكرى القول فى هذا المقام، بل كان أول من تحدث عنه .. كما تحدث آخرون عن نفس الموضوع ، ولم يقف الحديث عند مجرد الاتهام، بل أخذ الناقدون يشيرون إلى قصائد لبعض شعراء الغرب الذين أخذ عنهم المازنى ، واقتبس معانيهم وأفكارهم ،

كما ردوا بعض أبياته إلى أبيات تتفق معها فى المعانى أو التشبيهات لشعراء عرب .. وأطالوا الحديث فى ذلك مما لا نجد داعيا للخوض فيه .. كما لا نجد داعيا للدفاع عن موقف المازنى ، وتفنيد ما أشار إليه الناقدون ، وإنه ليكفينا فى هذا المقام كلمات للمازنى نفسه أوردها فى مقدمته للجزء الثانى من ديوانه عرض فيها لهذه التهمة ودفعها عنه، أو دافع عن نفسه بشأنها - ونحن نرى أنها لاتحمل إلا صدقا .. قال:

«وبعد ، فان القراء لاريب ينتظرون منا كلمة فيما قيل عنا من انتحال معانى شعراء الغرب ، والإغارة على قصائدهم وادعائها . ولقد كنا نحب أن نغضى عن هذه التهم اكتفاء باظهار الجزء الثانى من ديواننا ، فانه - وحده - خير رد على ما رمينا به . ولكن الضجة التى قامت حول هذا الموضوع ، والشماتة الحقيرة التى لم يخفها قتلى المذهب العتيق ، لا تجعلان السكوت من الحزامة فى شىء . ولقد كان الإنصاف ألا يلام غيرى اذا صح ما نسب إلىَّ ، ولكن الناس تجاوزونى إلى غيرى ، واتهموا سواى قياسا علىّ ! وإن كنت لم أرم أحداً ممن نقدوا شعرى بالسرقة ! وهذا عنت ظاهر يريك مبلغ الناس من الفهم والعدل .

أما ما قيل أنى سرقته فقصائد ، بعضها ، وهو الأقل مطبوع فى

الجزء الأول ، والبعض لم يكن قد نشر بعد . ولست أدرى كيف استحل الناس لأنفسهم أن يجزموا أنى إذا طبعت الجزء الثانى لا محالة منتحل هذه القصائد ..

أما ما اتهمنا بسرقته مما ورد فى الجزء الأول من ديواننا ، فقصيدة «فتى فى سياق الموت» وهى ثمانية أبيات ، ولقد راجعنا قصيدة الشاعر (هور) فوجدنا فى قصيدتنا أبياتا ليست له ونحن ننزل عن القصيدة كلها راضين ، ونبرأ إلى الله من تعمد أخذها والاغارة عليها ، وقصيدة «قبر الشعر» وهى خمسة أبيات نكلها إلى حظ أختها .

وقد راجعنا الجزء الأول قصيدة قصيدة لنميط عنه هذا الأذى ، وراجعنا دواوين الشعراء التى عندنا زهادة منا فيما عسى أن يكون قد علق بخاطرنا من شعرهم ونحن لا نعلم ، فلم نعثر على شىء يجوز من أجله اتهامنا بالسرقة إلا أبيات فى (رقية حسناء) وهى لشلى ، والجزء الأخير من قصيدة (أمانى وذكر) وهى لبيرنز وأول هذا الجزء (يا ليت حبى وردة) .

ولو أن ما أخذ علينا فى الجزء الأول ، وما نبهنا القراء إليه من تلقاء أنفسنا ، حذف ، لما أنقص من قيمة شعرنا ، فإن فى ديواننا الأول نحو ألف بيت وليس ما أخذ عليها خيرها .

ولئن كان هذا دليلاً على شىء ، فهو دليل على سعة الاطلاع وسرعة النسيان وهو ما يعرفه عنا إخواننا جميعاً .

هذا ولا يسعنا إلا أن نشكر لصديقنا شكرى أن نبهنا إلى مآخذ شعرنا والسلام» [1] .

وقد تناول الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم هذه المسألة فى رسالته : المازنى شاعراً ، وعرض لكل ما أثير من شبهات عرضاً مؤصلاً ثم انتهى إلى هذه النتيجة التى أوجزتها السطور التى ختم بها الفصل الثانى من كتابه :

«وخلاصة ما تقدم أن أدلة الاتهام متخاذلة كليلة مرجوحة ، وأن أدلة الأصالة ظاهرة بنفسها لا حاجة بها إلى إثبات لأن القارىء يحسها ، ويشعر أنه أمام ذات متميزة ، وأنه يخسر شيئاً كثيراً إن لم يقرأ ديوان المازنى وأن صورة الحياة تكون ناقصة من بعض وجوهها إن لم يطالع الصفحة (المازنية) فى ديوان الشعر العربى» .

«وهو مهما أوخذ - وما سلم من المؤاخذة أحد - فليس حظه من الأصالة بأوكس الحظوظ ، ولا نصيبه منها بأبخس الأنصباء إلا لدى الموازين المختلة ، أما حين يستقيم الميزان فإن حظه من ذلك موفور ، وعليه نافلة من الاعجاب الصادق والثناء المستطاب» [2] .

وتلك كلمة حق ، نوافق قائلها ، ونضيف إليها ما ذكره البعض من

---

(١) ديوان المازنى - الجزء الثانى - ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) د . عبد اللطيف عبد الحليم - ص ١١٢ -

أنه حتى بالنسبة للأشعار التى اقتبس بعض معانيها من الشعر الغربى، فإنه قد أضفى عليها من روحه ، ومن فنه ، ومن حسن صياغته ، ما جعلها تكتسب ذاتيتها التى تباعد بينها وبين الأصل الذى استلهمته .. فللمازنى شخصيته المتميزة التى يضفيها على كل ما يبدعه : شعرا أو نثراً أو ترجمة .

٦ - ملامح الابداع الشعرى عند المازنى :

يقول الأستاذ العقاد فى تقديمه للجزء الأول من «ديوان المازنى» أنه «إن كان للأمة جهاز عصبى ، فإن الشاعر أدق هذه الأعصاب نسجاً ، وأسرعها للمس تنبهاً ، ولا غنى لجسم الأمة عن هذه الأعصاب المفرطة فى الاحساس ، لتزعج الأمة لأخذ الحيطة بينما تجمد الأعصاب الصلبة فى حمم البلادة والأنانية ..» ثم يصف العصر بأنه عصر التردد والاستياء ، ويقول أنه «لابد لهذا الاستياء أن يأخذ مداه ، ويطلع على كل نقص فى أحوالنا ، حتى إذا تمكن من النفوس فحركها إلى العمل ، وعاد عليها العمل بالرضا ، فلا ينسى الناس يومئذ فضل شعر الضجر والاستياء» .

وعلى ذلك «فلئن توسم القارئون فى شعر هذا الديوان هذه السمة ، فليذكروا أنهم يقرءون ديوان شاعر يترجم عن زمنه (والمرء يرى فى نفسه زمنه) كما يقول . ويخيل إلىّ أن أخانا ابراهيم لو لم ينبغ فى هذا العصر السوداوى ، ونبغ فى عصر فجر التاريخ ، لكان هو واضع

أسماء الجنة ، عمار الفيران لجبال وساقة السحب والرياح والأمواج ، فان به لولعاً بوصفها ، وإن اذنه لتتسمعها كأنها تنشد عندها خبراً ، وأظنه لو كان خلق الدنيا ، لما خلقها إلا جبالاً عظيمة ، وكهوفا جوفاء ، ورياحاً مدوية ، وغماماً مرزماً رجاسا ، وبحراً مصطخباً عجاجاً . انظر كيف يصف الغار الذى يتمناه فى قصيدة مناجاة المهاجر .

يا ليت لى والأمانى إن تكن خدّعا لكنهن على الأشجان أعـــوان

غاراً على جبل تجرى الريــاح به حيرى يزافرها حــران لهفـــان

هل أنس ليلتنا والغيث منسـكب وللبروق بقلـب الســحب أثخان

وقوله لى من لــــــى أن تظللنى من السحاب على الأطواد غيران

ريح تهـــب لنا من كـل ناحية وديمــة كحلهـــا نور ونيـــران

يلفنا الليل فى طيات حندســة كما يغيب ســـر المرء كتمـان

نكاد نلمس بالأيدى السماء ونجـ تلى بها الرعـد يطغى وهو غضبـان

وللصـدى حولنا حال مروعـــة كأنما تسـكن الغيران جنـــان

لكل صوت صدى من كل منعطف كما تجاوب عســـاس وأعيان

يطير كل صدى عن كل شاهقة كما يطيـــر عن العقبان عقبان

تبدو لأعيننا البلـــدان كالحـة كالوجـــه غضنه سن وحدثان

أو قوله فى ثورة النفس :

أبيت كأن القلب كهف مهدَّم برأس منيف فيه للريـــح ملعب

أو أنى فى بحر الحوادث صخرة تناطحهـــا الأمواج وهى تقلب

ويضيف : «للمازنى أسلوب خاص ، لا يدلك على أنه أسلوب السليقة والطبع ، أكثر من هذا التآلف الذى تجده بين قلمه ونفسه ، فإن قلمه يتحرى الفخامة فى اللفظ ، والروعة فى حوك الشعر ، كما تتحرى نفسه ، على لطافتها ، الفخامة فى المشاهد ، والروعة فى مظاهر الكون والطبيعة ..» .

ويختم تقديمه بقوله :

«والتآلف بين الطبع والتعبير ، شأن كل شعر فى هذا الديوان . اقرأ فيه بعد شعر الوصف الذى تقدم التمثيل له ، شعر الغزل ، فإنك ترى عبارته أليق ما عبر به عن عاطفته - لأنها عاطفة لا تسعر بالوقود من الخارج ، وليس الحب فيها حبا تضرمه عين المحبوب كما تضرمه نفس المحب . وهى عاطفة تحيا بعد[illegible] من حرارتها ، ومثل هذه العاطفة يحلو لها ترديد نفسها ، وتقليب وجوه ماضيها وحاضرها ، وأهواء النفس تختار الأسلوب الذى يلائمها ، فلو أن الحب هنا حب يأخذ منه [illegible] وتعطى لكان نعاماه إذا امتلأ به الصدر ، أن يصعد من القلب صرحة تفـرج عن صاحبها ثم ينساها ، ولا يعود إليها حتى يراجعه الوله والوجد ، ولكنه حب يطاول القلب ، ويدور فى جوانب النفس ، فلا يوافقه إلا أسلوب يدور فى الأذن ، ويطن فى جوانب الأسماع .

فلا غرو أن ينسجم هذا الهندام على ذلك القوام ، وأن يستشف القارىء ألوان العواطف من هـذا الأسلوب ، على أحكام نسجه

وتفصيله ، فيعلم أن شعر الطبع والإخلاص ، غير شعر الصنعة والتقليد» [1] .

وفي حديث الدكتورة نعمات أحمد فؤاد عن «المازني الشاعر» تذكر أن لمساوىء عصره أثرها في شعره فتقول : «من حقه أن نذكر مساوىء عصره الذي نفس عليه أهله امتيازه خاصة في الترجمة وهي عنده مظهر باذخ من مظاهر تفوقه . لقد وجد الرجل نفسه إذا ترجم قصيدة ترجمة قادرة تخفي معها الفروق بين اللغات حتى ما اتصل منها بالخصائص المميزة ، هونوا من العمل الفذ ، وقال قائلهم : أليست مهما بلغت ترجمة ! أليس مترجماً ؟ وكأن الترجمة في مثل هذا المستوى الرفيع يستطيعها كل مترجم .! وقد عزا الأستاذ العقاد هذا الحزن في شعر المازني إلى عصره الذي عاش فيه وهو عصر طبيعته القلق والتردد بين ماض عتيق ، ومستقبل مريب ، وقد بعدت المسافة فيه بين اعتقاد الناس فيما يجب أن يكون ، وبين ما هو كائن فغشيتهم الغاشية ، ووجد كل ذي نظر فيما حوله عالماً غير الذي صورته لنفسه حداثة العصر وتقدمه ، وإنما يكون الألم على قدر بعد البون بين المنتظر وبين ما هو كائن ، فلا جرم إن كان الشاعر أفطن الناس إلى النقص ، وأكثرهم سخطاً عليه ، ولا جرم إن كان ديوان شاعرنا - على حد قوله :

كل بيـــت في قرارتـــه ... جثة خرســاء مرنـــان

(١) ديوان المازني - المقدمة - ص ٢١ - ٢٤ -

خارجا من قلب صاحبـــــه مثلمـــا يزفر بركـــــــان

«والديوان بجزء يه - كما تذكر الدكتورة نعمات - معرض للوحات شتى يصور بعضها خواطر الوحدة والذكريات التى تبعثها فى النفس . والذكريات فيها الحزين الشاحب وفيها السعيد المطرب . وفى الديوان منى وعتاب . وآمال وآلام . وفيه حنين ويأس ورجاء ، وفيه صبر ومثابرة وتأس وعزاء . وفى الديوان غدر من بعض الصحب يقابله بغدر مثله ، ووفاء من بعض أصدقائه يجازيه منه بوفاء ، وفى الديوان من دنيا الحب خمر وكئوس ومراشف ساق وعذوبة نديم ، وطيف حبيب غائب ، ونعيم حبيب واصل ، سمير بلاغته فى عينيه أعذب منها على لسانه . وفى الديوان تغن بالجمال ، وعبادة للحسن ، وصلاة فى محراب الطبيعة ، صلاة تترنم بحسن الوردة ، وتهزج بألحان الطير ، ولا تنسى فى تأملاتها الكهوف والبروق والرعود والرياح والأمطار ، بل لا تفزع أن تذكر الجن والغيلان . والديوان بعد هذا صورة من الحياة فيه دموعها ، وفيه منها البسمات العذاب» (١) .

أما الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم فيخصص الفصل الرابع من رسالة : المازنى شاعراً . للدراسة الفنية لشعر المازنى .. ويستهله بقوله: «شعر المازنى - فى جملة وجيزة - صورة للحياة التى عاشها ، وصورة

(١) د . نعمات أحمد فؤاد - المرجع المذكور - ص ١٦٠. - ١٦٢ -

لمطارح فكره ، ونزعات إحساسه ، تقرأ شعره فتشعر أنك أمام ذات متميزة لا تختفى إلا لتبين ، وما ذاك إلا لأن الشعر عنده ليس كساء يلبس للزينة فى مواسمها .. وإنما هو قوام حياته ، ودمه السارى فى تجاليده ، شعر بهذه الحقيقة شعوراً طاغياً ملحفاً .. ونظرته للحياة هى نظراته الخاصة التى تطل منفردة فى لجب النظرات وسكاكها .. وعظمة الشاعر أن تلمح له وجهاً خاصاً بين الوجوه ، وسحنة متميزة بين السحنات ، وأن ينسجم هندامه على قوامه ، وهذا ما نراه فى شعر المازنى .. فالرجل (شخصية) تنقص صورة الحياة أمامنا إن لم نطالع ديوانه ، برغم أنه حكم هذا المقياس فنفى عن نفسه الشاعرية ، ورفض شعره ، ونستطيع أن نقول باطمئنان أن صورة الحياة كانت حرية أن تكون ناقصة من بعض وجوهها لو لم نطالع هذا الشعر المازنى ، فهو ليس بنسخة مكررة نستطيع أن نستغنى بنظيرتها ، وإنما نسخة لا تكون إلا على قده .. ملاك هذه الشخصية التمرد الشاكى ، أو الشكوى المتمردة . فى شعره طموح متوثب ، وأجنحة واهنة ، وإحساس عار بهذا الفارق الخالد ، يهضب صاحبه بالشعر ، ويسح به سحاً ، حب يعبد الحياة عبادة - ليس على طريقة المجاز - وسخط ممض عليها لا يفارقه لحظة إلا ليعود وإن غلفه ببسمة السخر التى هى أشبه بالقنوط - تعلق بالبقاء ، ووله - أو يكاد - بالموت » (١) .

(١) د . عبد اللطيف عبد الحليم - المرجع المذكور - ص ١٥٩ - ١٦٠ .

«وطبيعة العصر تمثلت فى شعر المازنى تمثلا دقيقا .. وتستطيع أن تقلب أى صفحة منه حسبما اتفق لترى مصداق ما نقوله من تمثيل العصر فى شعره ، فالقلق والتردد والشكوى الدائمة والتمرد المستريب .. خيوط فى نسيج هذا الشعر .. » (١) .

ويتحدث عن الهجاء عند المازنى فيقول : «وهجاء المازنى من ذلك النوع الصالح المقبول لأنك تُعرف من خلاله شخصية الرجل المصرى وشخصية المجتمع ، وتستطيع مطمئناً أن تفتح عينيك على نموذج الرجل العصرى لا على رجل واحد فقط ...» ويضيف أن المازنى إذ كان يهجو فليس ذلك لحقد أو لسوء نفس «فالرجل يهجو لأنه طيب السريرة ، سليم الطوية ، ولم يكن بادئا بعدوان . وإنما كان هجاؤه رداً على إساءة أو عدوان ، وغايته أن ينظم قصيدة يشفى لاعج همومه ، وبها يبلغ الغاية المتوخاة ، وتنتقل المسألة من مجرد علاقة شخصية إلى علاقة فنية بينه وبين شعره ، فسلامة الطوية ، ونضارتها وراء هذا العنف ، وتلك القسوة .. وقد استفاد الفن من جراء ذلك شعراً جيداً ، تتآزر فيه الصورة الدقيقة الموحية مع الاحساس الصادق واللفظ البليغ ..» (٢) .

وهذا هو ذات رأى العقاد فى مقدمته لديوان المازنى .. فهو

---

(١) د . عبد اللطيف عبد الحليم – المرجع المذكور – ص ١٦٢ –

(٢) المرجع المذكور – ص ١٦٩ –

يستشهد بأبيات للمازنى فى ديوانه - الأول - وهى مختارة من قصيدة للمازنى عنوانها «إلى صديق قديم» وهذه الأبيات منها :

يتلقاك بالطلاقة والبشر وفى قلبه قطوب العداء

كالسراب الرقراق يحسبه الظمآن ماء وما به من ماء

عاجز الرأى والمروءة والنفس ضئيل الآمال والأهواء

ألف الذل فاستنام إليه وتباهى به على الشرفاء

ينسج الزور والأباطيل نسجا والأكاذيب ملجأ الضعفاء

مستميت إلى المكاسب والربح ، دنىء الأسفاف والكبرياء

فاسق يظهر العفاف ويخفى تحته الخزى .. يا له من مراء

مظلم الحس والبصيرة كالتمثال خلو من الحجى والذكاء

قد زهاه الشموخ فاختال تيها ولوى شدقه على الخلصاء

يورد هذه الأبيات ثم يعلق بقوله : «وصف المازنى فى هذه الأبيات نموذج الرجل العصرى ، فلم ينس صفة من صفاته ، وأنى لرجل العصر أن يكون غير ذلك ، وهو يبصر غير ما يسمع ، ويسمع غير ما يعتقد ، ويعتقد غير ما يجرؤ على الجهر به ، وذلك ديدن الناس فى كل زمان تحس فيه النفوس بالحاجة إلى الانتقال ، فترسم مثال الكمال ، ثم تكر إلى عالم الحقيقة فلا تقابل إلا النقص والقصور ، وأنها لتظل كذلك تتذبذب بين الباطن والظاهر - وهذا

هو عين التصنع والرياء ، وان اشتد، فقل الخبث والصفاقة والكبرياء ..» [1] .

- وإننا لندهش - فهذه الأقوال قيلت مع مطالع هذا القرن .. وها هو ذا القرن العشرون يوشك أن يولى .. فهل هناك صورة لرجل القرن العشرين المولى أصدق من هذه الصورة ، وصفاً ، وتعبيراً ، ودقة ، وصدقاً ..!

ويتحدث الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم - عن موضوعات ثلاثة كانت أثيرة عند المازنى :-

أولها الموت .. فقد كان من الموضوعات الأثيرة عنده ، وقد حظى الموت بكثير مما كتبه شعراً ونثراً .. على أن الحقيقة أن «الموت عند المازنى رغبة عارمة فى الحياة ومعانقة لكل مظاهرها وظواهرها .. وهو بطبيعته التى ذرأه الله عليها نزّاع إلى معرفة كل شىء ، ولو كان فى حجاز الغيب ، ومن ثم كانت أمنيته أن يكون آخر هذا العالم حتى يشهد نحبه ، ورحلته الشعرية إنما يجوس خلالها بوادى الحياة والموت ، وما بعد الموت من نعيم وجحيم ، فهى رحلة استكشافية فنية جمالية إن صح التعبير ، ولها من روافدها النفسية والفكرية ما يعين على جلاء الحجب والأشعار ، ومن هنا نجد أنه يتذكر الموت فى لحظات أنسه ومراحه مع

---

(١) ديوان المازنى - ص ١٨ .

من يحب لأن اللذة الخالصة الكاملة لا تتأتى إلا بمعانقة الحياة والموت ، وهذا لا يكون لا بناء الفناء ، وإنما يتوخاها رجال الفنون ، ولذلك يطالب أن يصف قبره ، وأن تناوحه ريح الزهر ، وترويه الخمر ، وأن ينادمه خضل الغمام :

كفنونى إن مت فى ورق الزهر ، ورشوا ثراى بالصهباء
واذكرونى ، والوجه منطلق البشر ، كأنى ما زلت فى الأحياء
وإذا ما أديرت الكأس يوما فاشربوا لى من صرف ما فى الإناء
إنما يهرب الرجال من الذكر ، لما قد يثير فى الأحشاء

وقد آل المازنى فى النهاية إلى نوع يشبه المصالحة مع الموت وسخر من خلود الذكر للأدب وللأدباء ، لأن غاية الحياة عنده إلى أمل وذكرى ، كلاهما خيال .

ومن ناحية ثانية فإن للمرأة مكانة كبيرة فى شعر المازنى .. لأن «المازنى رجل يعبد الحياة ، فلا مشاحة فى أن تكون المرأة معبودته ، وهو قد أحبها زوجاً وأما وبنتاً وحبيبة ، وحديثه عنها حديث الرجل الذى استكنه لغزها ، واستكشف سرها إلى حد بعيد ، كتب شعراً فى زوجه وأمه وابنتيه ، وكتب أكثر فى المحبوبة ، وأننا لنقرأ شعره فى محبوبته فنحس حرارة حزينة تعتصر الأفئدة ، وما ذاك إلا لصدق التجربة .. وتقرأ الرجل فتحس بلوعة الحرمان ، ومرارة الهجر ، وعذاب القطيعة ..»

ومن شعره :

أبليت فيك العمر وهـو جديـد   وعرفت فيك الصبر كيف يبيد
وتركتنى مثلا شروداً فى الهوى   يومى إلى الأصبـع المحـدود
لى كل يوم منـك موقف ذلة   صعب على الطبع الحمى الشديد
وأراك تلقانى ، ووجهك عابس   وبناظريك بـوارق ورعـود
مهلا - حبيبى - إن فىَّ لعـزة   أبدا علـىَّ لـواؤها معقـود

والناقد يرى أن «شعـر الحب عند المازنى - ونحن نقصد كلمة (الحب) هذه دون غيرها من كلمات الغزل والعشق لأن فى هاتين الكلمتين نوعاً من الحسية لا نراه فى شعر المازنى ، وإنما نرى «روحانية» أو «تصوفا» برغم تعرضه للنظرات وللخدود والقبلات ، وكل ما هو من قبيل الحسيات ، ذلك أنها فى شعره ليست إلا معبرا يتخذه مرفأة إلى الروحانيات» . ومن شعره:

أنا كالموج ليس يحيـيه إلا   ثورة الريح وانتفـاء الركود
أنت للعين وردة بضمة الحسن   على فرع غصنهـا الأملود
كلما صافحت لحاظى ، دق القلب   عطفا على رقـاق الخـلود

ويختم الناقد قوله فى هذه الناحية بأن هذا «كان صنيع المازنى مع المرأة وموقفه منها : إحساس بشموخ الذرى ، ومحاولة انتشال من يحب من هذه الآدمية إلى معارج الملائكة المقربين ، وإراقة المثالية على هذا الجسد ليصير فيضاً روحياً يغلفه الفن . ومن هنا تكون عذابات

المازنى .. وطبيعة العصر القلقة الحزينة وامكانات المازنى فى الاحساس الفذ جعلت منه محباً يشيع فى شعره لون من الألم الممض ..» .

على أن لنــا رأيا آخر فى مـوقف المازنى من «المرأة» أو فى «حـبه» لها .. سوف نبسطه بعد أن نخلص من عرض آراء النقاد .

ويضيف الناقد أن من «موضوعات الشعر عند المازنى تأملات تهتم بحقائق الكون وتفتش عن أسرار الوجود .. فهو يتحدث عن الجبر وتحكمه فى مصائر البشر وفرضه للخير والشر على الناس فيقول من قصيدة له على «لسان الأقدار» :

بأيدينـــا قلوبكـــم لنـــا فيهـــا ألاعيـــب

وفينا الخيــــر موجـــود ومنــا الشـــر مجلــوب

وما عن صبـــرفنا معـــدى ولا فى الأرض محجـوب

نصــــرف أمـر دنيـــاكم بما فيــــه الأعـــاجيب

كمـا يتحــدث عن مـأساة الإنسـان وغروره برغم عجزه وسـخطه ، وبرغم مـلازمة الظلم له ، وفى ذلك يقول من قـصيدة بعنوان «الإنسـان والغرور» :

أقم وادعا ، واصبر على الضيم والأذى

فانك إنســـــان وجـــدك آدم

وهبك على الدنيا سخطت .. وظلمهـــا

أتملك دفـــة الظلم ، والظلم لازم ؟

بنى آدم ما للغـــرور رمى بكم   مراميه حتى غدا وهو حاكم !

تظنون أن الأرض قد بسطت لكم

ومن أجلكم تجرى الغمام الروائم

وأن النجوم الزهر علقن زينة   تقر بها الألحاظ وهى هوائم ..!

ويختم الناقد عرضه بقوله : «مثل هذه الموضوعات .. قد أسلست للمازنى طريقه فى النظم استطاع بها أن يخرج هذه الموضوعات من إطارها المنطقى وإن يخلع عليها ثوباً رقيقاً لم يفقد إحكام النسج فى جودة الاحساس ، وبراعة التعبير» (١) .

وعما أطلق عليه الناقد «صناعة المازنى» - يقول الناقد :

«نقصد بصناعة المازنى تلك الطريقة التى يتوخى بها صوغ الكلام ، ومعالجة النظم وما يستتبعه من وزن ولغة ، ومدى توفيقه واخفاقه فيما توخى وأم .. والمازنى عندنا من الشعراء المطبوعين على قول الشعر ، حتى بعد عزوفه عنه ، وقد غذى هذا الطبع ، وتلك السليقة بروافد وسيعة من الثقافة الرحبة الأصيلة ، ومن هنا أسلست له طريقه فى النظم قل من يؤتاها من المطبوعين والصانعين» .

«شاعرنا فخم الاحساس والتصور ، ولذلك كان أسلوبه يجنح للفخامة فى الحوك والصياغة ، وغير عجيب أن ينسجم هندامه على

---

(١) د . عبد اللطيف عبد الحليم - المرجع السابق - ١٧٩ - ١٨٠ .

قوامه ، والتمثيل لهذه الظاهرة من نافلة القول .. ولا يخطئها الناظر فى ديوانه» .

«وقد برىء المازنى من وصمة الغموض ، والانبهام ، والتهويمات الفارغة التى تأتى من تداعيات محضة لا عمل فيها للمخيلة والذهن ..» .

«والملاحظ على شعر المازنى الاجادة فى أغلب ما كتب سواء أطالت القصيدة أم قصرت ، فمن قصائده ما يربو على ثلاثمائة بيت ، لا تشعر أثناء ها بفرق الرحلة وغيارها مع وحدة الوزن والقافية ، وما يتطلبانه من رياضة صعبة ، وهذا الذى تقرأ له القصائد من الشعر المرسل والموشحات ، ولكنك فى النهاية تشعر أن القائل واحد لأنه ينظم هذه وتلك بروح واحدة واهتمام واحد ، وتدرك أنه غنى بصرف الكلام حيث يشاء مادام بصيرا بمناحى تصريفه لا يتكاءه تعبير أو وزن مما يتكاء لخفاف الشعراء وصغارهم» .

«أما لغة المازنى فهى لغة عالم خبير يعرف من خباياها وخفاياها شيئا عظيماً ، ومحصوله منها محصول من يتصدى للمعارضة ، ويأرن إليها كما يأرن الجواد الكريم» [١] .

ويختم الناقد هذا الفصل بقوله : «لقد خسر الشعر العربى بعزوف

---

(١) المرجع المذكور ص ١٨٥ - ١٩٣ .

المازنى وترا مرنما ، مجدداً ، قدم له الكثير ، وكان ينتظر منه أكثر لو سارت الريح رخاء فظل يرنِّم حتى آخر حياته» .

★

٧ - اعتذار فى كلمات ثلاث :

أرجو أن يعذرنا قارئنا فى كثرة اقتباساتنا لما قاله بعض الدارسين لشعر المازنى وصولا إلى تحديد معالم «شاعريته» .. كما أرجو أن يعذرنا لتغاضينا عما قاله القادحون للمازنى ، المنكرون لشاعريته .. ونقدم لذلك الاعتذار بكلمتين :

أما الكلمة الأولى فتقول أن الذين سبقونا إلى دراسة شعر المازنى كانوا كثيرين ، وقد أخذنا من بينهم من رأينا فيما أبدوه من رأى حبا للإنصاف ، وتغليباً للموضوعية فى الرأى ، وبعدا عن التحامل غير المبرر ، أو الصادر عن مسايرة لمذاهب أخرى لا تقر لما عداها بسبق أو بفضل وهؤلاء الذين استشهدنا بما وصلوا إليه من نتائج ، وبما أبرزوا من أوجه تميز شعر المازنى وأصالته ، أقاموا نتائجهم على ما قدموا من أسباب وشواهد تساندهم فى كل ما قالوه ، فضلا عن أنهم من الدارسين الذين لهم قدم صدق بين الناقدين المنصفين ، ولعل الجامع بينى وبينهم فضلا عن ذلك كله هو حبنا للمازنى حبا يفوق الوصف ، وهو حب له أسبابه ودواعيه .

ومن هنا فإذا كنت قد أكثرث من ايراد أقوال هؤلاء ، فإنما لتقديرى

لها ولتوافقها فى معظم نواحيها مع ما أريد أن أقوله ، ومن ثم لم نجد داعياً لإعادة ترديد ذات المعانى بكلمات من عندى ، وأثرنا - من ثم - إيرادها بلفظها ، منسوبة لقائليها ، وأولى بنا أن ننسب الفضل لأهله .. وإذا كان ثمة قول آخر نود أن نضيفه فليأت موضعه تالياً لأقوال أصحاب الفضل الأول .

والكلمة الثانية هى اعتذارنا عن الالتفات عما قاله القادحون ، والمنكرون لشاعرية المازنى ، وإنهم لكثيرون .. وقد طالعنا صفحات وصفحات من أقوالهم ، فلم نجدها فى الواقع تعبر عن وجهات نظر جديرة بالدراسة ، فضلا عن أنها تتسم بالتعميم واصدار أحكام جزافية دون تقديم دليل على أى منها ، مثل قول أحدهم . «المازنى الناثر أشعر من المازنى الناظم» أى أن المازنى أقدر على تصوير خواطره وهواجسه نثراً منه نظما ، وكأنى بالمازنى قد اقتنع بهذه الحقيقة ، فأقلع أخيراً عن نظم الشعر ، وكرس قلمه للنثر لا سيما وأن النثر انسب للمهمة التى نصب نفسه للقيام بها ، أى الثورة على ما تواضع عليه الناس من تقاليد أدبية واجتماعية وما تتطلبه الثورة من سرعة ، النثر بها أخلق وعليها أقدر» .

وما نريد أن نتقصى أقوال القادحين فى شعر المازنى ، فهى لن تضيف جديداً جديراً بالترديد والمناقشة .. وإلا فما جدوى مناقشة أصحاب التيار الجديد الذين يأخذون على المازنى وسواه الارتباط - فى

صياغة شعرهم - بعمود الشعر العربى والتزامهم بأوزانه وقوافيه واقتصار التجديد عندهم على نواح جزئية لا تتحرر تماماً من الأوزان والقوافى .. ؟ .

وما جدوى مناقشة من يذهب إلى أن المازنى فى شعره ونثره إنما يمثل «الهروب من الحياة» والعجز عن «مواجهتها» ومجابهة «إشكالياتها» ؟ .

وآخرون يأخذون عليه طابع الحزن ، وما يشيع فى بعض قصائده من كتابة يصفونها - ظلما - بالسوداوية ..! .

وسواهم من أقاموا من تأثره بمعانى ما ارتوى به من بين الشعر الغربى فانعكس ذلك فى بعض أشعاره اتهامات له بالسرقة الأدبية وكأنما «المعانى» ممتلكات فردية يحوزها كل من سبق إلى وضع يده عنها ، فيصبح هو الوحيد - دون سواه - المالك لها ، القادر على استعمالها ..؟ .

وهناك من قالوا أنه لم يتطور بشعره ، فقد قصره على الشعر الغنائى ، ولم يطرق ميادين أخرى استحدثها الغرب ويضربون لذلك مثلا بالشعر التمثيلى .. وكأنما على كل شاعر أن يطرق بشعره كل الأبواب وأن يدخل إلى جميع المجالات التى يقال فيها الشعر .. وتجاهلوا أن الشعر إنما هو صدى للنفس ، وتعبير ذاتى ووجدانى عن الشاعر نفسه، روحا وفكراً وإلهاماً وحساً وذوقاً .. !! .

ونكتفى بهذه الاشارة مقررين أننا لو كنا وجدنا رأيا منصفا وصادقا وقائما على سند من النظر الصحيح ، والتحليل الأصيل لبادرنا إلى عرضه ومناقشته .. ولكننا لم نجد من ذلك شيئا .. ومن ثم فنحن فى اعتذارنا لقرائنا من التغاضى عن هذا الجانب نكون صادقين ومنصفين أيضاً .

أما عن الكلمة الثالثة .. فنفصلها فيما يلى :

٨ - تقديرنا للمازنى من خلال : مختارات من إبداعه الشعرى :

ومع تقديرنا لكل ما أوردناه فيما سبق من آراء أبرزت مناحى الجمال ونواحى الابداع فى شعر المازنى .. فإننا سوف نحاول - فيما يلى - أن نضيف إلى تلك الآراء كلمات ، تفصل بعض ما ورد من قبل مجملاً، أو تضيف بعض الآراء الشخصية ، أو تبدى جديداً قد لا نكون مسبوقين إليه ، وسيكون عرضنا لذلك من خلال مختاراتنا من ابداعاته الشعرية :

وأول ما نذكره هو تلك الاشارة إلى أن المازنى كان فى صياغته ملتزماً بعمود الشعر العربى وزناً وقافية ، لم يخرج عليه ، وإن كان قد حاول التجديد فى بعض الأحيان إلا أنه التجديد فى إطار ما هو قائم ، دون الخروج عليه ، وكأنى به يقول : هذا القديم المتوارث مازال يحوى بين طياته عناصر تجديده وتجدده ، ولو أننا أوليناه رعايتنا لاتسعت

أشكاله ، وتعددت أوزانه وقوافيه حتى ليتسع لكل الأغراض .. دون أن نخل بموسيقاه .

ولننظـــر إلى قـصـيـدته : «مناجـاة حـسناء» التى تمضى على هذا النحو :

مناجاة حسناء

لا أنس منظرها وقد طلعت للعين بين خمائـــل الورد

والماء يرقصـــــــه تدفقـه

والبدر أشحبـــه تأرقــه

والليل طفل شاب مفرقه (١)

والغصن مياد وقد عبقـــت حلل النسيم بنفحة الرنـد

العــــــين تناجيهـــــــا

هل تعرف الحسناء .. واعجبى

لشحوب لون الورد من سبب

وذبول جفن النرجس العجـب

وصدودها عنى وقـــد علمت أنى ليطرفنى قذى الصد (٢)

---

(١) مفرق الرأس .. حيث يفرق فيه الشعر - والمراد منه : مقمر .

(٢) قذيت العين قذى .. صار فيها الوسخ والتراب وغيره .

القـــــلب ينــاجيهــــــــا

لون الربيع بوجنة الزهر [1]

والروض مشرق صفحة البشر

وبحبتى يا أنفس الذخر [2]

برد الشتاء فهل ترى سـمعت عصف الهوى وتهزم الوجد [3]

(ديوانه – ص ٦٩)

وليس من شـــك فى أن فى هذه الصيـــاغة تجديداً أو خروجا على مـــا هو مألوف ، ولكنه التجديد المحسوب الذى لم يخل بما يجب أن يظل الشــعر متميزاً به من موسيقى ، ملتزماً بالوزن ، ووحدة التفعيلة .

وهناك أمـثلة أخــرى .. نشـيـر منهـا إلى قـصـيـدة «الدار المهجـورة» وقد نهج فيها هى الأخرى نهجاً جديـداً فى الصيـاغة ، وإن كانت له أمثلـة فى الموشحات الأندلسـيـة المعـروفة ، وهذا يكشف عن رغبة الشـاعر فى أن يجيل بصره شـرقاً ، وغرباً ، وألا

---

(١) الوجنة من الإنسان ما ارتفع من لحم خده .

(٢) حبة القلب سوداؤه والصميم منه .

(٣) عصفت الريح عصفا اشتدت وتهزم الرعد صوته – لما قال أن فى حبة قلبه برد الشتاء جعل الهوى عصفا كعصف الريح وللوجد تهزما كتهزم الرعد .

يقف عند صورة واحدة لا يعدوها .. (القصيدة فى ديوانه - ص ٢٩) .

وإذا كانت هاتان القصيدتان قد تميزتا بالتجديد فى الصياغة ، والخروج على المألوف فى الأوزان ، إلا أنهما كانتا كسائر شعره فى المرحلة الأولى : فخامة فى اللفظ دون حرص على مراعاة مستوى القارىء العادى الذى لا يسعفه دائماً أن يبحث عن معانى مفردات الشاعر فى مختلف المعاجم ، وفى الحقيقة أن معظم قصائد الديوان - فى جزئه الأول - تحتاج مفرداتها إلى البحث عن معانى كثير منها ، ومن هنا كان حرص الشاعر على ايراد هوامش كثيرة تشرح تلك المفردات وتوضح معناها ، ومراد الشاعر منها .. غير أن المتابع للجزء الثانى يجد هذه الظاهرة أقل حدة ، وغريب الالفاظ قد قل ورودها ، ومن ثم اختصرت الهوامش إلى حد ما .. وإن ظل لها وجود فى معظم الصفحات .. ونلحظ أن الأمر يأتى على العكس من ذلك فى الجزء الثالث، والذى ضم أشعاره التى قيلت فى الفترة التالية التى كان يعمل طوالها فى الصحافة ، ويغذيها بمقالاته المتعددة والمتنوعة والتى يخاطب فيها القراء من مختلف المستويات .. ومن هنا قل قوله للشعر نتيجة لانصراف معظم جهده إلى عمله بالصحافة .. ولكن ما قاله فى تلك الفترة وإن جاء قليلاً ، ومتباعداً ، إلا أنه كان أكثر سهولة ، ويكاد

يتجنب فيه كل لفظ غير مألوف ، وإذا كان كثير من هذا الشعر قد ضمه الجزء الثالث من ديوانه الذى ظهر بعد وفاته بأكثر من عشر سنوات ، إلا أننا نرجح أن تكون ثمة قصائد أخرى عديدة للمازنى لم يضمها ديوانه .. فمنذا الذى يهتدى إليها وينشرها ؟ .

من هذه القصائد التى ضمها ديوانه - فى جزئه الثالث - قصيدة تحمل عنوان : ليلة وصباح - وتجد فيها فضلا عن التجديد فى الصياغة رقة فى التعبير ، وبساطة فى اختيار الألفاظ ، وصدقا فى الاحساس .. ولنقرأ سويا هذه القصيدة ·

ليلة وصباح [1] .

خيم الهم على صدر المشوق

يا صديقى !

وبدت فى لجة الليل النجوم

ومضى يركض مقرور النسيم

وثنى الزهر على النور الغطاء !

عم مساء !

★★★

أولم يغف مع الليل الصدى ؟

فليكن لى سمرا تحت الدجى

(١) ديوانه : ص ٢٥٤ .

نتداعى فى حواشيه سواء

عم مساءً !

★★★

ياصدى أن بصدرى لكلوماً

وهمومـــا

مدرجات فيه لكن لا تموت

كلما قلت قضت رهن السكوت

صحن بى من كل فج يتراءى

عم مساءً!

★★★

سكن الليل فأترع لى الدواه

وأأســاه

أين لأبن تولى قلمى ؟

«أكلته النار نار الألم»

«كله» كلا! لقد أبقت .. هباءً

عم مساءً

★★★

هات لى .. آه على قيثارتى .. !

«شارنى» !

أو لم يبق بها من وتر ؟

خافق بذكريات الصغر ؟

ما لها تجحدنى فى اليوم الأداء ؟؟

عم مساءً .. !

★★★

طلت ياليل فهل ضلَّ الصباح .

فى البطـاح ؟

«أيها المنفى عن حلم السماء

لم يته صبح ولا طال مساء

فاغتمض ! لا تملأ الدنيا عواء

عم مساءً .. !

★★★

الساعة الأولى من النهار تتكلم

ما له يرعد حتى فى المنام

لا سـلام

قم فإن الحلم ذو عصف شديد

بالذى تطويه من صحف الوجود

من رأى حلمك هذا ما استراحا

عم صباحاً .. !

★★★

إنها تصوير لحالة نفسية يعبر الشاعر فيها عما بالصدر من «هموم»

وعما بالقلب من آلام، وعما ينطوى عليه من ذكريات «الصفر» .. والليل قد طال، والصباح قد «ضل» ، والشاعر يحس أنه منفى عن حلم الصباح.. فليكف .. ثم لينهض ، ولا يدع نفسه للحلم، فان «الحلم نو عصف شديد .. بالذى يطويه من صحف الوجود».. إلى جمال فى الصياغة، ودقة في اختيار الألفاظ ذات الوقع الموسيقى والتى تعبر بوقعها على الأذن عن المعنى المراد أدق تعبير.

صورة أقل ما توصف به الصدق فى التعبير عما بالنفس من كلوم، وعما يوحى به الليل من هواجس وأوهام..

وأيا ما قيل فى هذه القصيدة من أنها من الشعر الكابى.. إلا أن عمق الصدق فيها يجعلها فريدة فى إبداعها ، تستثير فى النفس المشاعر والوجدان .

وقد تعددت أغراض القصائد ، وتنوعت المجالات التى إرتادتها :

- وأول ما يطالعنا حديثه عن غدر الإخوان ، وعن إضاعتهم لعهده رغم ما أهداهم من ود ، وأضفى عليهم من محبة ، فإذا به لا يلقى منهم غير الهزء والسخرية .. فجازوا إحسانه بالاساءة ، ومع ذلك فلم يزد عن أن طوى قلبه على آلامه ، وراح ينعى إلى نفسه أيامه واخوانه .. وقد ردد هذه الشكوى - فى أكثر من قصيدة ، إلا أننا لم نجد داعياً لتقصيها جميعاً ، وإنما نجتزى فى التمثيل لشعره فى شكوى الإخوان بهذه القصيدة .. ففيها دلالة - وإشارة - إلى سائر ما عبر عنه من

شـكوى ، وما أضـفـاه عليـها من مـعـان ، وأن تبدو كـأنهـا من المعـانى المألوفة ، إلا أن دقة التعبير عنها ، وصدق الاحساس بها يضفى على القصيدة تميزاً خاصاً .. ولنقرأ سوياً (ديوانه ص ٣٢) .

الإخــوان

سل الخلصاء ما صنعوا بعهدى	أضاعوه وكم هزلوا بجدّى(١)
ركبت إليهم ظهـــر الأمـــــانى	على ثقة فعدت أذم وخدى (٢)
وصلت بحبلهم حبلى فلمـــــا	نأوا عنى قطعت حبـــال ودى
وكانوا حليتى فعطـــلت منـها	وغمدى ، فالحسام بغيــر غمد
أذم العيش بعدهـــم ومــن لى	بمن يدرى أذموا العيش بعدى
وما راجعت صبرى غيــر أنى	أكتم لوعتى فى الشوق جهدى
ولو أطلقت شوقى بَلَّ نحـــرى	وروى وبل غاديتيـــه خدى (٣)
جفاء فى مطاويـــــــه حفاظ	كحسن القد فى أسمال برد (٤)
وكم من نزوة للقلب عنـــدى	وهجعة سلوة وقيـــام وجــد (٥)

---

(١) الخلصاء الإخوان .
(٢) الوخد السير السريع . قال الشريف
سير الدموع على آثارها عتقو سيرها الوخد والتبغيل والرمل .
(٣) النحر موضـع القلادة من الصـدر – والوبل المطر الشديد – والغادية السحابة والمراد بالغاديتين العينان
(٤) الحفاظ صون العهد والوفاء له – والبرد الثوب – والأسمال الثياب الرثة الخلْقة .
(٥) النزوة الثــورة والوثوب – سـلا عن الشىء صـبــر ، والسلوة اسم منه والقيام ضد الهجوع .

على أنى ولهن أطرب لقـــرب ليعجبنى عن المخفار بعـــدى [١]

إذا ما ضنَّ بالتسليم قـــوم فإن الجـــود بالتوديـــع ردى

لكل فى احتمال الناس طبع ولســـت على تملقهم بجـــلد

★

– وللمازنى قصيدة بعنوان «رقية حسناء» قدم لها بهذه الكلمات .

«ليتصور القارىء فتاة بارعة الشكل ، تنظر إلى صورتها فى المرآة ، وتعجب بملاحة معارفها ، ورشاقة قدها ، ووضاءة طلعتها ، وهو أمر ليس بالنادر الوقوع . وما أظن إلا أن كل جميلة إذا خلت إلى نفسها تصورت حبيبها إلى جانبها على الصورة التى تريدها ، أما فتاتنا الوهمية هذه فقد تصورت حبيبها وقد خبله الحب ، وأنحله العشق . واستوكف دموعه الوجد ، وغيره السهاد ، وسودت فى عينيه نور الضحى نار الهجر . فأحبت أن ترجع إليه نفسه ، وتذهب عنه برحاء الصدر ، فرقته بهذه الرقية» . [٢]

ومضى بعد ذلك مع قصيدته لتترجم أبياتها عن تلك المعانى الطريفة .

– وقصيدته ظمأ النفس إلى المعرفة – تعبر عن الكثير من المعانى .. فالكون أمام شاعرنا من سماوات وفضاء ، وبروق ورياح ،

---

(١) المخفار هو الذى يخفر العهد أى يخونه .

(٢) المرجع المذكور – ديوانه – ص ٤٦ .

وأسباب التأمل ، فهو يود أن يستكنه أسرارها ، ويتعمق حقائقها .. بل هو فى لهفة وشوق إلى أن يدرك الحقيقة . ولكن أنى له أن يصل إلى تلك الحقيقة !! بل أنى له أن يستطيع فض تلك الأسرار .. !! إنه مهما تأمل ، وحاول ، وفكر ، فلن يصل إلى أكثر من أن تعود إليه نفسه مهدودة القوى ، ومع ذلك فلن يكف عن المحاولة ، فالنفس دائما فى شوق إلى المعرفة . (١)

وعادت إلىَّ النفس مهدودة القوى   تئن من الاسفاف والشوَّلان (٢)
تحن إلى ظل من الرخو وارف   وطول جمام رافه ، وليان
ومن لى بأن لا ترفع العين لحظها   ولا تجتلى فى الناس أى هوان !!

★

وقد أرجأنا الحديث عن «وجدانيات المازنى» لتكون خاتمة هذا الفصل ..

وليس من شك فى أن قصائده «الوجدانية» تعبر عن لحظات من حياته ، عاشها واقعاً ، أو حلماً ، أو وهماً .. وهو - فى جميع الأحوال - يعبر عن عواطف صادقة ، يموج بها القلب ، وتضطرب لها النفس ..

غير أننا لا يفوتنا أن نشير إلى «مقال طويل - للمازنى» يتحدث فيه عن تكلفة الحب والشوق والسهر بطريقة فكهة ساخرة ، فيقول : «وكنت

(١) ديوان المازنى ص ١٤٩ -
(٢) شوّلت الدابة : لحقت بطونها بظهورها من الجوع والهزال .. وهو يعنى أن نفسه عادت تشكو الجوع والهزال .

أتمثل هذه الحالات التى يصفها الشعراء ، وأسمع بها من الإخوان ، وأروض نفسى على مثلها ، وأجعلها تستغرقنى حتى قلت شعراً كثيراً فى ذلك لا يشك قارئه فى أنه صادر من عاطفة صادقة عميقة قوية ، ولم أكن أنا أشك فى أن الأمر كذلك أيام كنت أقول هذا الشعر لأنى لم أزل أعالج نفسى بالايحاء حتى صار الأمر أشبه ما يكون بالحقيقة ، وكنت أمتحن نفسى أحياناً بالبعد ، فلا أرانى أشتاق أو أتلهف أو أتحسر أو أصبو إلى آخر ذلك . وأخيراً مللت هذا التكلف ، وهذا من أسباب تركى الشعر ، وثم أسباب أخرى ، ولكن هذا من أكبرها إن لم يكن أكبرها » . (١)

وقد يأخذ البعض هذا الكلام مأخذ الجد ، أما نحن فنأخذه بحذر . ذلك أنه نشر فى عام ١٩٣٠ ... أى بعد أن كان المازنى قد انصرف عن قول الشعر بأكثر من خمسة عشر عاماً لاشتغاله بالصحافة وانصرافه إليها بكليته ، فلم تبق له جهداً ولا وقتاً لابداع الشعر . والشاعر لا يغتفر لنفسه انصرافه عن عالمه الشعرى ، وإن هو انصرف راح يوجد العلل والأسباب لذلك الانصراف فى محاولة لابراء ذمته ، ودفع تهمة التقصير فى حق الفن من جانبه .. إن من يقرأ قصائده الوجدانية لا يمكن أن

---

(١) د . عبد اللطيف عبد الحليم – المرجع السابق – ص ٢١١ – والفقرة المنقولة عن مقال للمازنى نشر فى «السياسة الأسبوعية» – ١٩٣٠/٠١/٢٥ .

يشك للحظة فى أنها نابعة من لحظات انفعال صادق ، وصادرة عن عاطفة جياشة ، ومشاعر عميقة ..

وقراءتنا لبعض قصائده ستكون هى دليلنا القاطع على شاعرية المازنى ، وصدق مشاعره .. ولنقرأ هذه الأبيات

الورد [1]

خدُّه أحسن أم ثغـــــره	بل كلا الحسـنين فتـان
كل جزء من بـــــدائعه	لفنـــون الحسن بستان
لى كئوس من مراشفـــه	ومن الأطيــار ندمـان [2]
كلما قبـــلت وجنتـــه	خلت أن الـــورد خجـلان
ظنى ترويـــــه قبلتـــه	كيف ربــى وهـــو ظمـآن
رب طـــــل با يكــلؤه	فكأن الطـــل غيــران [3]
وكأن الورد إذ ســطعت	منه ريــح الطيـب نشـوان
أنا أخشى أن أراعيـــه	ما لهذا الـــورد جثمـان [4]
كيف لا تذوى غلالتـــه	وهى للأعـين ميـدان [5]

(١) ديوان المازنى - ص ٢٧ -

(٢) المراشف الثغور .

(٣) الطل . الندى أو القطر الخفيف قال ابن الرومى «ونرجس بات سارى الطل يضربه» - يكلؤه . يحرسه .

(٤) راعيته أى لاحظته والجثمان الجسم - أى أن الورد لفرط رقته ليس له جسم يحتمل أن تجمل فيه العيون .

(٥) تذوى · أى تذبل وغلائل الورد أوراقه .

فانظر كيف يتحدث عن الحبيب وعن مواضع الحسن فيه .. فلا يمضي يعدد ، بل يوجز القول بأن كل جزء من بدائعه لفنون الحسن فتان .. ومع ذلك يعاود الحديث عما يروى به ظمأه من قبلاته ، وعن وجناته التى يخال أن الورد - معها - خجلان .. إلى آخر ما ضمن أبياته من أوصاف وتشبيهات تضفى على المحبوب غلالة من الحسن فهو عند المحب ملء العين ، والقلب ، والوجدان .. !



ومن قصيدة له بعنوان «مناجاة الحسن» نقتطف هذه الأبيات[1]

يكاد يأكله باللحظ مبصره ... أو يستطيع رنوا لحظ ولهان

ولفظه السحر إلا أنه كلم ... ولحظة الخلد إلا أنه جانى

وجه مضىء من الفردوس مخرجه ... ملء النواظر من حسن وإحسان

وقال . صف ليلتي هذى مجملها ... نفسى فداؤك من : راج ومنان

أهبت بالشعر فاستفتحت مغلقه ... كنجمة الصبح تحدو نوره الوانى

ولو وكلت إلى نفسى عييت بها ... لكن دعوت فما أعيا بتبيان

سقيا ورعيا لها من ليلة سلفت ... عادت رطابا بها أعواد أغصانى

يا روضة من رياض الحسن فاتنة ... تموج باليانع النائى وبالدانى

فيك الشقائق للجانى تميل على ... طرائف من أقاح وسط ريحان

---

(١) ديوان المازنى - ص ١٨٣ -

ونرجس فوقها يسطو بلحظتـــــه   على فؤاد طـــويل البث قرحـان
قد كان ظنى أنى قد مـــلأت يدى   هيهات ذاك حرمنـــا أى حرمان
أتم طيبا وحسنا منك ما نظـــرت   عينى ولا سمعت فى الدهر آذانى
ولا أتم أسى منى ولا كمــــــــدا   يا صاعقى بجمـــال مـــاله ثان
يا حسن كم من أخى حسن كلفت به   قد سار سيرك فى صد وهجـران
لما برمت به فارقتــــه جـــــذلا   وكف دمعى عن ســح وتهتـــان
لكن أبت ذاك أيات لحسنك لم   تترك ســـوى سبل إقرار وإذعان
أهون عليك بمفتون وشــــقوته   إذا لهـوت بأكبـــاد وأذهـــان

وإنا لنتســـاء ل : أيمكن أن يكون هذا القول الرقـيـق ، إلا نبض قلب مـولع ولـهـــان ؟ وهل يمكن أن يكون مـحض قـول صـانع مـاهر ، وليـــس ثمـرة شـعور دافــق ، وتجـربة مـوحيـة وصـــدى لإحســـاس متدفق .. ؟

لا .. يا شـــاعرنا .. لا تنف عن نفسك شـــاعريتهـا - أو صدقها - فـإنـــك مـهمـا قلت ، فـمـــا أنت إلا شـــاعـر ملـــهم ، ومـبـدع أصيـــل ..

ومـا نود أن نختم مـا نقتطفه من أشـعـاره ، لأن ديوانه كله جـدير بالاقتطاف ، غيـر أننا لا يمكن أن نغفل هذه القصيـدة التى هى مسك الختام :

سحر الحب (١)

أيا ساعة مليت فيهـــا بحســـنه ... نشـــدتك إلا كـرمتك نظـــائر
وإنى لأدرى أن فى البعـــد راحة ... لمن تتصبـــاه العيون السـواحر
ولكننى جربت قربـك والنـــوى ... فمـــا قر لى بال ولا جف حاجر
ولا التذ طعم القرب قلبى ولا النوى ... ولا رقدت فى الحالتين الخـواطر
وما أنا إلا كالمخـــادع نفســـه ... وقد يخدع النفس الفتى وهو شاعر
تمر بنا كالحلم قصـــر طـــوله ... لذاذتـــه حتى كأنـــك طـــائر
أأهواك أم أقـــلاك واللـــه إننى ... لأجهل ما تطوى عليه الضمـائر
وإنى لتعرونى لمـــرآك رجفـــة ... كما انتفض المذعور والخطب فاغر
وإنى لتعرونى لذكـــــرك حنة ... كما حن للأهل الغـــريب المسافر
فأنت جحيمى فى الحياة وجنتى ... وأنت عـــدوى والحبيب المـــؤازر
وأول شىء أنت يجرى بخاطرى ... وآخر شىء أنت يجـــريه خاطر
ملأت شعاب النفس حتى كظظتها ... وأخليتها فالنفس صحـراء غامر
فواها على عهد الســـــلو وطيبه ... وواها له ما أن أوحـــن ذاكـر
حقيبة شر ذلك الحب بئـــس ما ... تحملنيـــه فى الحيـــاة المقادر
أراه على لذاتـــه ونعيمـــــــه ... يفاجئنا منـــه رميض ونـــاعر
وهل تشترى اللذات إلا بضعفهـا ... من الألم الدامى وممـــا نحاذر
وما مطلبى سحر العيـــون كأنها ... إذا لامحت عينى - النجوم الزواهر

---

(١) ديوان المازنى - ص ١٥٩ -

ولا نضرة الخد الأسيل كأنمـــا غذته على الدهر الورود النواضر

ولا الثغر إما يســتدير كأنمـــا تهيأ للتقبيــل والشــوق ثــائر

فقد يحرق اللحظ المضيء ويخنق الأ ريج وترديــك الثغــور الدوائر

ولكنما أبغى إذا ثـــار ثائـرى فؤادا أناجيه وعقــلا أســامر

وقلبا إليه أســـتريح بــدخلتى وأفضى إليه بالأســى وأشــاور

كما خفقت يوما على الزهر نحــلة وظلت تشــاكيه الهوى وتسارر

قضيت حياتى بين آثار من مــضوا ففى حيثما سرحت طرفى مقابر (١)

أولئك إخوانى الذين اصطفيتــهم وآثرتهم بالــود والقلب حائر

فيا بؤس للحى الذى لا يــروقه من الناس إلا من تضم الحفائر

أخادع نفسى فيهم وأغشهـــا ويخدعنى منهم نصيح ومــاكر

وما لى شغل فيهم غيـــر أنه تشابه حالى حــالهم وتناظر

فيا زائرا أفــديه بالنفس لو درى أغثنى وكن عونى إذا خان ناصر

وأدت حياتى فى شبابى مكسرها وما امتلأت مما تحــب النواظر

ولكنمـا بينى وبين مــواردى حجاز وقد سدت على المصــادر

فعد لى فــإنى لست أملك مذهبى وكن لى فإنى صادق العهد شاكر

وهبنى إذا ما شئت ميتــا تزوره أليس لمن يقضى من الناس زائر؟

وليس من شك فى أنه قد بلغ الذروة فى هذه الأبيات الرقيقة لفظاً ،

---

(١) يريد . الكتب .

السلسة نظماً ، الفياضة بمعانى الحب والوفاء .. التى تصف فتبدع ، وتتذكر فتعبر عن الأسى على نحو يثير الشجن لدى القارىء ، ثم تخلص إلى أن مبتغى الشاعر ليس الخد الاسيل ، ولا اللحظ المضىء ، ولا الثغور الحرار .

ولكنما أبغى إذا ثــــار ثــائرى	فؤادا أناجيه ، وعقلا أسـامر
وقلبا إليه أســتريح بـــدخلتى	وأفضى إليه بالأسى وأشـاور
كما خفقت يوما على الزهر نحلة	وظلت تشاكيه الهـوى وتساور

يعود الشاعر فيتذكر أنه قضى حياته بين الكتب «آثار من مضوا» .. فأصحابها كانوا إخوانه الذين اصطفاهم ، يخادع نفسه فيهم .. لأن حاله تشبه حالهم .

ها هو ذا يفيق وينادى زائره أن يسارع إليه وأن يغيثه .. ولكن كيف؟ ومتى ؟ وأين .. ؟ وقد قامت بينه وبين موارده حواجز سدت عليه المصادر .. فما عاد يملك من أمر نفسه شيئاً .. ؟

الصورة وإن كانت قاتمة إلى حد كبير .. إلا أنها مزجت بين مختلف الظلال والألوان .. وجاءت صدى لنفس محبة ثائرة ، قلقة ، قد فتنت بجمال الوجه ، وحسن القد ، ورشاقة البنيان ، كما فتنت بكمال العقل ، وروعة الفكر ، وسمو القلب ، وحب المعرفة .. وهى جميعها مفاتن يتوزع بينها الشاعر ، فلا يجد له مستقراً ، ولا يعرف له طريقا واحداً لا يميل

عنه .. وأنى له أن يهدأ أو يسكن من كان قلبه على الدوام ثائراً ، وعقله متوهجا متأججاً ، وهو حائر ما بين حسه المستثار ، وقلبه الخافق ، ومشاعره القلقة المتوترة .. ولعله إذ صور ذلك كله فى تلك القصيدة ، أحس بشىء من الهدوء والاستقرار .. ولكن إلى حين .. !



قد خاض المازنى فى مختلف الأغراض الأخرى ، فله أشعار فى الرثاء ، وله قصيدة «تحية البطل» حيًّا فيها سعد زغلول بعد عودته من منفاه ، وله قصائد عديدة تبادلها مع العقاد وشكرى وغيرهما .. وغير ذلك كثير وكثير مما نكتفى بالاشارة إليه .



وإذا كان لنا من كلمة أخيرة نقولها لنختم بها هذا الفصل ، فإننا نقول أننا صاحبنا المازنى طواله شاعراً أوتى قوة البصيرة ، وصدق النظر ، ورقة الشعور ، وعمق الاحساس ، وصادق الموهبة ، وبراعة الصياغة ، ودقة النظم ، وسعة الأفق ، وانفساح مدارج الخيال ، مع ثراء فى المعانى ، وتدفق فى الابداع .. كل ذلك إلى جانب ثقافة عميقة أحاطت بالآداب قديمها وحديثها ، سواء عند العرب أو عند الغرب الناطق بالانجليزية ، مع فهم عميق لرسالة الأدب بصفة عامة ، ولرسالة

الشعر بصفة خاصة ، حتى لقد صاغ نظراته ودراساته عن الشعر والشعراء ، فى رسائل وصفت بالتعمق .. كما كانت تميل دائما إلى الانصاف إلا فى بعض الأحوال .. وما كان الميل عن الانصاف إلا اندفاعا وراء عواطف ثائرة ، وأفكار شابة جديدة متجددة .. وقد كان هو نفسه الذى عاد – فى فترة تالية – لينصف من ظلم ، بل ولينتصف له من نفسه ..

هذه الطاقة الشعرية الملهمة والمبدعة .. لم تتح لها الظروف أن تهدى كل ما عندها .. بل ما كادت تعطى أول قطاف ثمارها ، وما كاد المتلقون يسعدون بمذاق تلك الثمار حتى انصرفت عن الشعر – أو على الأصح حتى صرفت عنه مضطرة ، وودعته على غير إرادتها – ومع ذلك فما تأسى المازنى على ما فاته ، بل انطلق فى عالم النثر يبدع ويهدى روائع وإن كتبت نثراً إلا أنها كانت بقلم شاعر ، وكأن ملاك الشعر – لا شيطانه – يحرسها ، ويلهمها من الشعر روحه وجماله .

★★★

الفصل الثالث

المازنى .. وعالمه النثرى

١ - المازنى .. ناثراً :

فى مقدمة كتابه : «حصاد الهشيم» كتب المازنى يقول :

«أيها القارىء :

هذه مقالات مختلفة فى مواضع شتى كتبت فى أوقات متفاوتة ، وفى أحوال وصروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح .. ولست أدعى لنفسى فيها شيئاً من العمق أو الابتكار أو السداد ، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلابا فكريا فى مصر ، أو فيما هو دونها ولكنى أقسم أنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجاً ، وثمرة اطلاعى وهو واسع ، ومجهود أعصابى وهى سقيمة بأبخس الأثمان .. !» .

«أما أنا ، فمن يرد إلى ما انفقت فيه ؟ من يعيد لى ما سلخت فى كتابته من ساعات العمر الذى لا يرجع منه فائت ، ولا يتجدد كالشجر ، ويعود أخضر بعد اذ كان أصفر ، ولا يرقع كالثياب أو يرفى ؟» .

«وفى الكتاب عيب هو الوضوح فاعرفه ! وستقرؤه بلا نصب ،

وتفهمه بلا عناء ثم يخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل ، وأنك لم تزد به علماً ! فرجائى إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك ، وأن الحال على نقيض ذلك !» .

وهذه الكلمات تحمل تاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

– وفى مقدمة كتابه «قبض الريح» يردد كلمات سليمان الحكيم « أنا الجامعة .. كنت ملكاً على اسرائيل فى آورشليم ، ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السماوات .. فإذا الكل باطل ، وقبض الريح ..

ثم يقول ·

«وأنا أيضاً كالجامعة وجهت قلبى إلى المعرفة ، وامتحنت نفسى بالسؤال ، وعللت روحى بالتفتيش – بنيت لنفسى (آمالا) ، غرست لنفسى (أوهاماً) ، عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها (أحلاماً) ، من كل نوع ثمر .. وهذا كان نصيبى من تعبى .. قبض الريح» .

«واستنفد العناء مجهودى كما تنفد السحابة أراقت ماء ها على الأرض . وكل بما عنده يجود ! زرعت حصى فى أرض صفوان وهذا حصادى ، وقبضت الريح من كل تعبى تحت الشمس ، وهأنذا أؤديها إلى القارىء ، وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المدل ! وقد خرجت كما سيخرج القارىء ، وكما سنخرج جميعاً من هذه الدنيا ، وليس فى يدى شىء» .

سطور تتفق فى مجملها على معان لا يفتأ المازنى يرددها : فحب المعرفة ، والجهد المتصل لتحصيلها ، وبذل حصيلتها فى سخاء وأريحية للقارىء .. تلك جميعها هى السمات البارزة فى حياته ، والطريق الذى انتهجه أداء لرسالته أديباً ومفكراً ومبدعاً ..

والمازنى - كما ذكرنا - قد ابتدأ حياته شاعراً نذر نفسه لعالم الشعر ، مؤصلاً لمنهج جديد فى الشعر الصادق النابع من أعماق النفس ثم مبدعاً فى نفس الوقت لأشعار لم تجد حتى اليوم من يبرزها ، ويوفيها حقها ، ويكشف عما انطوت عليه - وضمته - من كنوز وذخائر .. نقول ذلك وتحت ناظرينا الدراسات الأصيلة التى أشرنا إليها والتى دارت حول أشعار المازنى .. وإن كنا أعلينا من شأن تلك الدراسات إلا أننا ما زلنا نرى أن ابداع المازنى الشعرى مازال فى حاجة لجهود أخرى تبذل .. وأنه لجدير بالعديد والعديد من الدراسات التى تتناوله من مختلف جوانبه الثرية الموحية .

وإذ ترك المازنى الوظائف واتجه إلى الصحافة ، فقد تغير مساره ، بعد أن تفرغ لقلمه كاتباً ومفكراً ، متخذاً من الصحافة مجالا لنشر ثمار فكره ، ليختار مما ينشر - من بعد - فصولا تضمها بعض كتبه .. وهنا نلقى المازنى - الكاتب المتميز - بعد أن لقينا المازنى الشاعر المبدع ..

وفى مجال الكتابة المنطلقة ذهب المازنى مذاهب شتى ، وقد كانت ثقافته العميقة تمده بزاد لا ينفد من الأفكار ، وكان عقله الوثاب يفتح أمامه مجالات للكتابة جديدة غير مسبوقة ، وكانت نظراته العميقة ، وما فطر عليه من حب للتأمل وميل للتعمق يضفيان على ما يكتب أصالة وعمقا وتجدداً ، وأخيراً - بل أولا - كانت مواهبه الأصيلة تدفعه لمزيد من الابداع ، وتضفى على ما يقدم لقرائه جاذبية شديدة ، بما أوتى من رقة العبارة ، ودقة التعبير ، مع نزعة أصيلة إلى السخرية الحانية التى وصفت بأنها سخرية تنبه دون أن تجرح ، وتدل على مواضع النقص والعيب فى سماحة ولطف دون أن تؤذى أو تفضح .

ونريد الآن أن نتحدث عن المازنى الناثر .. أو عن «ابراهيم الكاتب» - مستعيرين منه عنوان أشهر رواياته - وإننا لنجد أنفسنا فى حيرة : فمن أين تكون نقطة البداية ؟ وعن أى الجوانب نتحدث ؟ وهل ترك من سبقونا مجالا يمكن لنا أن نتحدث فيه عن المازنى بعد أن كتب عنه كل من سبقونا من كتاب وباحثين .. ؟

ونبدأ بالسؤال الأخير ، فنقول : بل بقى الكثير والكثير .. ومهما كتبنا - وكتب غيرنا ممن سبقونا إلى الكتابة عن المازنى ، بل وممن سوف يلحقون بركبه دارسين - فسوف يظل مجال الكتابة عنه ثرياً خصبا يجد فيه كل كاتب بغيته يستلهم المازنى حياة وفكراً ، أو يعرض

لدراسته ، مادحاً أو قادحاً .. على أن نتذكر دائما هذه الفقرة التى صاغها المازنى برشاقة فى تقديمه لكتابه . حصاد الهشيم مخاطبا قارىء الكتاب :

«واعلم أنه لا يعنينى رأيك فيه . نعم ، يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثنى على بنيه ، ولكنه لا يسوؤنى أن تبسط لسانك فيه إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخِذه منك . وما أخلقنى بأن أضحك من العابثين ، وأن أخرج لهم لسانى إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كانت تحت أنوفهم .. !» .

وبعد

فكيف يسير بنا الحديث فى هذا الفصل وقد أوقعنا المازنى فى حيرة بتعدد ما ارتاد من مجالات ، وبكثرة ما اتصفت به كتاباته من مميز السمات ، وبوفرة ما خلف من آثار مبعثرة إن أمكن الاهتداء إلى بعضها ، فما تزال الكثرة منها مطوية فى بطون صحف يتعذر الوصول إليها ، فضلا عن حصرها ونشرها .. ؟

ليس أمامنا سوى الاختيار والاجتزاء .. فما نزعم أن لدينا الطاقة - أو المقدرة - لتناول ذلك كله .. بل ما نزعم أننا فيما سوف نختاره من مواضيع سيكون فى وسعنا أن نوفيها كامل حقها أو نتناولها من مختلف جوانبها ..

ومن هنا سوف يمضى حديثنا متناولاً المازنى فى عالمه النثرى على النحو التالى ·

- فى عالم الرواية .
- فى عالم القصة القصيرة .
- فى عالم الصور القلمية .
- فى عالم الأدب .. إبداعا ونقدا .
- فى عالم السياسة والمجتمع والصحافة .

على أن نقدم لذلك بكلمة عن أسلوبه ، وسمات كتاباته ..

وما نحسب أننا بذلك سوف نوفى المازنى حقه .. فليقبل محبوه اعتذارنا سلفاً عن تقصيرنا فى حق كاتبنا المبدع .

٢ - المازنى .. كاتباً متميزاً :

عرفته الصحافة أول ما عرفته شاعراً مبدعاً ، كما عرفته صاحب دعوة جديدة فى الشعر ، يوجه نقده اللاذع إلى شعراء عصره ، وقد خص منهم كبيراً ذا شهرة عريضة بين شعراء مصر هو : حافظ ابراهيم ، ثم عرفته الصحافة كاتباً يوافيها فى بعض الأحيان بمقالات عن بعض النواحى الأدبية ، فتبادر إلى نشرها . ثم عرفته بعد كاتباً متفرغاً لها ينشر فيها مقالاته ، بل ويتولى إصدار بعضها ورئاسة تحرير بعضها الآخر ، ومن ثم تعددت مجالات كتاباته ، فما كان له أن يقصرها على الأدب - شعراً ونثراً ، بل كان عليه أن يتناول مختلف الشئون ، ويرتاد العديد من المجالات السياسية والاجتماعية .

ولا شك أن الصحافة كان لها تأثيرها - ليس على أسلوب المازنى - وإنما فى اختياره لمفرداته اللغوية التى يستعملها للتعبير عن أفكاره وآرائه .. نعم .. فقد غيرته الصحافة ، أو غير هو من أسلوبه ليتلاءم مع وسيلة النشر : صحفاً أو مجلات ، لا تقتصر قراء تها على الخاصة ، وإنما تصل إلى مختلف الأوساط ، ولابد لمن يريد أن يصل خطابه إلى جميع القراء أن يختار العبارة الميسرة ، والألفاظ الشائعة ، ويتحاشى كل ما هو مهجور غير مطروق سواء فى تركيب الجمل أو فى اختيار اللفظ .

وليس معنى ذلك أن المازنى كان لا يتحرى الجمال فى صياغة مقالاته ، أو كان يهبط إلى مستوى العامية ، أو لا يحرص على سلامة اللغة .. بل استطاع فى يسر وبساطه أن يصل إلى حل هذه المشكلة بأن يوازن بين الحفاظ على جمال اللغة - التى وصفت بأنها اللغه الشاعرة - وبين مراعاته مستوى القراء من مختلف الأوساط .[1]

وقد نجح المازنى فى هذه الموازنة نجاحاً غير مسبوق ، ولعل لطبيعته السمحة السخية أثرها فى هذا النجاح ، فقد راح يصوغ مقالاته فى أسلوب سلس ورقيق ، وإن ظل متسامياً إلى الجمال ، محافظاً على روعة التعبير ..

---

(١) هذا هو وصف الاستاذ العقاد للغة العربية وهو فى ذات الوقت عنوان لأحد مؤلفاته الذى اختار له «اللغة الشاعرة» عنوانا وموضوعا .

وكان حرصه الأكبر - فضلاً عن سلامة التعبير ، وروعة الصياغة - على تحرى الوضوح فى الابانة عما يريد قوله ، والإفصاح فى بساطة عن المعانى التى يطرحها على قارئه .. فهو لا يعرف الغموض أو الابهام، ولا يلجأ إلى الرمز والالغاز ، بل يعمد إلى التعبير المباشر ، والقول الصريح . وما كثرة الجمل الاعتراضية فى أسلوبه الا لهذا الحرص على زيادة الايضاح ، وعلى تحاشى أدنى احتمال للخلط أو للخطأ .

وقد قيل بأنه كثيراً ما يستطرد في حديثه ، ويتنقل من موضوع إلى موضوع ، وهو قول يحتمل عدة أوجه ، منها ما قد يحمل على محمل سيىء ، الا أننا نرى - وبحق - أن هذا الاستطراد ما هو إلا احدي مزايا المازنى - ولا يمكن اعتباره من معايب أسلوبه - فهو فى كل ما يكتب لا يحيد عما يقصد اليه ، ولا ينسى أبداً الغاية التى ينشدها ، وما الاستطراد عنده الا رغبة منه فى استيفاء مختلف جوانب الموضوع الذى يتناوله .. وهو - بعد - يعتبر القارىء صديقه ، وما يعيب حديث الصديق أن يتوقف فى بعض المواضع ، ليروى قصة عارضة ، أو رأياً خطر له ، فلم يشأ أن يتركه يفلت منه - أو من صديقه - ليعود بعد إلى ما بدأ به حديثه . ثم أن ذلك هو نهجه ، الذى تميز به ، والذى كان - ولا شك - من الدواعى التى ربطت بينه وبين قرائه برباط وثيق .

بل إن هذا الاستطراد كثيراً ما كان يعنى شيئاً آخر ، ربما كان يعنى استقصاء الموضوع استقصاء كاملاً ، بحيث يوفيه حقه من البسط

فى القول ، والدقة فى التصوير بما لا يدع مجالاً لزيادة مستزيد ، وكأنى به يضع نفسه موضع قارئه ، فيتطوع سلفاً بالاجابة عن كل ما قد يثيره القول من أسئلة ، أو يتطلبه من زيادة بيان ، فلا ينتظر حتى يصله السؤال ، بل يبادر إلى الجواب ، وكأنه يحس أن حق قارئه عليه أن يصل اليه المعنى كاملاً ، واضحاً ، بسيطاً وسهلاً .. ولن تجد استطراداته الا متصلة بالموضوع بسبب أو بآخر .. !

والمازنى بعد يتبسط فى أحاديثه ، ويكثر من مخاطبة قارئه ، وكثيراً ما يختار مفردات يخيل إلى قارئها أنها من «العامية» وهى فى حقيقتها من اللغة الفصحى وإن لم يدرك ذلك كثيرون ، ويندر أن يستعمل لفظا عامياً صرفاً ، وإن لم يجد عن ذلك معدى ، وضعه بين قوسين ..

وهو كذلك يميل إلى أن يصور الواقع فى صدق ، ويضفى عليه من الظلال والألوان ما يجعل منه صورة حية ناطقة حتى ليخيل إلى قارئه أن صدى الضحكات يصك سمعه ، وأن ما يصوره يمثل أمامه نابضاً بالحياه ، فياضاً بالحركة ..

وكثيرا ما يلجأ إلى لغة الحوار .. فلا يجمل الرواية ، وانما يفصلها تاركاً لكل طرف من أطرافها أن ينطق بالرأى ، أو يأتى بالجواب ، ولا يتدخل المازنى الا فى نهاية الحوار ليستخلص شاهده ، أو يشير إلى وجه استشهاده ..

وهو كثير الاشارة إلي آراء الآخرين من المفكرين وذوى الرأى سواء من كتاب الغرب أو العرب ، ولكنه لا يأخذ بهذه الآراء دون مناقشتها ، والتعليق عليها ، وإثبات موقفه منها .. وذلك كله على نحو يدل على سعة اطلاعه ، وتنوع وتعمق معارفه .. وكأنه يريد أن يرتقى بقارئه ليبلغ مبلغه علماً وتحصيلا ، ونشدان جمال .

وهو - بعد - يميل إلى الموضوعية ، ويساند أفكاره وآراءه بالعديد من الأدلة ، وكأنه لا يريد أن يترك قارئه إلا وقد أقنعه بما يذهب إليه .. وموضوعيته هو الموضوعية الواقعية ، ومن هنا نجد كثرة ما يورده فى مقالاته من روايات لحوادث يعرفها أو وقعت له يصورها على نحو رائق وبسيط ، بل وكثيراً ما يستشهد بما وقع له من أحداث ، وما مر به من تجارب ، وكأنه يود أن يدخل بقارئه إلى عالمه ، يطلعه على أسراره ، ويكشف له عن أعماق نفسه ، وطوايا قلبه .. كل ذلك فى بساطة آسرة ..

غير أن الملاحظ أن هذا النهج الواقعى لم يكن هو أسلوبه فى مرحلته الأولى التى كان يمارس فيها الكتابة هاوياً غير محترف .. إنما هو قد تطور - وطور نهجه - مع اشتغاله بالصحافة ، وتفرغه لها ، فكان لذلك تأثيره فى أدبه ، وانتاجه ، بل وفى نهجه فى الحياة بصفة عامة .. وقد حرص هو نفسه على أن يتحدث عن هذا التطور فى انتاجه ونهجه فكتب يقول :

«.. كــان أدبى نظريا بحـتـاً ، أو قل أنه الأدب الذى يعـتـمـد على الكتب ، ولا يستمد من الحياة إلا قليلا ، لأن صاحبه لا يعانيها معاناة وافية . وكنت أقول الشعر أيضا فى ذلك الزمان . وأرى الآن أن ما قلت لم يكن سوى توليد من القديم كنت أحسبه جديداً لأنه لم يكن مظهراً لاستجابة النفس لما يهيب بها من الحياة إذ تواقعها . وكنت متكلفاً فى أسلوب الشعر والنثر جميعاً لأنى أعيش بين الكتب ولا أكاد أعرف سواها إلا ظناً على الأكثر . ولهذا كان أدبى فى ذلك العهد دراسات فى الأغلب ، قوامها القراءة وحدها تقريبا ، وشعراً لا يصور النفس على حقيقتها ، ولا يعبر عنها تعبيراً صحيحا لأن الاقتباس فيها بالقديم – من شرقى وغربى – أكثر من الاستمداد من التجريب . وكنت بطيئا فى الكتابة والنظم ، معنيا بالتجديد كما كنت أفهمه ، وكنت مع عنايتى بالمعنى لا أرضى عما ترضى عنه أذنى حين أعرضه عليها ..» .

ويقول فى موضع آخر «لم أكن راضياً عن الأسلوب الذى تكتب به الصحف ولكن عدم الرضا عن لغة الصحافة لا يستوجب أن أذهب إلى الطرف الآخر . وفى الامكان التوسط وتبينت على الأيام أن لغتى القديمة فاترة أو خامدة ، وأنى كأى قطعة متخلفة من زمان مضى ، وأن الحياة الجديدة لها لغتها ، وأن اتصالى بحياة الناس بفضل الصحافة قد فجر فى نفسى ينابيع جديدة ، وأكسب أسلوبى نبضاً ليس من الوجع ، بل

من الحيوية ، وأفدت مرونة كانت تنقصنى أنا ، وتنقص لغتى وأسلوبى . وأصبحت قادراً بفضل الصحافة أن أكتب فى أى وقت وفى أى موضوع، وفى خلوة أو بين الناس ، وأن أحصر ذهنى فيما أنا فيه ، فلا تشتت خواطرى الضجات التى كانت حولى ..» . (١)

٣ - المازنى .. ساخرا :

وثمة سمة أخرى ميزت المازنى أسلوب كتابة ، ومنهج تعبير ، وهى تلك النزعة إلى السخرية التى كثيرا ما تغلف كتاباته .. وهى - فى الواقع - نزعة تسمو بالسخرية إلى أعلى مراتبها .. فهى سخرية لا تسىء إلى أحد وإن أضحكت القارىء ، أو على الأقل ساهمت فى التسرية عنه .. وربما كان ذلك من أهداف المازنى .. وهو نفسه قد كشف عن هذه النزعة ، وحاول أن يجلى أسرارها فى إحدى مقالاته قال :

«وأنا فى العادة أوثر الاحتشام أمام الناس ، ولكنى حين أكون بين إخوانى وخلصائى أطلق لنفسى العنان ، ولا أبالى ما أقوله أو أفعله ما دمت أريد أن أقوله أو أفعله . ولو وسعنى أن أملأ الدنيا سروراً أو اغتباطا لفعلت ، فإنى عظيم الرثاء للخلق ، وأحسب أن هذا تعليل ميلى

---

(١) د . نعمات أحمد فؤاد - المرجع سالف الذكر - ص ١٩٠ - ١٩١ نقلا عن العدد الخامس من السنة الأولى من مجلة الكاتب مارس ١٩٤٦ - ص ٦١٨ .

للفكاهة . فانى أتسلى بها وأنشد أن أدخل السرور على قلوب الناس لاعتقادى أن عند كل منهم ما يكفيه من دواعى الأسى ، وما دام فى الوسع أن نعرض عليهم الناحية المشرقة الضاحكة ، فلماذا نغمهم ونحزنهم ؟؟ ثم أن للفكاهة مزية أخرى هى أنها أقوى ما أعان على احتمال الحياة ومعاناة تكاليفها ، والنهوض بأعبائها الثقال . فهى ليست هزلاً ولا تسلية فارغة ، وإنما هى تربية للنفس ، والرجل الذى يلقى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم - لا الأبله الغافل - خير وأصلح ألف مرة من الذى لا يزال يدير عينيه فى جوانبها الحالكة ، ويندب ويبكى ويعول . ولو نفع السخط والغضب والبكاء لقلنا . حسن ، فلماذا لا ننظر إلى الجانب الوضاء ؟ أو لماذا نعمى عنه وهو موجود ، أى لماذا نفقد القدرة على الاحتفاظ بالاتزان ، أو صحة الوزن للأمور .. ؟؟» .(١)

وللسخرية - أو للفكاهة عند المازنى صور عديدة ، فقد تأتى فى الجملة العارضة ، أو فى الوصف العابر ، أو فى التعبير الموحى ، أو فى الصورة الناطقة ، أو فى المضمون الساخر ..

ولعل من الصور الجامعة لسخريته أو - ميله إلى الفكاهة - والكاشفة عن سماتها الهادئة السمحة .. هاتان الفقرتان اللتان يتحدث عن لقائه - وزوجه - مع الشيخة صباح :

---

(١) أخبار اليوم : ١٩٤٩/٩/١٧ .

«فقد كانت الشيخة صباح ، على الرغم من (التمشيخ) غيداء ، حسناء ، مبتلة ورطبة حلوة ، يجرى ماء الشباب فى محياها من نضرة النعمة ، ولو طبع وجهها على (جنيه) لزانته وأغلته ، وكان شعرها الفاحم السبط ، والورد الذي تتضرج به وجنتاها من آيات صنع الله ، تبارك وتعالى من خلاق عظيم ، أما عينها النجلاء الرقيقة الجفن (الجنية) الانســـــان ، فـأنفـذ من أشـعـة (اكس) إلى حنايا الصـدور ، وطوايا القلوب» .

«وقلت · اذا كنت تشعرين أنك لن تطيقى الحياة الا اذا حملتك إلى ذلك البيت الضيق لأختنق ساعة بالبخور المنطلق من المجامر حتى تتفضل فتبرز لك ، وتمن عليك بإنبائك - وأنا من الشاهدين : أن (أمامك سفراً ...) ، فصاحت بى مقاطعة . اسكت ، وحذار أن تذكرها بغير الخير .. فسكت ، وما حيلتى؟» .

«ورفع السجف ، ودخلت علينا الشيخة صباح مسترسلة الأعطاف ، ناعمة ، غير مثنية على لينها ، كأنها ملكة . وكانت ترتدى ثوباً أبيض من الكتان ، وتغطى رأسها بشفٍّ ينسدل على وجهها إلى كتفيها وصدرها الناهد ، ويحجب جيدها الأتلع ويدور على ذقنها إلى قريب من ثغرها الدقيق الرفاف الشفتين الذى ما خلق إلا للقبلات الحرار ، لا لما يلهج به ، واستغفر الله ..»

وقبّلت زوجتى ، ومدت إلى يداً رخصة هممت أن أبوسها بطنا وظهراً

لولا هذه الزوجة التى لا تزال تظلمنى بسوء ظنها .. ولما دارت القهوة ، نظرت إلىّ وقالت : أرنى كفيك .. ابسطهما . ولستهما لمساً خفيفاً ثم ارسلتهما ، وأطرقت شيئاً ثم رفعت رأسها وحدقت فىَّ دون أن تطرف وقالت · ستعطى ما لم تطلب ،. وتؤتى ما لا يباع ولا يشتري ، وتسلبه فى اليوم نفسه . فرفعت عينى إلى السماء – أو إلى السقف – ولمحت زوجتى وقد أخذ كتفاها يهتزان من الضحك المكتوم . ومضت الشيخة صباح فى نبوءتها غير عابئة بنا . (.. وسينضى عنك ثوب الرجولة .. إلى حين يا صاحبى) ، ونحَّت وجهها عنى . وقالت وهى تودعنا : أحسبنى لم أخاطب منك سوى أذنيك ، فإنى أحس أن قلبك بعيد .. فأكدت لها أنه مازال فى موضعه تحت الضلع العاشر ، أم تراه الخامس عشر ؟ معذرة ، فلست أعرف عدد هذه الضلوع . فجذبتنى امرأتى من ذراعى ، ثم دفعتنى خارجاً ، وسمعتها تقول للشيخة صباح : إنه يمزح .. فلا تغضبى عليه . فقرضت أسنانى ولم أقل شيئا » .(١)

صورة تفيض بالفكاهة – والسخرية – فى آن واحد .. تشيع فى النفس راحة ، وتبعث فيها بهجة وسراراً ، وهى – مع ذلك – تمضى بك هينة لينة ، وتنقلك إلى موضع الأحداث ، وتكاد تنقل إليك ليس فقط ما دار من أحاديث وما جرى من أحداث ، بل وتنقل اليك أيضاً ما تردد من أنفاس ، بل وما اعتلج به الصدر من شعور وإحساس ..! .

---

(١) من مفتتح روايته «عود على بدء» .

وقد كتب كثيرون عن هذه السخرية. وتساءلوا: ما مصدرها؟ وماغايتها؟ وهل هى نابعة عن نزعة استخفاف بالحياة، واستهانة بالآلام؟ أم أنها تنفيس عن صدر مكلوم، ونفس ضيقة، وكأنها رد الفعل لحزن عميق .. وفى كل ذلك فقد تجاهل الجميع ما قاله المازنى نفسه فيما نقلناه عنه من أنه إنما يتسلى بها وينشد منها أن يدخل السرور على قلوب الناس لاعتقاده أن عند كل منهم من دواعى الأسى ما يكفيه.

ونضيف أنها صدى لطبيعته، وتعبير عن تحرره مما كان يقيد به نفسه من قيود، انطلق بعدها على سجيته، يتحدث، ويحدث، ويكتب، ويكشف عن أعماق نفسه بل ويسخر حتى من المازنى نفسه ومن مواطن الضعف فيه.

ومع ذلك، فهو لم يتخل أبدا عن نزعة الصدق التى تسم كل سطور كتاباته.

وتتجلى هذه النزعة الساخرة أوضح ما تتجلى فى عناوين مؤلفاته، وفيما يصدرها به من اهداءات، أو مقدمات.

إن أول ما صدر من كتب ضمت مقالات المازنى وأبحاثه متعددة الأغراض كان كتابه: «حصاد الهشيم» فانظر معى ماذا يحصد الواحد منا من الهشيم الذى تذروه الرياح؟ إن الكاتب هنا ليسخر من كل جهده، وكل مقالاته التى جمعها فى كتابه..

وبالمثل كان اختياره لعنوان كتابه الآخر: «قبض الريح».. فكيف وأنىَّ للمرء أن يقبض الريح، أو يمسك به؟ وربما كان مقصده أن مقالاته التى تضمنها كتابه كانت ريحا عاصفة عصفت بمن تناولته.. ولكنها مع ذلك مضت، وانقضى أمرها دون أن تخلف أثرا سيئا، وإن ظلت تمثل أثرا فريدا فى النقد الساخر!

وإذا كان قد أطلق على روايته الأولى اسم «ابراهيم الكاتب» بما قد يلفتنا الى الصفة الأولى التى تميزه عمن سواه، وهى انشغاله بالكتابة، وهى فى ذات الوقت تذكرنا بسلفه: عبد الحميد الكاتب الذى كانت الكتابة حرفته وشهرته - فقد صدّر كتابه بإهداء فى غاية الطرافة، فقد أهداه:

«إلى التى لها أحيا، وفى سبيلها أسعى، وبها وحدها أعنى طائعا أو كارها.. إلى نفسى».

ثم اتبع ذلك - بعد فترة طويلة جاوزت العشرين عاما - برواية تستكمل مسيرة ابراهيم الكاتب، وكان حريصا أشدّ الحرص على أن يلفت نظر قارئه - منذ مطالعته للعنوان - إلى أنه بصدد حديث عن حاضر يتصل بماضى «الكاتب»، فإذا به يطلق على روايته «الجديدة» عنوان: «ابراهيم الثانى» ويزيد الأمر إيضاحا فيقول: ابراهيم الثانى هو «ابراهيم الكاتب» أو كانه على أصح القولين، ثم تغير جدا، فلو أمكن أن

يلتقى الابراهيمان لاحتاجا إلى من يقوم بينهما بواجب التعريف».. وإذا كانت مدار الأحداث فى الرواية الثانية هى الزوجة وهى تدعى فى الرواية «تحية» - فقد حرص على أن يكون الإهداء إلى.

«إلى كل (تحية) يشقى صبرها ببعلها.. أحيانا».

ومن هنا نجد السخرية الهادئة هى سمته سواء فى اختيار عناوين كتبه أو مايصدرها به من اهداءات أو مقدمات.. وهو نفس النهج الذى اختاره لكتابه «خيوط العنكبوت» وهو يضم مجموعة من القصص والصور فى قسمين، صور من «الأمس» وأخرى من «اليوم». وأول ما يلفت النظر فيه هو هذا العنوان «خيوط العنكبوت» التى وصفها المولى العلى بأنها أوهن البيوت - أو الخيوط - فانظر ايحاء هذا العنوان وطرافته، وإقرأ معى هذا الإهداء:

«إلى ابنىَّ الصغيرين رضا عبدالقادر المازنى الذى أوفى على السادسة، وعبدالحميد عبدالقادر المازنى الذى شارف الرابعة: اعترافا بفضلهما علىَّ، وشكرا لمعونتهما لى، فلولا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين».

وكذلك جاء ت عناوين كتبه الأخرى: صندوق الدنيا - ع الماشى - فى الطريق - من النافذة - عود على بدء - ثلاثة رجال وامرأة (ولعله أول من استعمل الرقم العددى عنوانا لقصته) .. إلخ.

ولنا أن نرى أن سخريته هـى - بصفة عامة - سخرية تشعر قارئها بأنها صـادرة عن طبيعـة مرحـة، وعن نفس سـمحـة، لاتنطوى على أى افتـعال، ولاتحـمل سـمة «الصناعـة» أو «التلفيق» أو الرغبـة فى أن يبدو الكاتب ساخرا ظريفـا وهو فى الحقيقة لم يؤت ملكة السخرية.. فالواقع أن سخرية المازنى إنما هـى صورة من نفسه، وتصوير لطبيعته، وتعبير عن طبعه وأسلوبه، تصدر عنه فى يسر وبساطة وتدفق، وكأنه يؤكد فى كل حرف يكتبه: هكذا خلقت، وما أعطى الا ما عندى، وما أحاول - فيما أكتب - أن أصنع قولا أو اصطنع أسلوبا، أو افتعل تعبيرا، بل وأننى لأوثر أن أتحدث اليكم كما يأتى الحديث: عفو الخاطر، فإن أعجبكم وأرضاكم، فإن هذا لمـا يسعدنى ويدخل السرور على نفسى، ويشيع الغـبطة والفـرحـة فى أنحـائهـا.. وأن أغـضـبكم - أو لم يرضكم - فـأصـارحكم القـول: بأن هذا هو كل مـاعندى، ومـاجـادت به قـريحـتى، وخيركم من جاد بما عنده كما يقول المثل الشائع.

وقد لفت نظرنا - فيما يتصل بسخرية المازنى - تلك الفصول التى كتبـهـا باحـثون مـجدون، وكُتَّاب أفـاضل عن هـذا الجـانب من جـوانب المازنى، حيث ضمنوها نتائج أبحـاثهم، وخلاصة آرائهم التى أقاموها على ما مـهدوا به من أسباب، ومقـدمات، ودراسة للوسط الاجتماعى، وللأصول التاريخية، وللعوامل الوراثية.. الى آخر ما هنالك من مقومات للأبحاث، وأسس علمية ينبغى أن تقوم عليها الدراسات الجادة..

ولست أدرى لم وجدت نفسى منصرفا عن هذه الأبحاث، غير، حريص على أن أحيط بها إحاطة دارس متعمق، واذا كنت أقر واعترف اننى كنت مجانبا للصواب فى هذا المسلك، الا أننى أود أن اعترف بين يدى القارىء أن دافعي إلى ذلك هو ايمانى بأن سخرية المازنى إنما هى طبع لا تطبع، وإنها سمة أصيلة، لا صفة مكتسبة، شأنها شأن سائر الظواهر الطبيعية التى تقف الدراسة بشأنها عند مجرد الرصد والتسجيل، لأنها حقائق «كونية» تدور الدراسة حولها كظاهرة قائمة لها آثارها ونتائجها.

فالمازنى الساخر.. وإن كان قد نمى موهبته بالدراسة والاطلاع، وصقلها بمداومة الكتابة والإبداع.. إلا أن جذور السخرية عنده هى طبع أصيل، تبدو ملامحه فى كتاباته الأولى، كما تبدو فى كتاباته الأخيرة، بل وحتى فى كتاباته الحزينة.. فإن بعض ملامح السخرية تتغلب على نزعة الحزن، ونوازع الألم.. ومن هنا فإن أصدق ما يكتب عن المازنى – عندنا – هو ما يصدر عن محاولة لفهم طبيعة المازنى الساخرة بأبعادها الحقيقية التى تعلو على الصناعة، وتصدر بريئة من الافتعال!.

ومن هنا كان المازنى متميزا بين معاصريه، يختلف عنهم فكرا، وأسلوبا، ومنهاجا، حتى من شاركاه مدرسة الديوان، فلم يكن المازنى صورة لأى منهما، وإن اتفق معهما فى بعض الآراء. فقد كانت للمازنى شخصيته المتميزة، وكان له أسلوبه المتفرد، ورأيه المازنى الأصيل..

وكان فى كل ما يكتب نسيج وحده، ولم يكن فى وقت ما صدى لسواه، وعلى ذلك كانت له مكانته الخاصة التى احتلها بين رفاق مسيرته، والتى سيظل يحتلها على مر العصور.



٤ - المازنى .. وعالم الرواية:

كان المازنى من رواد كُتَّاب الرواية فى مصر.. وقد أبدع فى عالم الرواية أكثر من أثر.. غير أن ابداعاته جميعها لم تحظ بما هى جديرة به من الدراسة والعرض فيما عدا روايته «ابراهيم الكاتب» فهى وحدها التى نالت شهرة كبيرة، وتعددت كتابات الدارسين عنها، وقرنوا دائما دراستها بدراسة بدايات ظهور الرواية المصرية، ومن ثم فهم يجمعون بين كتب ثلاثة هى: زينب للدكتور محمد حسين هيكل، والأيام لطه حسين، وابراهيم الكاتب للمازنى، ويشيرون إلى هذه الأعمال الثلاثة على أنها تمثل المحاولات الأولى - التى اكتملت عناصرها الفنية إلى حد كبير - فى إبداع الرواية المصرية، والتى كانت بمثابة الأعمال الرائدة، والتى شقت الطريق لمبدعين كبار فى عالم الرواية والقصة.

ونحن إذ نقر لأصحاب هذه الأعمال بالريادة، فإننا لا ننكر بالطبع جهود من سبقوهم وإن جاء ت أعمالهم أقل فنية، ومن ثم لم يكتب لها البقاء والانتشار حتى ليتعذر على الباحث أن يتاح له الاطلاع على معظمها، ومن ثم فإنه يكتفى بالتعرف عليها من كتابات بعض السابقين الذين أشاروا إليها..

وروايات المازنى - كسائر كتاباته - هى صورة منه، أو هى فى الواقع حديث نفسه الى نفسه، أو الى قارئه الذى يعتبره بعض نفسه، فهى بسيطة ، يسيرة، لاتميل الى تعقيد الأحداث، أو افتعال الواقعات، بل تقف روايتها عند ما هو مألوف ومعروف دون ميل الى الشذوذ أو الأغراب، حتى ليظن قارئها انه كان فى وسعه أن يكتب مثلها، وهذا فى حد ذاته هو الدليل على أنها تأتى قريبة من نفس القارىء، بالغة التأثير، حتى ليرى فيها صورة من حياته، أو على الأقل مما يعرف من حياة.

ولعل مصدر ذلك أن معظم هذه الروايات إنما كان وحيا مستمدا من حياة المازنى نفسه، وما مر به من أحداث، حتى ليختلط الأمر فى كثير من الأحيان، فلا ندرى ما إذا كان الكاتب يتحدث عن نفسه حديثا ذاتيا أم أنه يقدم عملا فنيا: رواية تستوحى حياته الشخصية بعض أحداثها.. على أن القارىء - أيا ما كان الرأى - يظل طوال صفحات الرواية مرتبطا بكاتبها، وكأنهما رفيقان يمضيان سويا فى طريق واحد، وأولهما يمضى فى حديثه الشيق، والصريح أيضا، يروى ما يود من أحداث، ويقدم ما لديه من صور ووقائع، دون أن يغفل التدخل - بين الحين والآخر - معلقا برأى، أو مبديا فكرة، أو مفلسفا لما وقع - أو لما سوف يقع - من أمور.. ناهيك عن الوقوف طويلا محللا ومعللا دون أن يترك للأحداث - فى تطورها - تلك المهمة.

على أن رواية «ابراهيم الكاتب» تشد القارىء إليها، وتجعله يعيش بين صفحاتها، معاشرا لشخصياتها، مصاحبا لها. يستمع إلى ما تقول، ويطالع صورها - وأفكار أصحابها - من خلال تقديم الكاتب لهم، ورسمه لملامحهم.. ومهما ينقضى من زمن فلا يمكن لقارىء «إبراهيم الكاتب» أن ينسى «الشيخ على» و«أحمد الميت» - رغم أنهما قد يكونان شخصيتين ثانويتين - وما ذلك إلا لما يحسه من تعاطف معهما، وألفة لهما، وكأنه رآهما فى الواقع، وعايشهما - بالفعل - فى الحياة.

ورواياته جميعا - فيما عدا ابراهيم الكاتب، وابراهيم الثانى - تتبع - فى أغلب الأحوال - مسارا مستقيما متطورا بتطور أحداثها.. فلا يلتفت قارئها الى الوراء الا للربط بين ما استجد وبين ما سبقه من أحداث.. على أن ما فى ابراهيم الكاتب من خروج على هذا النمط إنما يرجع - كما أوضح المازنى نفسه - الى ظروف كتابتها - كما سوف نعود إلى ذلك فيما بعد.

وهى روايات ترسم صورة صادقة لحياة كاتبها، وعالمه الاجتماعى والفكرى، وعلى ذلك فهى ليست من الروايات الواقعية التى تتعمق الحياة، وترسم صورة للواقع القائم، وللأحداث التى تقوم على الصراع، والتشابك والتجاذب والتناحر - بكل تفاصيلها ودقائقها - وإن كانت مع

ذلك لا تحلق الى سماء الخيال، ولا تقوم على محض التصور.. فهى مستمدة من الواقع، ولكنه واقع «مجتمع» معين هو «المجتمع» الذى يعرفه الكاتب ويحياه.

وروايات المازنى ليست من اللون الرومانسى المغرق فى رومانسيته، فقد كان يرى فى ذلك اللون ضعفا لا يليق بالرجل القويم.. وكم أخذ - بل وحمل - على المنفلوطى انحيازه لهذا اللون الذى يصم أصحابه بالضعف وخور العزيمة، وما هكذا تكون الصورة الصحيحة لابن الحياة الذى ينبغى أن يعد نفسه دائما لمشاقها، ومتاعبها، متحملا ما يلقى، مجاهدا ليتخطى كل ما يعترض سبيله من عقبات.

وهو بعد كثير التوقف ليحلل، ويناقش، ويبدى الكثير من الآراء المباشرة، وكأنه لايود أن يدع فرصة الا ويفيد قارئه علما ومعرفة، ويبسط أمامه ما لم يتبينه من نوازع خفية، ودوافع داخلية.

وشخصياته ليست جامدة، بل متطورة، ولكن بصورة هادئة، وعلى مهل، وغالبا ما يكون ذلك التطور نتيجة اقتناع أدى الى التغير: فى النظرة أو فى السلوك، بل والأغلب أن يكون صاحب الرأى الذى أحدث هذا التطور - أو التغير - هو البطل الذى عليه مدار الأحداث.. سواء كان «ابراهيم الكاتب» أو «ابراهيم الثانى» أو «ابراهيم المازنى» نفسه[1] .

ونصل إلى ما أبرزه كثيرون من النقاد الذين وإن اعترفوا للمازنى بالريادة إلا أنهم أخذوا على رواياته الكثير والكثير من أوجه النقد.

فقد أخذوا على المازنى عدم مراعاته - بصفة عامة - للأسس الفنية التى تقتضى أن يقنع الكاتب بدور الراوى، دون أن يتدخل بالرأى، أو بالتفسير - أو بالنصيحة - وإن يترك أحداث القصة هى التى تكشف عن التطور، وهو مايقتضى أن يتحقق للشخصيات نمو طبيعى مع مسار الأيام.. وأن تكون للقصة بداية ووسط ونهاية.. إلى آخر ما هنالك من أسس «فنية» تواضع عليها النقاد، وتعارف عليها الدارسون.

وكذلك فقد قيل أنه لا يلتزم بهذه الأسس، فقصصه أشبه ما تكون بأحاديث مرسلة، وكأنه ما اتخذ هذه الشخصيات إلا لابداء آرائه، وليضع على ألسنة أصحابها ما يريد أن يقوله.. فكأنه يكتب مقالا مطولا على نسق الرواية.

وفى الحقيقة إن هذا ظلم للفن.. كما أنه ظلم للمازنى فى نفس الوقت، وذلك لأن فن القصة - أو الرواية - لم يقف - فى الحقيقة والواقع - عند أسس محددة لايعدوها، فهو فن متطور، بل وشديد التطور، والدليل على ذلك أن تلك الأسس التى أشرنا اليها سبقتها أسس عديدة أخرى كانت هى المعيار الذى تقاس عليه «فنية» العمل.. كما أن الاتجاه العام للقصة تطور بل وتذبذب بين ألوان متعددة: والا ما

ترددت هذه التقسيمات (١) · قصة الحوادث - قصة الشخصيات - القصة التمثيلية - قصة الأجيال - قصة الفترة الزمنية - القصة التاريخية.. وكذلك فإننا نقرأ عن القصة الرومانسية، والقصة الرمزية، والقصة الواقعية، والقصة البوليسية.. الخ.. ومن هنا فإن الفن لم يعرف - ولم يعترف - بلون واحد للقصة لا ينبغى للقاص أن يعدوه، ولا بصورة واحدة لايجوز للكاتب أن يخالفها.. وإنما الأمر متروك لكل مبدع موهوب يستلهم إبداعه وفكره.. ولعلنا إذا وصلنا فى أيامنا المعاصرة الى صورة جديدة من القصص غير المفهوم مرورا بالقصص اللامعقول.. فإن لنا أن نبحث عن معيار آخر نقيس به ابداع الكاتب. وهو عندنا - كما عند المازنى - معيار الصدق فى التعبير، واستيحاء الشعور والفكر فى رسم الصورة، ورواية الحدث، مع الحرص على بث الحرارة طوال صفحات العمل، وهي حرارة تنبع من العمل ذاته بما يحكى عن عواطف عميقة، ومشاعر انسانية نابضة، بحيث يأتى العمل تصويرا صادقا لقطاع من الحياة، أو لفترة من زمان، أو لحالة مرت بإنسان.

ومن هنا كان لنا أن نرى - فيما قيل عن روايات المازنى، ظلما وأى ظلم للمازنى نفسه قاصا مبدعا، وروائيا رائدا، إنه قدم لنا ما قدم

---

(١) د . محمد يوسف نجم عن القصة ط بيروت .

بطريقة تلقائية، فيها من الفن روحه وإلهامه، وإن لم يلتزم بحرفية الفن..
وليس من شك فى أنّ قارىء رواياته يتابعها فى شوق، ويرتبط بها - وبشخصياتها - فى حنان واعجاب، وتظل هذه الشخصيات ماثلة للذهن، مرسومة على صفحة الخيال، بما تتميز به من صفات، وبما أقدمت عليه من أفعال، بل بما تردد على ألسنتها من كلمات وأقوال..
حتى ليخيل إليك أنك تعايشها، أو أنها قد انتقلت الى حياتك - فى الواقع - وصارت تعايشك، وأصبحتم ولا يريد أحدكم لصاحبه - أو صاحبته - فراقا.

ولا تسألنى بعد - وقد وصلنا الى هذه النتيجة الباهرة - أى المذاهب كان يلتزم فى إبداعاته؟ ولماذا لم يترك لشخصياته أن تنمو وتتطور؟ أو أين كانت العقدة فى القصة؟ وما هى الرسالة التى يريد أن يعبر عنها؟ ولماذا كان يتدخل كثيرا فى سير الأحداث فيبدى الرأى، أو يقدم التحليل؟ .

لا تسألنى عن شىء من ذلك طالما أنك - مثلى - لست ناقدا ممن يشغلون أنفسهم بصناعة النقد، ودراسة الآثار، وتحليل الإبداعات، فأنا وأنت من القراء الذين إذا قرأوا وأعجبوا ورضوا قالوا. لقد قرأنا وأعجبنا ورضينا.. حتى وإن جاء ذلك على عكس ما يرى أهل العلم بالأدب وفنونه ونقده..

وهذا رأيى الذى أقدمه.. واستغفر أساتذتى من كبار النقاد اذا خالفت آراءهم، وخرجت على إجماعهم.. وما أحسبهم الا مشفقين علىَّ، فلن يسنوا أقلامهم للهجوم على ذلك الذى لايكتفى بأن يقتحم عليهم ميدان تخصصهم، بل ويخرج على مايقولون، استغفرهم، وكلى ثقة فى أنهم سوف يغفرون، لأنهم - قبل كل شىء - أهل فن وأدب، وهم - بالتالى - من عشاق الحق، والخير، والجمال.. بل أننى قد أفدت من كل ما كتبوا عن المازنى، وعما وجهوا اليه من سهام نقد - وعما قالوه فى كثير من المواضع من عبارات تقدير، وإعجاب وإن جاء ت على استحياء حينا، وبقدر فى أغلب الأحيان.

واذ نشير فيما يلى الى روايات المازنى فاننا نذكر أنها ست - كما أن له مسرحية وحيدة وتلك الروايات والمسرحية هى :

- إبراهيم الكاتب - رواية.
- إبراهيم الثانى - رواية.
- ميدو وشركاه - رواية.
- عود على بدء - رواية.
- ثلاثة رجال وامرأة - رواية.
- من النافذة - رواية.
- حكم الطاعة - مسرحية .

وكم كنا نود أن نقرأ سويا كل هذه الأعمال ففيها متعة وأى متعة ولكن المقام لن يتسع إلا لبعض اللمحات، فلعل فيها ما يومىء إلى بعض ما نود عرضه وبيانه.

٥ - لمحات .. عن إبراهيم الكاتب، وإبراهيم الثانى:

فى ختام روايته «ابراهيم الكاتب» نقرأ هذه السطور التى ضمنها الصفحات الأخيرة.

«وقالت له أمه ليلة بعد أن ظلت برهة مطرقة تنظر إلى سبحتها، وتخالسه النظر:

- يابنى ألم تفكر فى الاستقرار؟

ولم تزد، كأنما كان هذا سؤالا أخطره ببالها منظر حبات السبحة وهى تتناولها بأصابعها، فنهض ابراهيم، وقال وهو يتمشى وكأنه يناجى نفسه:

- الاستقرار؟ إن البيوت الثابتة إنما اخترعت لأن الانسان اشتهى السلامة وطلب الأمن، وأراد أن يكون مطمئنا الى ما يتوقع.. والحياة تظل تجربة حتى يكون للإنسان بيت، ويشعر أنه له، ويصبح ملكا لهذا البيت، مشدودا اليه مقيدا به، والناس فى العادة يرتاحون الى هذا الشعور، ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رؤوسهم كل ليلة، وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد الى

جانبهم، نعم، فإن الانسان إنما يطلب البيت لانه يطلب الزوجة، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه.. هذا هو الاستقرار.. وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون.

فنهضت وهى تتمتم بالدعاء له .

وكتب ابراهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك:

«هى ليلة حالكة متراكبة الظلمة، وفى الصدر ضيق، فأين عن صحرائى أعدى؟ ودلفت بى رجلاى الى المقابر، فتخللتها الى جدث فيه شطر من ماضى وقعدت وأسندت ظهرى الى حجارته، وأنا أقول لنفسى.

«الموت على الأقل راحة.. فليت الحادى يعجل بنا! فقد سئمت الحياة، ومللت النظر الى وجهها الملطخ، وثوبها المرقع. واشتقت أن أرقد هنا الى جانب».

فخلص الىّ صوت من جانب القبر أن «لا».

قلت . «كيف · لا؟»

واستدرت حتى واجهت أضواء القبر.

قال الصوت: «لا» على التحقيق. إن لى هنا سنوات لا أعلم عددها، ولعلها أقل مما توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل أيامى التى صارت كلها «ليالى». أو لعلها كثيرة فما أدرى وقد حجبت عنى الدنيا. ولو كان

المرء يموت مرة واحدة لقلت لك: صدقت؟ ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء، ويشتمل عليه الفناء شيئا فشيئا، وأنت على الأقل تذكرنى فأبقى بذكراك، فلا تسلمنى الى الفناء بموتك! ولسنا نألم الرقاد هنا، وإن كانت ظهورنا توجعنا أحيانا من طوله، ولكننا نألم فتور الذكرى عنا، واشفاء نا على التلف الأخير، وههنا في قبرى - فى حجرة أخرى - جد أعلى مسكين، مسكين قد استوفى ميتاته جميعا، ولم يبق منه شىء! وليت اذكاريه ينفعه! اذن لرددت اليه بعض الوجود.. ولكن هيهات! إنما يجدى الذكر ممن فوقها دون من هم فى جوفها مثلى».

قلت: ولكن اذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن اجابة دواعيها، أفلا يسوؤك ذلك؟ .

قال الصوت: كلا! سواء عندى أن تفى لى أو لاتفى. ومن العبث أن تتكلف لى الحفاظ، فإننى بعد أن مت لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره. ولا التفت الى وفائك أو غدرك. وإنى لأدرى فوق هذا أنك لا تذكرنى لذاتى. بل لما طابت به نفسك، فافعل ما بدا لك، ولا تعن نفسك بى من هذه الناحية، ولكن ابق لى رقعة صغيرة. زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء.

قلت: فإذا نسيتك كغيرى؟

قال الصوت: إذا نسيت؟ آه! ولكن ما لنا وما لم يقع، دع هذا إلى أوانه، وعسى أن يكون بعيدا.

قلت: حسن. سأحيا من أجلك. وأبقى المهالك إكراما لك، وضنا بك أن تلقى الأموات جدا.

قال الصوت: اتفقنا. فإلى الملتقى.

فسرت فى بدنى رعدة خفيفة، ولم يسرنى أن تقول: الى الملتقى. ونهضت عن القبر ممتلئا رغبة فى الحياة. وضنا بها، وحرصا عليها، وعدت أدراجى الى دارى. خفيفا كأنما حططت عن كاهلى وقرا، جعلت أقول فى الطريق

- نعم سأحيا من أجلها!

ولما أدرت المفتاح فى الباب همس فى أذنى الشيطان اللعين:

- تقول من أجل من؟

وقهقه!

فغاظنى ذلك وأخجلنى أيضا. فأشحت بوجهى، وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه! ..».



ولعل كاتبنا كان يتحدث عن زيارته لقبر زوجه الأولى.. فرواية ابراهيم الكاتب إنما تمضى أحداثها عقب خروج بطلها - ابراهيم

الكاتب - من مأساة موت زوجه الأولى، التى جاءت ميتتها على يد الطبيب الذى كان يقوم على «عملية وضعها».. حيث فارقت الأم الحياة، وخرج المولود الى الحياة.. فكانت مأساة غمرت «ابراهيم» بظلالها، وآثارها..(١)

وقد ألم به مرض استدعى دخول المستشفى «وتبدأ أزمته منذ مرضه بالمستشفى وتعلقه بمارى ممرضته التى يخشى استمرار علاقته بها، فيسافر الى الريف عند أقاربه حيث يجد بنت خالته، شوشو الفتاة الجميلة الحيية، واختها سميحة العاثرة الحظ التى ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طبيب العائلة وأحد أقاربها، وأخيرا نجية الأخت الكبيرة زوجة الشيخ على صاحب العزبة التى نزل بها. وكان ابراهيم قد نشأ صغيرا مع بنات خالته، ولكم داعب شوشو وهى طفلة وهو يافع مكتمل، حتى شبا كأخوين وانقطع عنها سنين طويلة، وها هو ذا يعود اليوم فيجدها فتاة تغرى الأبصار والقلوب، وانتهى الأمر بأن اهتز قلبها بحبه، وحاول أن يقاوم ذلك الحب، فلم يستطع، فود أن يتزوجها، ولكن نجية لم تكن لتقبل أن تتزوج شوشو قبل سميحة الأكبر منها سنا، وأصرت على أن تكون سميحة لابراهيم. وابراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد. وحاول الشيخ «على» الرجل الحكيم المتزن أن يثنى من حماقة

---

(١) وصف المازنى هذه المأساة فى أكثر من موضع منها روايته لأحداثها فى «قصة حياة» ص ٧٣ .

زوجته فلم يصل إلى شيء. وجرحت كبرياء ابراهيم إذ رفضت نجية أن «تعطيه» شوشو، ولو «دفع لها وزنها ذهبا». ونفض إبراهيم يده من الأمر، وسافر إلى الأقصر، حيث كانت له مغامرة مع ليلى إحدى النساء الحديثات، وإن كانت فى الحق امرأة لا تخلو من نبل وأصالة، ومرض ابراهيم بالأقصر، وعاده الشيخ على والدكتور، وشفى، وغادرته ليلى، وعاد هو الى القاهرة، وقد علمنا أن شوشو قد تزوجت من الدكتور محمود، بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بإبراهيم الذى لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئا».. (١)

هذه هى الخطوط الرئيسية لرواية «ابراهيم الكاتب» كما لخصها أحد أعلام النقد عند دراسته لها.. وإن كنا قد أوردنا فى مطلع الحديث السطور التى وردت فى ختام رواية المازنى.. وهى سطور توحى بما بعدها.. وتتركنا نتوقع بعض تلك الأحداث.

على أن لنا أن نرى فى هذه الرواية نواحى جمالية وابداعية تعلو بها عن مجرد رواية لما تضمنته من أحداث.. فأحداثها ليست هى مدار الابداع فيها. فهى أحداث عادية، لكن فى الرواية - على طول صفحاتها - روحا تشع منها، فيها عمق، فيها شعر ، فيها سخرية، فيها صدق، فيها عطف وحنان. فيها - باختصار - كل المعانى الجميلة التى تأسر

---

(١) تلخيص القصة كما وردت فى فصل إبراهيم الكاتب من مؤلف د . محمد مندور نماذج بشرية - ط ٢ ص ١٨٩ .

القارىء صاحب الاحساس الصادق، الذى يبغى من القراءة غذاء لوجدانه وارضاء لعاطفته، وإشاعة للبهجة فى نفسه، واذكاء للفكر عنده. ففى رواية ابراهيم الكاتب ذلك كله، بل وما هو أكثر منه.

ولا نود أن نقف طويلا عند الناقدين لها، وبصفة خاصة أولئك الذين وصفوا بطلها بأنه «الهارب من الحياة» وغيرهم الذين عابوا على الكاتب إيمانه بـ «التثليث» فى الحب وهو فى رأيهم ليس مما يتفق مع الطبيعة السوية.. كما لا نقف عند أولئك الذين نسبوا الى كاتبها سرقته «صفحات بأكملها» من رواية سانين التى ترجمها المازنى نفسه تحت عنوان «ابن الطبيعة».. فكل تلك الأوجه من النقد، حتى وإن أصابت بعض الحق، إلا أنها لن تقلل من عمق هذا الأثر الابداعى الذى سوف يبقى فى تاريخ الانتاج العربى أثرا من الآثار الباقية التى يزداد التقدير لها مع مرور الأيام.. والتى لا تفقد بريقها، أو أصالتها، رغم كل ما استجد - وما يستجد - من تيارات، وموجات!



ولم تكن رواية «ابراهيم الثانى» هى التالية - تاريخيا - لابراهيم الكاتب، فقد فصلت بينهما أعمال إبداعية أخرى للمازنى.. لكن الكاتب هنا هو الذى أبى إلا أن يربط بين العملين على النحو الذى أشرنا اليه من قبل، فالبطل الذى تدور حوله أحداث الرواية الثانية هو نفسه «ابراهيم الكاتب» بعد أن تقدم به العمر، واستقر به المقام، وتزوج زوجته

الثانية «تحية» التي جمعته بها حياة هادئة مستقرة، ولكنه - وقد صار في العقد الخامس من عمره - «فكان أخوف ما يخاف أن يكون قد شيَّخ، أو أشفى على الشيخوخة. وكانت امرأته ذكية رحيبة أفق النفس، بعيدة مطارح العين، وكانت تتوخى أن تجدد نفسها له، وتحرص على أن تحيطه بجو من الشباب، ولا تفتأ تدعو من ذوات القربى أو من بنات المعارف الفتيات الناهدات واللاتي مازلن في عنفوان الشباب، وكانت ترجو بهذا أن يجد بعلها ما ينعشه وينشطه، ويميط عنه أذى الاحساس بالشيخوخة المخوفة أو المتوهمة، ولم تكن تخشى عليه الفتنة، فقد كانت تعرفه رزينا حكيما، وصبيا محتشما، وكان يعلم أن امرأته تحبه - أو لاتزال تحبه - غير أنه كان يخشى أن يكون حبها له عادة، فاشتاق أن تحبه غيرها واشتهى أن يسمع كلمات الحب والاعجاب من أخرى.. وعرف فتاة في بيته - وبفضل امرأته - اختلط أمرها عليه فما كانت - فيما يرى - من الغريرات، ولا كانت من ذوات تجربة ما، وكانت متزنة، ذات عين فاحصة، ولكنها غير صارمة، وكانت أحلى ما تكون حين تبتسم، وتتقارب جفونها حتى لتكاد تنطبق. وكانت على سكونها وهدوء مظهرها في كل حال لا يشك الناظر اليها في أنها زاخرة بالحياة الفوارة.. وما أسرع ما توادا، بل ائتلفا - لا يدرى كيف؟ وصفا إليها، وصفت إليه، وأنس بها وأنست به».(١)

---

(١) من رواية المازني ، ابراهيم الثاني ص ٧ ، ٨ .

وكانت تلك هى «ميمى» ممن اتصلت اسبابه بأسبابها.. واستمرا فى حوار متصل هو يردها عنه حينا، ويرخى لها أسباب الاقبال عليه أحيانا أخرى.. حتى إنه ليحدث نفسه بأن «ميمى لا تتطلع الى شيء، ولا تبغى إلا أن أكون معها.. هكذ.. ليس إلا.. وما عرفتها ندمت أو قلقت، أو عنيت بأن تمد عينها إلى الغد المحجوب، وما عسى أن يكون حالها فيه. وإنى لأحاول أن أحملها على تدبر هذا الغد، فتأبى إلا أن تصدف عنه وتعرض. لا يأسا منه، ولا مجازفة، بل إنها راضية قانعة، وما أكثر ما قلت لها انها تضيع شبابها معى، وأنها لتعيرنى من حرارته ولكنها لا تستطيع أن ترد على شبابى بما تنفث فىَّ من حرارة شبابها» .

ومع ذلك فلم تكن «ميمى» هى الأولى.. بل سبقتها «عايدة» وسبقتهما «تحية» التى تزوجها، وأنس اليها وأنست اليه. وإذا كانت حياته قد اتصلت مع «تحية» هينة لينة وإن لم تخل من متاعب، فإن حكايته مع «عايدة» ما لبثت أن انتهت إذ وافتها منيتها وهى مازالت فى ريِّق الشباب.. ويصف كاتبنا هذه اللحظات فيقول.

«ووجم ابراهيم لما جاءه نعيها، فقالت له تحية وهى تربت له على كتفه: اسمع . انى لم أكلمك فى هذا قط، ولكنى أقول لك الآن إنى آسفة، آسفة من أجلها، والموت حسم، فاطو أنت الصفحة».

قال. ولكنها لم تكن صفحة.. ليست صفحة فى حياتى، هنا خطؤك.

إنها كانت كتابا كاملا، ولكنه خطف من يدى، وأنا مازلت أجيل عينى فى صفحاته الأولى، أوه أظن أنى أقول كلاما سخيفا، لم يعد فى رأسى عقل، كل ما أشعر به أو أدريه أنه لم يكن ثم من بأس لو بقيت هذه المسكينة.. هذا الموت ثقيل. أكاد أرتاب فى حكمة الحياة والموت. فى كل شىء. لا . ينبغى أن أكف عن التفكير فى أى شىء اليوم.

ففهمت تحية - وعذرت - وكانت تعرف تلف أعصابه وما عانى فى سنوات طويلات من عذاب المرض.

وما أكثر ما تفهم وتعذر المرأة الطيبة المخلصة الرحيمة، ولعلها أجمل وأروع ما فى الدنيا».

وبعد ذلك يقول:

«ثم كانت ميمى.. وهى طراز آخر من الأنوثة، لا تشابه تحية، ولا تشاكل عايدة، شبابها ريان، وجسمها بض فى نصاعة لون، ووجهها كأنه يترقرق فيه ماء الحياة من نضرة النعمة - رشوف. عبقة.، لبقة، لينة فى منطقها وعملها، ناعمة فى ملمسها، مطواع، لا كبر بها ولا تكلف، تتجمع أنوثتها فى عينيها الدعجاوين، وتنطلق منهما حين تبتسم فتضيقان، لا تعرف قولة «لا» ولا تحسن أن تقول «نعم» ولكنها تحسن أن تفعلها، أبرز صفاتها البساطة والقناعة، فهى تأخذ الأمور مأخذا سهلا، وتتناولها من قريب، وتقنع بالميسور.

ومع ذلك، فما لبث أن عمل ابراهيم على أن يمهد لميمى الزواج من «صادق» - قريبها الذى يحبها وإن كانت هى لا تبادله ذات الشعور - وعاد الى تحية.. التى ما فتر عن الحديث عنها على طول صفحات الرواية حتى وهو يتحدث عن سواها: عايدة أو ميمى.. فكانت صفحة الختام هى هذه السطور:

ودعا تحية فأقبلت واجفة القلب فابتدرها بقوله :

«سنسافر فاستعدى»

فريعت ، وتوهمت أن مكروها حاق بأحد من الأهل ، ولمح آية الجزع والفزع فى محياها ـ ووخزته نفسه وهمست فى أذنه «يا شيخ حرام عليك» فتبسم وقال : «إلى الشام» .

فوضعت يدها على صدرها وتنهدت ، ثم سألته «الشام؟» .

قال . «نعم بأسرع ما نستطيع» .

قالت · «ولكن الشام ؟ هذا .. كلا . ليس الآن» .

قال : «ماذا تعنين ؟ قلت إلى الشام سنذهب» .

فهمست نفسه فى أذنه معجبة به راضية عنه «هكذا يتكلم الرجل براڤو ..».

قالت : «ولكنك غير فاهم ، ليست المسألة أنى لا أريد السفر فإنى أريده وأشتهيه ولكن .. ولكن..»

وتلعثمت واتقد وجهها كالجمرة ، وغضت من بصرها ، فدنا منها وأحاطها بذراعه وسألها بحنو : «ما لك» .

قالت وهى مطرقة ، وشفتها تختلج : «إنى .. إنى .. أنا حامل».

فقال على البديهة ، وبغير تفكير ، وذهنه متجه الى الحجة لا إلى الخبر : «كلام فارغ .. أليس فى لبنان حوامل»؟ ثم تنبه فصاح بها : «إيه ؟ ماذا تقولين؟» .

فضحكت ـ وسعها أن تضحك – بعد أن أجرت لسانها بما كانت مستحيية كالعذراء من ذكره .

فانحنى عليها وقبلها ، وضمها ضما خفيفا ، وجلس وأجلسها على حجره ومسح لها شعرها بكفه وأسندها إلى صدره وقال :

«أظن أن أمى يسرها هذا ـ لو أمكن أن تدرى» .

قالت: «فى الصباح نذهب إليها ونخبرها» .

قال . «ثم الى الشام» .

قالت : «إذا شئت» .

أغمض عينيه ، وذهب يتصور أنه يوشك أن يصبح أبا . وذهل حتى عن تحية على حجره ، فغمزته نفسه وهمست « «لا تنس من فرحتك أن تكتب الى ميمى» .

فقال بضجر وصوت عال : «كيف يمكن أن أنسى» ؟

فاستغربت تحية وسألته : «تنسى ؟ تنسى ماذا» .

فتنبه ، وسخط على «نفسه» التى كادت توقعه فى ورطة قال : «لا شىء أحسبنى كنت أفكر فى هذا .. كل جديد من الأمر يتطلب جديدا من التفكير ..».

فضحكت ونهضت من حجره ، وقالت وهى تسوى خصل شعرها : «هذا دأبك أبدا .. لا يمكن أن تتغير» .

فحدق فى وجهها وقال : «بل أنا أتغير . كل ساعة .. وقد تغيرت الآن .. منذ لحظة . فلو أنى ...

«ليس فى عينى» .

ومالت عليه ولثمته «ولا فى قلبى» .



ولعل الصورة لا تكتمل إلا إذا عدنا الى الحديث عن الأم .. إنها مازالت له هى الملاذ ، والمعاذ ، وظلت معه تقاسمه حياته وفكره ، وكانت لزوجه خير أم .. ويصف تلك العلاقة بهذه السطور:

«وعاش ابراهيم مع تحية سنوات ، وفيا لها بالعين والقلب ، وكان يطوف ويعمل ويكد ، ويعود الى البيت فليقى اليها بما أفاد من مال ، وكان ما يكسب من الرزق يجيئه من هنا وهنا وبين بعضه والبعض الآخر فترات تطول وتقصر ، ولكنه في جملته ـ وبفضل تدبير أمه ثم تحية ـ واف بالحاجة ، كاف لستر المظهر ، وكانت أمه هى ربة بيته ،

وظلت كذلك زمنا بعد زواجه ، فلما أنست من تحية الرشد ، وشامت من سيرتها الخير ، ألقت اليها بالزمام آمنة مطمئنة ، ولم تجشم نفسها حتى عناء الايحاء والتوجيه ، ووكلت كل شيء الى ذكائها وفطنتها وعقلها وحكمتها .. وكانت كبيرة السن ، ضعيفة القلب ، فأتيحت لها الراحة التى تعذرت قبل زواجه ، ووسعها أن تقول يوما : الآن استطيع أن أودعكما وأنا سعيدة قريرة العين ، فإنك كنز ظفر به ، ووقع عليه ابراهيم ، وأرجو أن يكون رأيك أنه أهل له ، على أن فى يدك أن تجعليه كذلك ، وكما تحبين ، والرجال يحبون أن يكونوا سادة ، ولكنهم يكونون بين يدى المرأة أطفالا رضعا .

وجاء يوما آذنت بفراقها ، وكانت تحية وحدها فى البيت فامتنع صبرها ـ على فرط تجلدها – لهذا التوديع الذى كانت تعلم أنه لابد آت، وانحدرت العبرات .. واضطرمت فى أحشائها نار أليمة ...»



صور عديدة حشدت بها الرواية ، التى ضمت أحاديث عن هذه العلاقات التى تعددت لتعود الحياة من بعد سيرتها الأولى : زوجان يواجهان الحياة وهما يستقبلان الذرية الصالحة التى سوف يتغير معها طعم الحياة بكل ما تحمل من مشاغل وهموم ومشاكل !

وهذه الصفحات التى تطالعنا بها «ابراهيم الثانى» تثير فى النفس بعض التساؤلات :

- إذا كان ابراهيم الثانى هو «ابراهيم الكاتب» فهل هما ابراهيم المازنى ؟

- وإذا كان الأمر كذلك .. فهل ترى كاتبنا يتحدث عن تجارب شخصية ؟

- وهل ترى هذه الأحداث مرت به حقيقة وواقعا ؟

ولا نجد داعيا لمحاولة البحث عن الاجابات الصادقة عن تلك الأسئلة .. وقد يكفينا فى هذا المقام أن نقرر أن المازنى فى روايتيه وإن كان يستوحى ولا شك ما مر به من أحداث ، ويستلهم ما عاشه من تجارب ، وإن كان ينقل ، فى بعض الأحيان - عن واقع عرفه وعاشه - إلا أن لنا نضيف أنه إنما يفعل ذلك كله بنظرة الفنان ، وروح الشاعر ، وقلم الروائى ، وهو من ثم إذ يروى ما يروى ، فهو ليس «شاهد رؤية» يدلى بشهادته ، وإنما هو كاتب يستلهم الواقع ، ويستوحى التجارب ، ويستمد من ذلك كله زادا يلهمه ما يبدع قلمه من صفحات ، ويمده بما يروى من أحداث ، ويرسم من صور ، دون أن يقيده سوى دواعى الفن ، والابداع ، وعلى ذلك ، فإذا كانت أحداث روايتيه فيها من الواقع ، الا أنها ليست جميعها من الواقع ، ففيها من نوازع الفن ، ومن ضرورات الابداع ، ومن موجبات حسن الرواية ، وجمال التصوير - بل ومسايرة المنطق فى كثير من الأحيان - ما يبعد بها عن الواقع كثيرا كثيرا ،

وإن كان ارتباطها به يظل ظاهر الأثر ، ذا تأثير ما، يقوى حينا ويضعف في معظم الأحيان .. ومن هنا فليس لنا أن نزعم أننا يمكن أن نضع أيدينا على الحقائق الثابتة في حياة المازني العاطفية من واقع دراستنا لروايتيه - أو رواياته جميعا - فذلك أمر لا يمكن الوصول فيه الى قول فصل، وأقصى ما يقال إنها تعطى ملامح من تلك الحياة، ولا تزيد على أن تومى إلى بعض أحداثها مغلفة - أو مزودة - بإضافات تخفى الحقيقة ، بل وتكاد تزور الواقع .

ومن هنا فليس لنا أن ندين سلوك شخصياتها حتى اذا ما أردنا أن ندين مؤلفها ، وإنما كل ما لنا هو أن ننظر الى «الشخصية» موضوع الدراسة في اطار الفن نفسه، وليس في اطار «حياة المازني» اللهم الا اذا قلنا ان فن المازني فن متميز ، فهو فن «مازني» خالص ، له معاييره الخاصة به ، وسماته التي ينفرد بها .. وبهذا القول وحده نخلص الى أننا بإزاء أعمال فنية متميزة.. وواجبنا أن نعود اليها دارسين ، محللين ، على أن نكون منصفين غير متحيزين .. وبهذه الروح وحدها سوف ننصف أديبنا الرائد دون أن نبخسه حقه ، ودون أن نحصره في اطار تيارات مستحدثة ، وكأنما الأمر يقتضي أن كل مستحدث لا يقوم الا على أنقاض ما سبقه .. وهذه غاية الظلم . بل والجهل أيضا .

٦- لمحات عن بعض أعماله الروائية الأخرى :

وما نحسب أننا - بما ذكرناه فيما سلف - قد أوفينا هذين العملين حقهما من العرض والدراسة، فما زدنا على كلمات تكتفي بالاشارة دون التفصيل، وتتناول ظاهر الأمور دون أن تتعمقها، وإن كنا قد حرصنا على ان نبرز الروح التى صدر عنها هذان العملان والتى سوف تتضح لنا معالمها أكثر ونحن نستعرض سائر أعماله الروائية .. غير أننا سوف نعمد الى الايجاز والاجمال آملين أن تتاح لنا مناسبة أخرى لتناول كل من هذه الأعمال «الروائية» بما هى حقيقة به من دراسة متوسعة.

والذى بين أيدينا من هذه الأعمال رواياته ثلاثة رجال وامرأة - ميدو وشركاه - عود على بدء - من النافذة .. واذا جمعنا هذه الأعمال بعضها الى البعض الآخر فإننا نلحظ أنها تصدر جميعها عن روح واحدة . هى روح المحب العطوف فى صدق، الساخر فى حنان، الذى يأخذ من الحياة جانبها المشرق المضئ، وإن عرض لبعض جوانبها الكابية كان حرصه شديداً على التخفيف منها، واتباعها بما يزيل ظلمتها، ويعيد الى الحياة بهجتها، ورغم ذلك فإننا نلحظ بين ثنايا رواياته نظرات نافذة، وتحليلات عميقة للنفس البشرية وأطوارها، وذلك كله الى جانب التصوير الدقيق والعرض السلس والقول الشيق الأخاذ..

على أن الذى يلفت النظر فى هذه الروايات الأربع أمران : طرافة الفكرة فى كل منها من ناحية، وروح المرح والسخرية من ناحية أخرى .. واذا كنا سنعرض ببعض كلمات لكل من هذه الأعمال ، فإن حديثنا لن يطول كثيراً، بل سيكون بمثابة نظرات عابرة ، لكنها شاملة .

وإذ نعرض فى البداية لقصة : ثلاثة رجال وامرأة، فإننا نذكر أنها لا تدور حول حياته، وإن كانت شخصياتها مستمدة - ولاشك - ممن عرف فى تلك الحياة، فما نحسب إلا أنه ما كان يحكى الا عمَّن يعرف عنهم ، ولو طرف الخيط .

وهى قصة تبتدئ بهذه الفقرة .

«لعل من العبث أن يحاول المرء أن يرسم بالقلم صورة لانسان أو شئ ما ولا سيما اذا كان الكاتب رجلاً والموصوف امرأة فليس أجهل من الرجل بالمرأة ولا من المرأة بالرجل وإن كانا يعيشان معاً ويتحابان - لا أدرى كيف ؟ - ويتزاوجان، ويعمران الارض بنسلهما ، يبذران ذريتهما كالحب ولا تسألنى كيف يأتلف هذان المختلفان ويتواطن هذان الإنسانان - إن صح أن كليهما انسان - وكل منهما لصاحبه لغز لا حل له ؟ فما كنت خلقتهما أو شهدت خلقهما أو عاصرت جديهما الأعليين حتى أدرى..

على أن التصوير بالقلم، وإن كان لا يفيد أحداً صورة واضحة

المعارف بينة السمات ، متميزة اللمحات ، يتيح لكل قارئ أن يرسم لنفسه صورة، يؤلفها خياله مما توحى به الأوصاف وكفى بهذا مغنماً - والله أرحم بالكتاب من أن يجعل عناءهم باطلا ، وتعبهم لا خير فيه.

فلنتشجع إذن، ولنتوكل على الله الحنان المنان» .

ثم يعرض لهؤلاء الرجال الثلاثة فى عبارات موجزة ولكنها معبرة فيقول :

«وأول هؤلاء الثلاثة وأولاهم بالتقديم، وإن لم يكن أحقهم بالتعظيم (عياد) وهو شركسى الأصل يؤمن بالشارب المفتول، والعين الحمراء، والبرجمة فى الكلام، والزعقة الشديدة حين ينادى خادماً أو غيره، وإن كان الجرس قريباً وزره يتدلى فوق المائدة من سقف الجوسق، ولا نحتاج أن نقول إنه شخيص لحيم، وانه شديد الوطء على الأرض، وإنه لا خير فيه ولا شر، الا أن يجئ الخير عفواً، أو يجئ الشر من قلة العقل، والنفخة الكدابة.

والثانى فى هذا المجلس الأستاذ حليم. وهو مدرس قديم ناهز الخمسين وآثر الراحة، فاعتزل العالم مكتفياً بدخل خاص يسير ومعاش يقبضه كل شهر من الحكومة وهو قاعد، وهو ضاوى الجسم خفيف اللحم، معروق الوجه، دقيق عظام اليدين والرجلين، يأكل كثيراً ولا يرى أثر ذلك عليه فى بدنه، وحديثه طويل فلنرجئه الى أوانه.

والثالث شاب فى العقد الثالث، بتع شديد المفاصل، سريع خفيف، حسن الصورة، بياض وجهه تعلوه حمرة ، وعلى جلده نمش قليل، وهو خطيب محاسن بنت عياد، وقد آثره - عياد - على غيره لبياض وجهه، زاعماً أن هذا يسلكه مع الشراكسة والأتراك، ويرفعه عن طبقة الفلاحين الغبر الوجوه وان كانت الحقيقة أنه فلاح ابن فلاح جلا عن قريته بعد أن أضاع أرضه فشب ابنه حضريا صرفا وقاهريا محضا وتعلم الهندسة، وفاز بوظيفة فى الحكومة، واسمه فى شهادة الميلاد محمود، ويدلله أهله تدليلاً سمجا فيقولون «حوده» ومن الانصاف أن نقول انه يستسخف هذا الاسم وكان يثور على من يدعوه به، ثم رأى أن هذه حكاية شرحها يطول، فاكتفى بأن لا يجيب كأن المنادى غيره ..»

هؤلاء هم الرجال الثلاثة وإن كان هناك أكثر من شخص آخر ورد ذكرهم فيما تلا من فصول .. أما «المرأة» فهى محاسن وهو يصفها فى هذه الأسطر :

«محاسن .. وهى فتاة غضة السن صغيرتها تدلف الى العشرين، ولكنها فيما يرى أبوها عياد قد صارت إحدى المصائب الكبرى، فكانت دقيقة الطول ممشوقة القد، أو نحيفة اذا اعتبرت خفة اللحم على الذراعين والصدر والبطن، ولكنها كانت عريضة الألواح كالغلام، وثدياها صغيران وإن كانا راسخين كالكمثرى الصغيرة، وحلمتاهما ناشزتان

طويلتان وحولهما من السواد أكثر من المألوف فى العذارى، كأنما كانت قد ولدت وأرضعت، فأما محياها فأسيل الخدين وإن كانا متهضمين قليلاً، وأما شفتاها فرقيقتان جدا يفتران حين تبتسم عن ثنايا عذاب، الا أنها ليست بالناصعة البياض لإفراطها فى التدخين بكره أبيها ورغمه . وأما عيناها فنجلاوان ظمياوان، ولكنهما تبدوان حين يعروهما فتور، أو كمد، أو اضطراب ثابتتين، ويخيل اليك انهما أظلمتا، وكان حاجباها سابغين مهللين كأنهما خطا بقلم، وجبينها عريضاً واسعاً، وشعرها اسود فيناناً فى طول واسترسال ونعومة، كيف شئت بغير احتفال أو عناء، وكانت تؤثر أن ترسله ولا تجمعه» .

ولم يكن محمـــود هو أول من خطبها .. فقد «خطبهـا غير واحد قبل محمود، فأما أول خطيب فعلق خطبته على شرط أن يزوج أخته، وكانت تصغره، لأنه كان أبر بها من أن يختص نفسه بنعيم الزواج دونها، ولكن عزوبة الأخت طالت فضجر عياد أفندى ومحاسن، ونقضا الخطبة.

وجاء ثان من إخوان عياد أفندى وجلسائه وسماره. ولم يخطب البنت ولكنه تحبب اليها، وصغت هى اليه بودها فقد كان أنيس المحضر لطيف الفكاهة سخى اليد، وخيل الى عياد أفندى وامرأته أن المسألة مَسألة أيام، ولكن الأيام والشهور تقضت وهو لا يزيد على التودد ولا

يجاوز ما يبدو من إقباله، إلى الخطبة والطلب، ولا حتى الى الوعد، وما زالت نيته مضمرة لا يتحدث بها أو يكشف عنها وإن كان لا يكف عن اظهار المودة والاعجاب ، والغيرة أحياناً .

ثم كان محمود، وهو يحبها ولا يجهل ما قيل فيها وشاع عنها، وكان يعلل هذا بأنه قدح شبان لم ينالوا منها منالاً فذهبوا يشنعون، وللذى قالوا فيها أدعى إلى فخرها، ويحسبها انها امتنعت عليهم واستعصت على المغريات - ولكن أشياء بقيت مع ذلك تحوك في نفسه، وتدور في صدره، ولا سيما حين يرى قلة مبالاتها بما يكون منها كأن تذهب الى السينما مع رجل لم تعرفه لا في يومها، بل قبل ساعة واحدة من الاقتراح، أو حين يراها تقبل على الاستاذ حليم اقبال الألفة والثقة وتساوره وتضله ويساورها ويبتسم، كأن بينهما ما يكتمان أو ما يتساقيان تذكره.

ولم تكن محاسن تبادل محموداً حباً بحب، بل لعلها لم تكن تباليه أو تعبأ شيئا بإقباله أو إدباره، اذا صح ما كانت تفضي به الى الأستاذ حليم حين يخلو لها وجهه، ولو كان محمود حصيفاً لكان الأرجح أن يسلس في يده قيادها، ولكنه ثقل عليها، ونفرها بأن كان عيابة لا يزال يقع فيها، ويذكرها بما يشنع به عليها أهل الحي وعارفوها من غيره، ولا ينفك يسمعها من الكلام كل سوار يأخذ بالرأس، كلما رآها طاشت

أو نبت في العنان فتثور به، وتكايله، وتقول له أوجع مما قال لها. فتقع الجفوة، وتحل النبوة ويفسد الحال، ويعجز عياد أفندى عن اصلاحه، فيستجير بصاحبه الأستاذ حليم فيشكره محمود وهو كاره، وفى قلبه غيرة تضطرم، لما يراه من سلطانه عليها، وطاعتها له ..»

على أن قراءة العمل كاملاً تكشف عن أن محاسن لم تكن هى المرأة الوحيدة فى القصة .. فثمة أم محاسن، وعشيقة والد محاسن .. وقد تكونان شخصيتين ثانويتين، الا أن هناك امرأة أخرى هى : سميرة كان لها دور كبير - ومهم - فى الرواية .. ذلك أنه «لم تكن محاسن أول من عرف محمود أو أحب أو كاد يتزوج أو خاب له فيها أمل، فقد سبقت له علاقة بفتاة مدنرة مدرهمة [1] ولم يكن يعرف حين عرفها أن لها مالاً، أو يعبأ بذلك ..» أما كيف تعرف محمود على سميرة، فقد كان ذلك على أحد الشواطئ : «بعد أن سبح حوالى ساعة، وكاد النعاس يغلبه وهو مستلق على ظهره، وذراعه على عينه، واذا بصوت ناعم موسيقى النبرات يقول :

والله عال .. كأنه في بيته، وفي غرفة نومه، وعلى سريره ، ترى بأى شئ يحلم ؟

ولم يخطر له أنه هو المقصود، فإن الناس كثرة، ولكنه تنبه ونحى

---

(١) ذات دنانير ودراهم أى على ثراء فى المال .

يده عن عينه، ورفع رأسه قليلا لينظر، ثم استوى جالساً .. فقد رأى فتاة عليها برنس جاثية على ركبتيها وعاكفة عليه تتأمله كأنه حيوان غريب قذف به الموج.

وقال . معذرة .. من أنت ؟ هل أعرفك ؟

قالت وهي ترد الضحك وتغالبه · كلا .. ولكن المظلة تعرفني ..

فصعد طرفه إلى فوق، فاذا هو تحت مظلة كبيرة مخططة لم يفطن الى وجودها، ولم يشعر بها حين ارتمى على الارض وقد تحلل به الاعياء وأنهكه جهد السباحة .. ولم يسعه الا أن يعتذر للفتاة ويرجو منها الصفح ، وهم بالنهوض فردته بإشارة وقالت : لا تذهب، ولكن تنح قليلا فإن الشمس حامية.

فوسع لها، فدخلت تحت المظلة وقالت : كلا لا تذهب فإن لك فائدة، ان ههنا شباناً يلاحقونني ويضيقون عليَّ .

قال . مجانين.

فرمت إليه نظرة فيها بعض الحدة، ولكنها لم تخل من ابتسام، ومضت في كلامها فقالت : وقد خطر لي حين رأيتك ممدداً تحت المظلة أن أتخذ منك مجنا يقيني تطفل هؤلاء الـــــ ...

فقال على سبيل التلقين. المجانين..

فابتسمت وأطرقت، وجعلت أصابعها تعبث بالرمل..».

وقد تكرر لقاؤهما فى المصيف ثم فى القاهرة.. وعرضت عليه ـ نعم هى التى عرضت عليه ـ أن يتزوجا.. ولكنه رفض.. وكان سبب رفضه أنها ذات مال، وقد كان محمود «يؤمن أن من المهانة أن يكون الزوج فقيراً والزوجة غنية» إلى أن كان يوم دعته فيه إلى الشاى فى منزلها، فاعتذر فألحت وقالت انها تريد أن تعرفه بخطيبها، وأنها حدثت خطيبها عنه كثيراً.

«وذهب إلى بيتها، إجابة لدعوتها، ولم يكن خطيبها هناك، فاستغرب محمود رغم أنه سره أن لم يجده واستقبلته أمها.. ونظرت إليه الأم نظرة لم يفهمها.. وقالت له.

ـ إن سميرة فى الحديقة، فاذهب اليها، وقبل أن تذهب أحب أن أقول لك إنى لم أر فى حياتى أغبى ولا أعمى ولا أطرى ولا أضعف منك، ويخيل إلىَّ أن جسمك مصنوع من الجبن الحالوم لا من اللحم والعظم والآن اذهب.

فخرج إلى الحديقة، وقد فتحت له هذه النعوت الجميلة بابا من التفكير كان موصداً.

وألفى سميرة مسندة ظهرها إلى جذع شجرة، وساعداها مطويان على صدرها، تحت ثدييها الناهدين، وهى شاخصة لا تطرف، فوقف إلى جانبها يتأملها وهى كأنها لا تشعر به ، ولا تدرك أنه موجود،

فتعجب، وكأن في وقفتها من السحر، وفي خطوط قوامها من الجمال والفتنة ما لم يفطن إليه الا الساعة كأنما ما رآها قط من قبل..»

وبعد حوار لمحمود مع النفس، وما بين تردد وإقدام.. «وفي هذه اللحظة تنبهت سميرة إلى وجوده، أو أظهرت أنها تنبهت، وجعلت تتمتم: محمود.. محمود.

ولا يدرى محمود كيف حصل هذا ، ولكنه شعر أن الحديقة رقصت، فأما الاشجار فكانت تطول وتقصر، وأما بساط الروض فكان يدور، ويدور،. ولكنه هو كان ثابتا - لا يدور ولا يضطرب - وبين ذراعيه سميرة. وسمع نفسه يسألها. وحمدى هذا ما الرأى فيه؟ ماذا عسى أن تقولى له؟ قالت: ألم تقل لك ماما؟ قال: نعم - قالت لى إنى غبى وأعمى ومصنوع من الجبن الطرى، قالت وهى تضحك: إنها ظريفة. أليست كذلك؟ فسألها: أهذا رأيك في الظرف ؟ فضحكت وقالت: لقد كادت تجن لأنك أعمى، وغبى، و... قال متمما: ومصنوع من الجبن الطرى، قالت: حمدى هذا ناظر الزراعة، وقد استقدمته ماما لتفتح لك عينيك به.. ولكن كان لابد من استعمال السكين على ما يظهر لشق جفونك. فصاح محمود: هل تعنين.. ؟ فقالت: أعنى أنى أعددت لك سندوتش بالبطارخ.. تعال.. وجرته من يده..».

ومع ذلك، فلم تسر الأمور كما يرام حتى بعد أن تمت الخطبة،

وتسرعت سميرة فأعلنت أنها تزوجت من «حمدى»، وما تزوجت فى الحقيقة.. إذ يصف حمدى ما حدث فيقول. «قالت لى كن زوجى فكنت.. وقالت إنها ستحتفظ بالعصمة فى يديها فقبلت عن طيب خاطر، فقد حسبتها تخشى على مالها، ولكن الحقيقة التى عرفتها بعد ذلك أنها لم تتزوجنى لرغبة فىَّ، بل فرارا ممن تحبه.. ولست أشكو، ولكنى أقول ما أقول تقريراً للواقع ، ومازلت زوجها، ولكن بالاسم..».

وكانت خطبة محمود لمحاسن، ولكنها لم تطل.. ودارت الأيام، وعملت محاسن ـ فى إحدى الشركات ـ لتكسب عيشها بعد أن زاد ابتعاد أبيها عن بيته لتعلقه بعشيقته.. وفى الشركة تعرفت على نسيم ولكنها لم ترتبط معه بعلاقة حب، بل كانت علاقة عمل ممتزجة بصداقة.. ونسيم هذا شخصية مرحة، وهو «شاب ظريف أنيق الملبس، رطب اللسان يسمونه «نسيم بك» لسخاء يده، ومروءة قلبه، لا مجاملة وتلطفا، وهو شاب أبى له والده الثرى إلا التجارة دون الزراعة التى كان مبتغاه أن يشتغل بها فى ضيعته الواسعة» ـ ويتحدث الكاتب عن علاقته مع محاسن فيقول: «وكان خير ما فيه أنه لا يحاول أن يغازلها، كأنها رجل مثله، فكانت تحمد له سيرته معها، وتخلد اليه بالثقة، ولا يساورها قلق، وإن كان لا يرضيها فى سريرتها أنه لا يبدو عليه أنه يشعر بأنها فتاة لها جمال وفتنة، على أنها كانت

تتعزى بأنه ما كان ليقبل عليها، ويطيب نفسا بصحبتها لولا أنه يرى أن لها حظـــا من الجمال، وحـــدثت نفسها أنها تؤثر أن يظل كما هو لا يغازلها بغزل..».

وقد كان لمحاسن صورة للحبيب الذى تتمنى ، وقد وصفته لصديقتها فريدة بقولها. «الرجل أسمر اللون، حسن الصورة، ومخه قوى، وذقنه فيها نقرة صغيرة ، وهو مرهوب ولكنه رقيق القلب عطوف على الضعفاء، ولا يهاب شيئا ، وهو مرح، يقهقه حين يضحك ، ولكن فى صوته نبرة حزن لأنه قاسى فى حياته شدائد وذاق آلاما».

وشـــاء ت الأقــدار - أو رأى الكاتب - أن يذهب بمحـــاسن إلى الاسكندرية ، وكان القطار وسيلتها فى سفرها.. «ولبثت محاسن وحدها دقائق، فتناولت قصة بوليسية وهمت بالقراءة، وإذا برجل يدخل ويضع حقيبة ضخمة على الرف، وينحط على المقعد أمامها، فثقل عليها أن يتطفل على وحدتها غريب، ورفعت رأسها وألقت إليه نظرة استهجان لتطفله واستثقالاً لوجوده، وما كادت تصعد طرفها اليه حتى دهشت وشخصت، فقد كان الرجل تمثالا حيا لمن قالت لجارتها فريدة إنها تحلم به طويلاً، أسمر اللون، ملوحاً، عريض الكتفين، أرسخ، حاد العين كالصياد ، قوى الفم، بارز الذقن متينها. أخذت عينها هذا كله فى أسرع من رد الطرف - لولا أنها لم ترد طرفها لفرط دهشتها، فظلت

عينها عليه، والراجح أن محياها فضحها ، ونم على ما خالجها من العجب والسرور، فقد خلع الطفيلى طربوشه، وحسر عن رأسه ، وكان قصير الشعر، منتصف المشيب ، وهمت ـ لما سألها: هل بينهما معرفة ـ أن تقول. (نعم، فإنك أنت بطولك وعرضك الذى أراك بعين خيالى حين أحلم بالرجل الذى أشتهى أن يكون بعلى)، ولكنها عضت على لسانها ، ولم تنبس ببنت شفة، وهزت رأسها منكرة أن تكون ثم معرفة، وصبغ وجهها الحياء فزاده وضاءة. وأمسك الرجل، واضطجع، ومضت ثوان أو دقائق أو حقب، وإذا بها تقول له أحسب أنك تقول فى سرك إنى جريئة، أو سيئة الأدب، ولك العذر، ولكن الحقيقة أنك توأم رجل أعرفه ـ نعرفه ـ من زمان طويل. ولو طاوعت نفسها لقالت له إنها لم تعرف هذا الرجل المزعوم الا فى أحلامها . فتبسم الرجل ـ الحقيقى ـ وقال: صحيح؟ واثقة أنى لست هو . اسمى حمدى ـ حمدى الدينارى . فاتقد محياها مرة أخرى، ولكن لسانها لم يخذلها ، فقالت واثقة، ولكن اسمك أيضا ، يخيل الىَّ أنه مألوف لا أدرى لماذا؟ فقال. كلا.. لا أظن أننا التقينا من قبل، فما كنت لأنسى هذا الوجه لو كنت رأيته. فعاد الدم القانى، فتدفق إلى وجنتيها».

ويأتى ختام القصة ليحل ذلك كله..

وحمدى هذا هو من كان زوج سميرة فى الظاهر.. ولكن - وكما رأينا - التقى مع محاسن فتآلف معها وسارت بهما الأمور إلى الزواج.. ويصف الكاتب ختام قصتهما بهذه السطور:

«وقالت: سأسبقك.. ودعنى نصف ساعة، ثم إلحق بى».

وكانت هذه أول مرة تزينت فيها محاسن لحبيب، فلما صعد إليها حمدى ورآها وقف كأنما صده شيء.. وفتح فمه من الدهشة، وندت عنه آهة المعجب بحسنها، وكانت فى ثوب أبيض من الحرير مطرز بفصوص من خرز بنفسجي ومفتوح الجيب، يكشف عن أعلى الصدر والظهر وحول جيدها عقد من اللؤلؤ زاده رقة ونصاعة، وفى أذنيها قرطان - من لؤلؤ أيضا - وفى شعرها هلال مكلل بفصوص شتى الألوان على هيئة النجوم، وعلى يمناها سوار مفتول من فضة.. وطاف برأسها وهى تضع هذه الحلى أنها بعض ما أهدى نسيم!

ودنت منه، ولصقت به حتى لشعر بدقات قلبها السريعة، فجمعها بين ذراعيه، وضمها إليه بقوة، فطوقت عنقه بيديها وتعلقت به، وثنت رأسه إليها، فالتقت الشفاه فى قبلة حلوة تركتهما ينتفضان، فحملها على يديه كأنها طاقة زهر، ومضى بها إلى الطارقة وقعد وهى فى حجره..

وهمس فى أذنها: هل تعلمين أنك من وزن الريشة؟

فضحكت وثنت إليه وجهها واستدارت شفتاها للقبل».

هذا ما كان من أمر محاسن.. وفى الجانب الآخر ـ أو الجزء الأخير من الفصل الأخير ـ نلتقى بمحمود بعد أن «صار يتسلى عما ساءه من زمانه بالاختلاف مع إخوانه إلى المراقص ودور اللهو الأخرى، إلى أن كان يوم أقيمت فيه حفلة راقصة لمساعدة معهد خيرى، فذهب مع صاحب له، فانتحيا ناحية وراحا يرمقان الناس ـ والنساء على الخصوص، فما كان بين الرجال تفاوت يذكر، وكلهم يرتدى ثياب السهرة، أما النساء فكانت ثيابهن وزينتهن معرض أزياء وأذواق.

وإنه لجالس يدير عينيه فى هذا الحشد الذى لا يسكن إلا ليموج، وإذا بسميرة داخلة على ذراع فتى وسيم يشق بها الجميع، ويقبل على الناحية التى هو فيها، وكانت مرتفعة بضع درجات، فكأنما شك فى خاصرته سيف، فانتفض واقفا، واندفع هاربا بغير تفكير، فعلقت قدمه بطرف البساط، فانكب على وجهه وهو على الدرجات، وأصابت سن إحداها ساقه، فهاضتها ، فبقى منطرحا لا يقدر على حركة .

وكان صاحبه قد دهش، ثم أفاق ، فلما رآه طريحاً خف إليه، وكان خلق كثير قد اجتمع حوله، وحف به، فجعل صاحبه يدفع الناس، ويفرقهم عنه ، حتى وصل إليه فألفى سميرة ـ وإن كان لا يعرف أن

اسمها سميرة ـ جاثية على ركبتها وقد أحاطت ظهره بيسراها وأراحت رأسه على صدرها، وهي تدعو الناس ـ وتشير إليهم بيسراها ـ أن يتفرقوا ليتنفس.

وجثا صاحبه مثل جثوها، وقال وهو يمد يديه ليرفعه عن صدرها عنك.. يا هانم وشكراً لك.

قالت لا .. لا .. لا.. هذا شأني أنا ، ما شأنك أنت.. إذهب عنا.. تعال يا نسيم واحمله معي.

قال صاحبه إني معه وأنا صديقه.

قالت قلت لك ان هذا شأني أنا.. ألا تفهم.. تعال يا نسيم.

فدنا منها نسيم وقال بل هو شأن الاسعاف الذى يمثل آل نسيم روحه فى كل موقف يدعو اليه..»

«وحملوه برفق إلى السيارة، وكانت سميرة لفرط اضطرابها تعترض طريقهم وتدور حولهم ، وتسير مرة أمامهم، ومرة خلفهم، وتارة عن يمينهم ، وأخرى عن يسارهم كالكلب الوفى، حتى أرقدوه فى السيارة وقعد على الأرض فيها معه نسيم واتخذت هى مقعد القيادة، وانطلقت إلى بيتها ، وخلفت صاحبه على الرصيف، فاغرا فمه كالأبله».

«وبلغوا البيت.. ونهضت الأم ودعت الخدم وأمرتهم بأن يحملوا

«المكسور» وأمرت وصيفتها أن تعد له غرفة، وقصدت إلى التليفون فدعت طبيباً ..

وكان محمود لايزال فى شبه الغيبوبة من الألم الحاد، والذهول. واعتلاج العواطف فى صدره الذى صار كالخضم، فكان ينظر ولا يكاد يدرك ما يجرى وما يصنع به ..

ورأته الأم ، فابتسمت ، وهزت رأسها وقالت لنفسها . ما أقل غناء التدبير .

« ... وكانت سميرة ، فى أثناء ذلك قاعدة على السرير الذى أرقدوا عليه محموداً وكانت لا تنفك تحنو عليه ، وتقبل ما بين عينيه وجبينه وخديه ورأسه حتى أذنيه وأنفه، وكلما هم بكلام وضعت راحتها على فمه لتمنعه . وكلما أدار وجهه ردته إليها برفق، وعادت إلى التقبيل والتنهد والتشهد .

وأخيرا ابتسم .. لم يسعه إلا أن يبتسم ، وقد هدأ الثبج المربد [(١)] والموج المقبلح ، وتسنى له أن تبصر عين الضمير ما كان اصطحاب الأوازى [(٢)] يحجبه ويطوبه.

وقالت له لن أدعك تفر منى مرة أخرى ، والحمد لله على ما أصابك فلن تستطيع أن تغافلنى وتهرب.

---

(١) يعنى الصدر الثائر .

(٢) الأوازى جمع الآزى الموج الشديد .

فهم بأن يقول انه لم يكن هو الذى فر منها ، ولكنه عدل عن الجدل والخلاف فى مثل هذه الساعة ، وأشار إلى فمه ، فمالت عليه، وأراحت صدرها على صدره، وضمته وقبلته.

فلم يزد على أن قال : آه .. من حلاوة القبلة ورضى النفس.. »

★

- تلك هى القصة فى شخصياتها وأحداثها الرئيسية ، وقد تركنا أمر نسيم و «راتب بك» - مدير الشركة التى عملت بها لفترة - وحقيقة علاقة محاسن بعياد .. وعلاقة عياد بزوجته .. فتلك جميعها أحداث فرعية قصد منها الكاتب إلى إثراء قصته، بحيث تأتى تصويرا لقطاع من الحياة تتشابك فيه الأحداث ويتصارع الأشخاص ، وتتطور الأوضاع.

وإن الناقد لهذه الرواية - على قلة ما كتب عنها من نقد - لابد وأن يتعرض لما انتهى إليه الكاتب من حلول «توفيقية» تعتمد على «الصدفة» البحتة في الكثير من أوضاعها ، وما قد يقال من أن شخصياتها غير متطورة ، وأن «الأحداث» فيها بسيطة ، والصراع فيها مشتت بحيث لا يتركز فى بؤرة محددة.. إلى آخر ما يمكن أن يقال من أوجه للنقد - وما أكثرها .

ومع ذلك ، فسوف تخلّف قراءة هذه الرواية لدى قارئها إحساسا بالرضا والسرور والراحة النفسية، وسوف يمضي مع صفحاتها فى

شوق ولهفة ، وسوف يتابع أحداثها فى حنين وكأنه يعيش هذه الأحداث ويسايرها يوما بعد يوم ..

وسوف يأخذ بلبه ذلك الوصف الدقيق لكثير من المواقف ، كما أنه سوف يمضى مع الحوار الذى يدور بين أشخاصها وكأنه يتابع المتحدثين وهم يتبادلونه لا نقول فى واقعية صادقة، بل نقول على نحو مشوق جذاب ، يثير الفكر ، ويدعو إلى التفكير، والمتابعة، بل وربما شارك القارىء فى مناقشة ما يدور من مسائل ومشاكل.. وناهيك عن روح الفكاهة والمرح التى تشيع بين معظم صفحات الرواية ، إلى ما تتميز به من وصف دقيق، وعرض شيق، وتحليل للعواطف يتعمق - فى كثير من المواضع - أدق خلجات النفس، وطوايا القلب..



وأما قصة «ميدو وشركاه» فهى تتميز بالطرافة . يكفى أن نشير إلى ذلك التنبيه الذى ورد فى ختامها مقررا:

«تقع حوادث القصة فى ثمان وأربعين ساعة، وكل ما فيها خيالى لا أصل له ، وكذلك أشخاصها» .

ففى هذه المدة اليسيرة التى شغلت ما يقرب من مائة وسبعين صفحة من الحجم المتوسط فى تسلسل معقول ، وتوال للأحداث سريع ومتلاحق ، دون أن تحس بملل أو بأن ثمة إخلالا فى رواية الأحداث ،

والرواية تستهل بتقديم منزل الأستاذ أحمد البديع «اذ كانت الحوادث التى سنرويها قد وقع بعضها - ولك أن تقول معظمها - فى هذه الدار الجميلة، ولأنا نخشى أن تعدينا الوقائع بسرعتها فنذهل عن البيان فى موضعه ويختلط الأمر على القارىء ، ويشق عليه أن يتابعنا ويروح يلهث - معذرة - وراء نا» ويصف الدار من الخارج لها حديقة.. وفى وسط الحديقة «جوسق» - كشك - مثمن الأضلاع .. ووراء الدار فضاء وضع الأستاذ أدوات الرياضة فيه.. أما من الداخل فالدار لا تختلف عن مثيلاتها من بيوت الموسرين «ولا تمتاز الا بأمرين: بساطة الأثاث، وضخامة المكتبة وحجرتها..»

والأستاذ أحمد البديع متنوع الاهتمامات: وأول همومه الحديقة وتنسيقها، وهمه الثانى أداء التمرينات الرياضية ، وهمه الثالث الحفاظ على مكتبته وما بها من مخطوطات نادرة، وردّ يد العدوان عنها.. وهمه الأكبر قبل ذلك كله يتمثل فى الحرص على استعمال اللغة السليمة - غير العامية - وعلى ما يبدو أنه ليست له زوجة ، وإن كان كل من دارت حولهم الأحداث ممن يمتون إليه بصلة القربى أو النسب .. وأول هؤلاء شاب يدعى محمد .. وفى بداية القصة فإن الأستاذ أحمد يسأل خادمه عن مجىء محمد ، فيدور بينهما الحوار التالى :

- اسمع .. هل جاء سيدك محمد ؟

- ا .. لا .. بلى ..

- اوه .. انى اسمح لك أن تتكلم بالعامية فقد استنفدت حيلى معك، ولم يبق لى أمل فيك فقل أيهما هى لا ام ايـ .. أم نعم .. كدت والله تعدينى يا جاهل .. والآن تكَّلم .. هل جاء؟

- أيوه ..

- الحمد لله .. وأين هو ؟

- مش هنا .

- جاء ومش هنا ؟ ألا تستطيع أن تبين - أعنى أن تقول كلاما مفهوما..

- يعنى خرج .

- م .. م .. متى ؟ أو بلغتك العامية السخيفة إمتى ؟

- ييجى ساعة دلوقت.

- وهل تعرف أين ذهب ؟

- راح يشوف واحدة .

- واحدة !! هل تعنى سيدة ؟

- ست صغيرة ..

- فتاة ؟ من تكون ؟

- ما اعرفهاش .. بس شفته يبص لها ..!

- هل قلت : يبص لها أو يبصبص لها ؟

- لا .. يبص بس .

- لست فاهما .. كيف يبص بس ؟

- يبص بس كده عليها وهى فايته ..

- ولا يكلمها ؟

- لا .. أبدا .. بس كده يبص عليـهـا وهـى جـاية ولما تفـوت يبص وراها..

- ثم ؟

فحك الخادم رأسه كأنه لم يفهم «ثم» فقال سيده شارحا:

- وبعد أن ينظر إليـها مقبلة ومدبرة؟ أعنى بعد أن يبص لها. ماذا يفعل؟

- مافيش حاجة ..بس كده..

- هل تحاول أن تكذب علىّ ...؟؟

- لا .. والله العظيم.

- ألم أنهك عن الحلف أيضا؟

- أيوه .. بس نسيت .. ماعدتش أحلف ..

- قل إذن الحقيقة.

- ما قلت .

- ألا يبدو لك من المستغرب أن يصنع هذا ؟ يقف لفتاة متربصا لها

حتى اذا جاءت اكتفى بأن ينظر إليها ؟ كيف يعرف أنها آتية ؟ فسر لى هذا ..

- ما اعرفش !

- وكيف عرفت أنه لا يفعل أكثر مما تصف؟

- رحت وراءه .

- تتبعته ؟

- أ.. أ ..

- كيف تستبيح يا وقح أن تتجسس على سيدك؟

- هو اللى خلانى أعمل كده .

- كيف يكون هو الذى جعل منك عينا عليه؟

فانفجر الخادم ونسى خوفه من سيده :

- يا سيدى طير لى عقلي .. اكو القميص ده .. لا لا بلاش ده .. خد ده أحسن .. والكرافتات .. عشرين واحدة يخرجها ويسألنى أنهى أحسن . وأنا إيه دراني ؟ ماكانش بيعمل كده أبدا .. قلت لازم فيه حاجة شاغلاه..

- وما شأنك أنت ؟ رقيب عليه ؟ لا يبقى فى خدمتى مثلك .. إذهب فأنت مطرود . قالها ، وأولاه ظهره ونسى أنه استدرجه بأسئلة لا حق له فيها ..

ولابد أن نتوقف مع الكاتب وهو يذكر «وهنا الموضع الذى ينبغى أن نقدم فيه صاحبنا محمدا إلى القارىء ، فما يليق أن ندعه يلتقى به مرة بعد مرة ، ويسمع كلامه ونجواه ، ويشهد وثبه ونطه، ويطلع على أخفى ما يطوى عليه أضلاعه، وهو لا يعرفه، فنقول إنه ضابط فى كتيبة المشاة الرابعة والعشرين، وكان اسمه عند زملائه الضباط «حمادة» أما الاسم الذى يطلقه عليه الجنود فيما بينهم فهو «ميدو» وأما الاسم الذى تعرفه به وزارة الدفاع فهو الملازم أول محمد أفندى أبو طالب البحراوى – هكذا سماه أبوه قبل أن يموت – أى أبوه – أما كيف تخرج فى الكلية الحربية، وصار يحمل على كتفيه النجمتين – أم ينبغى أن نقول : النجمين – فهذا هو سر «ميدو» . وهو ممن لا يبدو عليهم أنهم يتكلفون جهدا فى شىء ، ومع ذلك ينجزون كل شىء كأنما يفعلون ما يفعلون بسحر ساحر ..»

كما لابد كذلك أن نقدم أخته «خيرية» .. عندما رآها الأستاذ أحمد البديع فى ذلك اليوم ، بعد أن فرغ من ألعابه .. «واذا به يلمح بنت أخته واقفة مسندة ذراعها إلى المتوازين . وكانت فتاة خوداً مبتلة [1] وهذا وصف كاف لمن يعرف ماذا نعنى ، ولكنا لا نبخل مع ذلك ببعض البيان فنقول انها لم تكن من اللواتى ركب لحمهن بعضه بعضا ، ولا ممن

---

(١) الخود · الشابة الناعمة – مبتلة ندية .

يترجرج لحمهن إذ يمشين . ولا ممن ينقن[١] بعظم الأعجاز والأوراك، وإنما كانت .. هيفاء مستقيمة القامة ، معصونة الجسد غير رخوة ، وفى عينيها سحر حلو – أو حلال إن شئت – وعلى شفتيها الرقيقتين ابتسامة سرور فى هذه اللحظة – لا فى كل الوقت ، فإنها ليست رسما – وكانت لابسة ثوبا مضلعا يخيل إليك لرقته أنه سكب ماء .. ولم يكن هذا مما يناسب الشتاء ، ولكن خيرية كانت فتاة منملة [٢] – اذا كنت تعرف ما نعنى – شديدة النشاط ، كثيرة الحركة ، خفيفة فى جسمها ، تطيب نفسها للعب والعبث أكثر مما تطيب للعمل . وعلى أنى لا أعرف أى عمل يمكن أن يكون هناك لمن كانت مثلها فى العشرين من عمرها وجميلة وغنية»

وهناك شخصيات أخرى ذات أثر فى مسار الأحداث ، الا أنها ستأتى عندما نتقدم فى الرواية التى تمضى بعد ذلك مع محمد – أو ميدو – وقد ذهب ليلتقى – عن بعد – بحبيبة القلب ، يتملى برؤيتها وهى تخطر – أو تمر أمامه – دون أن يطمع فى أكثر من ذلك .. وقد ذهب فى تلك المرة بعربته – الكرايزلر – «وانطلق بها فى شوارع مصر الجديدة حتى وصل إلى شارع نادى السباق ووقف عند سوره ونزل ، وكانت هذه أول مرة جاء بها بالسيارة فلم يدر فى أول الأمر ماذا يصنع .. وأخيرا

---

(١) يرهقن .
(٢) نُمل – خدر – واسترخى .

ألهمه الله أن يفتح غطاء المحرك كأنما أصابه تلف ، وجعل ينظر فيه ثم يرفع عينه عنه ويرسل طرفه إلى حيث ينتظر أن يرى فتاته مقبلة .. وبينما كان متشاغلا بسيارته التى لا عيب فيها متظاهرا بهذا متجنيا به على السيارة الجديدة الرشيقة المواتية متعمدا التقطيب، ليتقن التمثيل باغته من خلفه صوت يسأله : ما لها .. ! جرى لها شىء .. ؟»

ولا نطيل فى النقل - أو الاقتباس - وانما نذكر أن الذى فاجأه كان - شاكر - أحد زملائه فى الكتيبة ، وبالطبع حاول أن يتخلص منه فلم يستطع .. وإن بدا عليه الارتباك، والاضطراب مما جعل صاحبه لا يشك أن فى الأمر فتاة وموعدا .. فسأله : «من السعيدة؟» وحاول ميدو أن ينكر ففضحه و «نم عليه الارجوان الذى صبغ محياه» .. ويطول الحديث ، وتتعدد المحاولات والمحاورات بينهما ثم تقع المفاجأة الثانية .. فقد أقبلت الفتاة واتجهت إلى شاكر ونادته باسمه «وكان الذى يراها يتوهمها افرنجية ، فقد كانت لابسة ثبا أو صدارا أرجوانيا من صوف سوى أن له كمين، وتحته فوف أسود ينسدل إلى نصف الساق. وحول عنقها - أم ينبغى أن نقول جيدها - منديل يابانى ، أرضه حمراء ، وعلى حافاته خطوط عريضة سوداء ، وفيه صور أزهار ، وعلى رأسها مقنع أحمر يدور بإطاره خيط أبيض يعتدل على مفرقها ، وتزينه خصل متلوية من قصتها ، على جبين مشرق واضح ، تحته عينان واسعتان،

بياضهما محدق بالسواد ، فما يعيب من بياضها شيء ، أما هدبها فأوطف ، طويل الظل ، وأما نظرتها فما خلقت البراقع الا لاتقائها، وهي ساجية فيها لين، ولكن فيها أيضا شيئا آخر لا أدرى لماذا يدع ميدو لي وصفه وهو العاشق المدنف - شيئا ينفذ إلى القلب مباشرة ، بلا واسطة ولا استئذان ولا يجدى في صده ورده أن تلوذ بالتحفظ والتظاهر بغير ما تنطوى عليه، ويلي ذلك أنف مصفح - ومعذرة فإن الذنب للغة ولهذه الحرب التي أحبت هذا اللفظ وقرنته في الأذهان بالدبابات والسيارات والبواخر ، وهذه ولا شك أشياء لا تلائم جمال الفتيات الجميلات - وإنما أعنى أنه معتدل القصبة، مستويها بالجبهة - جبهة الوجه لا جبهة الحرب - وهل اشتاق القارىء أن يدنى شفته من شفة فتاة وأن يلمسها ويظل ملامسها بلا افتراق؟ إن كان - أو اذا كان - قد عانى هذه الرغبة أو ذلك الاحساس فلاشك أنه يعرف - ولو توهما - حلاوة النثلة التي في وسط الشفة العليا والاغراء الذى للترفة التي في الشفة السفلى، وكيف يحلوان مجتمعين على فمه ، وكيف يسكران اذا تناولهما واحدة بعد واحدة بين شفتيه الغليظتين بطرف لسانه كما يدلع الكلب من العطش ، وهل أحتاج أن أقول شيئا عن جيدها .. إنى أخشى أن يتوهم القارىء أنه في معرض من معارض الرقيق فيحسن أن نكتفى بأن نقول إن جمالها لم يتأم [1] ، وإن ميدو معذور، وعلى ذكر ميدو الذى كدنا

(١) أتأمت الحامل - ولدت أكثر من واحد في بطن واحد - لم يتأم لم يكن له سبقيه .

ننساه نقول إنه حينما سمع صوتها تنادى شاكرا التفت ناحية الصوت وما كاد يفعل حتى بهت .. فما كان يطمع فى أكثر من أن يراها مارة ، فإذا هى واقفة وراءه تقول شـــاكر . فما معنى هذا ، متى وأين عرفها؟ . » (١)

وبعد حوارات عديدة عرف أن غادته الرشيقة هى «سارة» وهى طبيبة حديثة التخرج وهى شقيقة شاكر ..

ونوجز فنقول إن ثلاثتهم توجهوا إلى «الڤيلا» حيث الأستاذ أحمد البديع ، وابنة شقيقته ، ثم شقيقته «حنيفة» أو كما يدعونها السيدات حنيفة التى «رأت اقبال شاكر على خيرية وارتياح الفتاة إلى حديثه وفكاهته فلم يحسن وقع ذلك فى نفسها، وخشيت أن تترك الحبل على الغارب فيحبط ما دبرت ، وكان الذى تبغيه ، وتسعى له أن يتزوج «عبده» من خيرية ، فإنه قريبها ، وهو إلى هذا كفء لها فى الحسب والنسب...».

و«كانت السيدات حنيفة امرأة حصيفة سريعة التفكير على الرغم من ضخامتها ، وثقل حركتها ، وكانت قليلة الكلام ، كثيرة التروى ، تنظر بعينها ، وتفكر بعقلها ، وقلما يفصح لسانها عما يدور فى رأسها ، فقالت لنفسها ، وهى تنظر إلى شاكر وأخته، وإلى ابنيها ، وإلى جمود «عبده» يحسن بى أن أتقى إثارة المخاوف والوساوس ،

---

(١) أنظر كيف يطيل الوصف ويتناول كل الجزئيات على نحو لا نجد أحدا سواه يقدر - أو يصبر - عليه .

فإنى إن ازعجت شاكرا لا آمن أن أحمله على الحذر ، وأبعثه على الاسراع ، فالرأى أن أخدعه ، وأوهمه أنى جاهلة ، وأنى لم أفطن إلىّ شىء .. ولم تكن لها ثقة بأخيها في هذه الأمور . وكيف تكون الثقة بمن همه اللعب بأثقال الحديد ، ومن لايزال يشيل نفسه ، ويحطها على عوارض الخشب كأنه بهلوان ، وهو اذا لم يكن يلعب لا يكاد أحد يراه الا غارقا بين هذه الآلاف من الكتب فى قبتها ، وقد أنفق عليها جل ماله ..»

وكان من الطبيعى أن تتطور الأحداث لتصل إلى اتفاق بين ميدو وسارة على الزواج.

ويقول ميدو وهو يعلن هذا الخبر :

«إنى اتفقت مع الدكتورة سارة على الزواج، أما خيرية فمشيئتها وحدها هى المرجع فى اختيارها ...»

ويختم الكاتب روايته بهذه الفقرة :

«بقى أن نقول إننا نترك خيرية غير مستقرة على رأى لأنها كانت – كما قالت للدكتورة سارة – «موزعة» – ونعد القارىء أن نبلغه ما سيكون من أمرها بعد الحرب إن شاء الله فإن استعجل فليأتنا بورق (بالفتح أو بالكسر) سيان . والسلام عليه ، والشكر له، وإلى الملتقى بإذن الله».[1]



(١) كانت هناك فى ذلك الوقت أزمة فى الورق بسبب ظروف الحرب ، هذا ما يقصده الكاتب بهذه الإشارة .

تلك هى الخطوط الرئيسية للرواية بعد إغفالنا لما تخللها من مؤامرات ، ومن أحداث ثانوية .. ولن نأخذ على القصة قيامها فى أساسها على عدة مصادفات ، وكونها لم تدع الفرصة للشخصيات لكى تنمو - أو تتطور - مع تطور الأحداث - رغم قصر المساحة الزمنية - وقيامها منذ بدايتها حتى نهايتها على أفكار غير متعمقة ، وتدخل الكاتب فى الكثير من المواضع بغير داع من دواعى الفن ، وبتجاوزها الواقع على نحو قد يعتبر خرقا للأعراف - أو على الأقل التى كانت سائدة فى مصر فى الأربعينيات - ندع ذلك كله لنتحدث عما شاع فى الرواية من عرض شيق لأحداثها ، ومن حوارات ممتعة ، ومن توفيقها للأحداث وتسلسلها على نحو مثير وممتع فى نفس الوقت ، وفى رسمها لصورة - بل عدة صور - فى غاية من الظرف والطرافة ، وتقديمها لشخصيات غير نمطية ، وفى ارتفاعها بالحب والإعجاب على هذه الصورة الرائعة ، وفى جعلها من التآمر والتخابث عملا فنيا ممتعا ومشوقا فى الوقت نفسه .

وايا ما كانت أوجه النقد لهذه الرواية ، وأوجه الاطالة فى بعض المواضع إلى درجة تجاوز الحد المطلوب .. الا أن قارئها لا يمكن له أن يدعها - اذا هو ابتدأ فى قراءتها - قبل أن يتمها ، وسوف تشغله عما عداها إلى أن يفرغ منها ، بل سيظل على مشغلة بها حتى بعد ذلك إلى زمن طويل..

ففى القصة تلك الجاذبية المازنية الآسرة ، وفيها روحه الحانية ، وفيها نظراته الفاحصة ، وفيها تحليلاته التى تمس القلب حتى وإن لم توافق حكم العقل وهى على كل حال عمل ممتع ورائع وإن لم يصل إلى درجة الامتياز المازنى.



وروايته «عود على بدء» لا نبالغ اذا قلنا إنها رواية متميزة ، غير مسبوقة فى الأدب العربى الحديث .. قد يكون لها ما يشبهها من روأيات الاحلام فى أدب الأساطير وقصص ألف ليلة وليلة ، ولكننا نزعم أن هذه أول رواية تكتب على هذا النمط فى أدبنا المعاصر .. لقد مال الكاتب هو وزوجته لزيارة «الشيخة صباح»فى طنطا .. وكان ما كان من الكاتب فى حواره مع الشيخة صباح على النحو الذى سبق لنا أن أوردناه والذى انتهى بمقولة الشيخة صباح للكاتب .

«أرنى كفيك .. ابسطهما»

ولمستهما لمسا خفيفا ثم أُرسلتهما ، وأطرقت شيئا ثم رفعت رأسها وحدقت فىَّ دون أن تطرف وقالت :

«ستعطى ما لم تطلب ، وتؤتى ما لا يباع ولا يشرى ، وتُسلَبُه فى اليوم نفسه ..»

فرفعت عينى إلى السماء - أو إلى السقف - ولمحت زوجتى وقد أخذ كفاها يهتزان من الضحك المكتوم .

ومضت الشيخة صباح فى نبوءتها غير عابئة بنا :

« .. وسينضى عنك ثوب الرجولة .. إلى حين يا صاحبى»

ولم تعد الرواية هذه النبوءة ، فهى حلم طويل ، يعود فيه صاحب الحلم صبيا صغيرا ، - دون أن يفارقه عقله الناضج - ليجد نفسه فى بيت كبير - فيللا - ولها حديقة كبيرة ، وهو فى أسرة لا تضم سوى أمه - والداده - ووجه المفارقة أن أمه تشبه زوجته - أو كأنها هى - وقد توفى أبوه .. واليوم عيد ميلاده السعيد ، وقد حضر عمه خصيصا لحضور هذه المناسبة التى ينتهزها لمعاودة التقرب إلى أرملة أخيه عساها أن توافق على الزواج منه، الأمر الذى يغيظ الابن فيذهب يكيد لعمه، ويدبر له المقالب، ولكن الابن- رغم شقاوته - ضعيف البنية، وهو بالبنات أشبه، ومن ثم تعرض لعدوان الصبية الآخرين الذين جاءوا لحضور حفل عيد الميلاد.. وكان بين هؤلاء الأطفال اثنان يشبهان ابنى الكاتب هما اللذان قاما بالجانب الأكبر من العدوان عليه.. وتسير الأحداث فى سلسلة من المقالب والمفارقات على نحو طريف يمزج بين الجد والفكاهة، بين الواقع والخيال، بين أفكار الكبار ونظرات الصغار.. بين الجد والهزل، بين التصوير الصادق والفكاهة الرفيعة.. وهو يجمع بين متناقضات عديدة تدعو جميعها إلى الوقوف طويلا للتدبر حينا وليترك المرء نفسه على سجيتها فى أحيان أخرى.. وبخاصة وهو يرى

كاتبنا الكبير صاحب البيت والزوج والولد ينقلب إلى صبى يدعونه «سونه» ويحملونه إلى الصدر يهدهدونه.. ثم إلى السرير ينيمونه..!

«ولكل شئ آخر - حتى الليل الطويل الغاص بالأحلام المزعجة - .. وانقلبت على جنبى الأيمن، فصار وجهى إلى باب الشرفة، وتوقعت أن تدخل لولو بعد قليل وتصبحنى بوجهها الحسن وابتسامتها الحلوة، وهممت أن أقول: تالله ما أجملها وأجمل حسنها ولكنى قلت بدلا من ذلك: «ايه؟» بلهجة المنكر لا المستفسر، وجلست فى السرير، وفركت عينى، وجعلت أطرف، ثم رحت أستثبت، فقد أصبحت فى غرفة أخرى غير التى أعرف أنى قضيت الليل فيها، أفترانى سأنتقل كل صباح - أو كل ليلة - إلى بيت جديد، وبدن جديد؟ ولكن هذه.. غرفتى !! أى والله هى بعينها.

ووثبت إلى الأرض، وذهبت أعدو إلى الباب، فأدرت فيه المفتاح، أو أردت أن أديره، ولكنى كنت عجولا فخرج ووقع على الأرض، فانحنيت وتناولته وأنا أسخط على نفسى ودفعته فى الثقب، أو جعلت أدفعه فلا يدخل من فرط اضطرابى وارتعاش يدى، وبعد ذلك فتح الباب، فانطلقت خارجا كالصاروخ، وداخلا على زوجتى فى غرفتها، وكانت لا تزال نائمة، فطرحت الغطاء الرقيق الذى تستر به جسدها وجذبتها من ذراعها، فقامت معى تقول: «إيه؟ ما لك؟».

قلت، أو صحت: «قومى يا امرأة.. انظرى إلىّ .. ألست كما كنت؟ هل تغيرت؟»

قالت: «ماذا جرى لك؟ ما هذا النط الذى تنطه كالقرود؟»

قلت محتجا: «قرود؟ أسألك كيف تريننى فتقولين إنى أنط كالقرود؟»

قالت «ماذا أصنع اذا كنت تنط مثلها تماما؟»

قلت: «طيب . دعى هذا وقولى كيف تريننى؟»

قالت ببرود . «ما لك ؟ كما كنت سوى أن خدك وارم»

ورفعت يدى إليه أتحسسه.

وسمعتها تقول : «قرصة نملة على ما يظهر» .

وقلت «وكيف تريننى فيما عدا ذلك؟» .

قالت: «أراك قليل الذوق. توقظنى فى الفجر لتسألنى سؤالا باردا.. ماذا جرى لك؟»

قلت: «إنها تسأل ماذا جرى لى؟»

وخطر لى أنها لا تعرف فلها العذر، وأدرت عينى فى نفسى، فألفيتنى على عهدى بها لا كما كنت أمس – أعنى.. تعرف ما أعنى؟ – ودفعت يدى إلى وجهى، فشعرت بخشونة الشعر النابت، وإلى شفتى العليا، فإذا عليها الشاربان، فتشهدت وتنهدت، وارتميت على كرسى.

وسمعتها تقول وهى تضع رأسها على المخدة.

«اذهب، ونم، فما زالت فى الليل بقية »

فوقفت، وقلت: «أنا أنام ؟ مستحيل..»

قالت، وأدارت وجهها عنى: «شأنك ، أما أنا فسأنام. فاذهب عنى من فضلك »

قلت أعاتبها . «وتتركيننى؟»

قالت مستغربة. «أتركك؟ لست فاهمة. ما لك اليوم؟»

قلت: «أولا، لا تقطبى، ثانيا، إجلسى أقص عليك حكاية، وبعد ذلك قولى لى هل يجوز أن أخاطر فأنام مرة أخرى؟»

فاعتدلت، وقصصت عليها ما كان مما رأيت فى الحلم وهى تضحك، فلما فرغت قالت:

«بل هذا من غضب الشيخة صباح عليك»

وكانت أعصابى لاتزال مضطربة من أثر الحلم، فلم أحاول ، ولم أكابر..

ولما أضحينا قلت لها.

«ما قولك؟ اليوم السبت وليس على عمل .»

قالت: «سبت إيه؟ انه الجمعة!»

قلت: «الجمعة؟ كيف يمكن؟ لقد كان أمس الجمعة»

قالت: «ألا ترى أن الولدين لم يذهبا إلى المدرسة؟»

قلت: «صحيح! وغريب أن أعيش الجمعة مرتين فى أسبوع واحد.. على كل حال.. أريد أن أقترح أن نركب السيارة إلى طنطا ونزور الشيخة صباح».

قالت، ويداها فى حجرها، وعيناها إلى فوق كأنما ترى الشيخة صباح فى السقف:

«إنى لا أشبع من النظر إلى حسن وجهها.»

قلت: «اتفقنا إذن.»

ورفع السجف، ودخلت علينا الشيخة صباح فى شملتها البيضاء تمشى كأنها ملكة فنهضت واقفا، فافتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة، وناولتنى يدها فانحنيت أريد أن ألثمها، ولا أخشى أن تسئ امرأتى بى الظن. ولكنها جذبتها فاعتدلت وقلت لها:

«أنا أعرف أنك لا تأخذين منا شيئا، فخذى هذه الساعة»

فهزت رأسها، ولكنى وضعتها فى كفها، وثنيت عليها أصابعها، وقلت. «إنها ساعة أمى. وكنت أعتز بها وأضن»

فتطلق وجهها وتهلل، فقد كانت تعرف عظم محبتى لأمى.

والتمعت عيناها، ورفت على شفتيها ابتسامة، ورفعت الساعة إلى أذنيها وأصغت، ثم هزت رأسها مسرورة، ونحت الشملة عن صدرها. ووضعت الساعة هناك.. قريبا من قلبها.

ثم تناولت رأسى بين يديها، وتحركت شفتاها بدعاء لم أسمعه.

وقالت امرأتى ونحن نعود إلى السيارة.

«الآن تستطيع أن تنام مطمئنا.»

قلت وأنا أستوى على مقعدى: «ولا تقصين علىَّ هذه الحكايات؟»

فرنت إلى فى سكون كأنما تتوضح شيئا، ثم ابتسمت وهزت رأسها أن نعم.

فجمعتها بين ذراعى، وبستها.

فقالت «فى الشارع؟ ألا تستحى؟

قلت: «هذا من فرحتى بك؟ واحذرى أن تغالطينى مرة أخرى»

قالت «أنا أغالطك؟»

قلت. «نعم .. فى المنام»

فضحكت.. ووسعنى أن أضحك مثلها..



وكانت ختام رواياته «من النافذة» ورغم قصرها - تبلغ أربعين صفحة من القطع الصغير- الا أنها بتعدد أحداثها، وتنامى شخصياتها، وصدق تصويرها ، تفوق - فى تقديرى - عمقا، ورقة، ورواية للأحداث ، الكثير من الروايات الأخرى، بل ربما فاقت روايات المازنى نفسه التى ظهرت قبلها، وهى - على قصرها - تتميز بالطرافة،

إنها تتحدث عن ملاحظات أو عن أمور يلحظها الكاتب وهو جالس إلى نافذته يرقب الشارع من تحته، أو بالأحرى يرقب محطة الترام، ويتحدث عن ألفته لهذه المحطة فيقول «وقد أصبحت - لطول مقامى فى هذا البيت - أعرف كل من يقف - أو تقف - على رصيف الترام انتظارا لقدومه، وبلغ من ذلك أن الأمر يختلط علىَّ أحيانا حين ألقى بعضهم أو بعضهن فى الطريق، فأهم بإلقاء التحية ، وأرد نفسى بجهد إيثارا للحيطة.. ولست أعرف من هؤلاء وأولئك الذين صاروا إخوانا لي وهم لا يدرون الا ما يفيده النظر، على أنى وأنا أراعيهم وأجعل بالى إلى ثيابهم، ومبلغ عنايتهم بها، وما أراه عندهم من ضروبها، وإلى حركاتهم ومشياتهم وطريقتهم فى الكلام، وشمائلهم وسكونهم أو ضجرهم إذا أبطأ عليهم الترام، أو حال الزحام بينهم وبين ركوبه، أقول إنى وأنا أراقبهم من حيث لا يشعرون قد ألّفت لكل واحد وواحدة منهم قصة. فلو سألتنى من هذا أو هذه؟ لما تلعثمت أو ترددت وأنا أذكر لك اسمه أو اسمها الذى اخترته، وأسرد عليك ما أعرفه - ظنا أو تخيلا - عن حياته أو حياتها. ولست أجد مشقة فى تصوير حال كل من هؤلاء..»

ثم يدخل بعد ذلك إلى قصته التى تدور حولها - أو عنها - رواية الأحداث.

«وقد أخذت عينى اليوم فتاة اسمها زكية - لا أدرى لماذا ؟ ولكنها تبدو على حال غير حالها المألوف، فإن عهدى بها أنها تلميذة، وقد اعتدت أن أراها فى الشتاء الماضى ترتدى زى التلميذات وتحمل حقيبة الكتب. أما اليوم، فإنها تلبس السواد، وتحمل فى يدها شيئا ملفوفا فى جريدة قديمة، فأنا أرجح أن يكون أبوها قد انتقل إلى الدار الأخرى مسكينة.. وقد تركت المدرسة ولا شك، بعد أن فقدت عائلها، وأصبحت لا قبل لها بنفقات التعلم، ومن يدرى ماذا كانت خليقة أن تكون لو كان قد أتيح أن تواصل الدرس. ولكن متوجهها أخذ عليها ، فهى تكف عن التحصيل، ويسوء حال أسرتها - فإن الثوب يبدو رثا - فيدفعها شظف العيش إلى العمل، فإنى أراها تصدف عن الترام رقم (٣) وتركب الآخر الذى رقمه (٣٣) وهو يذهب إلى امبابه، وهناك فى الطريق إلى هذه القرية مصانع شتى، ولا شك أن هذا الشئ الملفف الذى تحمله فى يدها تارة، وتضعه تحت إبطها تارة أخرى، رغيف وإدام لغدائها. مسكينة! صارت التلميذة التى كانت فى خصب من العيش ولين، والتى كانت تتطلع إلى مستقبل حسن، وتطمع أن تكون معلمة أو طبيبة أو محامية، أو غير ذلك - صارت وهمها الآن أن تكسب رزقها بعرق الجبين!! أأقول رزقها؟ كلا! بل رزقها ورزق أخواتها وأمها أيضا على الأرجح، ولعل لها أخا يستعين بالقليل اليسير الذى تكسبه على التعليم، وعسى أن يكون

اعتماده عليها بعد الله فى كسوة العيد! من كان يظن أن فتاة مصرية في مثل هذه السن الغضة تسد مسد الرجال، وتعول أسرة عسرت بموت أبيها؟! وعسى أن تكون زكية مغتبطة مبتهجة. وأكبر الظن أنها لا يخطر لها أن الطريق الجديد الذى حولتها إليه صروف الأيام غاص بالمعاطب، وأن الدنيا قاسية لا تترفق بأحد، فلنسأل الله لها السلامة. فإنها صغيرة غريرة».

وبعد فترة .. ومن نافذته أيضا رأى ما استرعى نظره :

«واحتجت إلى نظارتى لأستثبت فقد ساء بصرى قليلاً . نعم هى زكية بقدها الممشوق ووجهها الصابح وديباجتها المشرقة ، ولكنها على هذا زكية جديدة لا عهد لى بها ، فقد خلعت السواد - وحسنا فعلت - ولبست ثوبها الجديد ، وما هو بجديد ، فما عدت فيما أرى أن عادت إلى القديم الذى طرحته إلى حين ، وأكبر ظنى أن هذا الذى اتخذته الآن من الكتان الملون .. ولزكية شعر أثيث مسترخ ، وكانت تجمع مقدمه وترفعه وتلويه وتثبته بالمشابك وتدع ما عداه مسترسلاً يعبث به النسيم إذا شاء، واليوم أراها قد زادت ففرقته عن شمال ، وأحسبها دهنته بشىء ، فإنه يلمع ، وكانت عاطلاً ، فعلقت فى أذنها قرطاً من حبة لا أدرى من أى شىء هى ، وغرزت فى شعرها حلية على صفة الوردة ، ومن يدرى لعلها تطيبت أيضا !

ويدنو منها فتى يكبرها بحوالى سبع سنوات ، إذا صدقت فراستى

من هذا البعد ، وهو فى قميص أبيض ، وسراويل إلى القدمين ولا شىء
ى رأسه المتلبد الشعر كأنه مدهون بالصابون ، ويبتسم لها فيتهلل
محياها ويشيع فيه البشر ، وتندفع يمناها وتمتد اليه تنشد المصافحة
والملامسة ، ولكن يديه فى جيببه وعينه فى عينها ، فهو لا يرى راحتها
المبسوطة فتثنى الأصابع وتسترخى الكف ، وتميل وتمضى على مهل
إلى الحقيبة التى تحت الابط الأيسر ، فقد صارت فتاتنا تحمل حقيبة أو
مثبتة حمراء بلون حذائها ، وانها لحائلة اللون سوداؤه فى مواضع من
أثر الأصابع ، ولكنها شىء جديد على كل حال لم تكن تتخذه فتاتنا ..
وأين يا ترى ذهب الرغيف الملفوف فى صحيفة قديمة ؟ لعلها دسته فى
الحقيبة ، فإنها تتسع له مطويا أو مشطورا نصفين ، فقد صارت زكية
على ما يبدو لى تستحى أن ترى بغير حقيبة ، وأن يرى معها غداؤها
ملفوفا فى جريدة لأنها استيقظت - أيقظها على الأرجح هذا الفتى -
وهو أول من يحدثها على رصيف الترام . ترى من يكون ؟ إنه ليس
طالبا ، فقد ذهب الطلبة كبارهم وصغارهم الى معاهدهم ومدارسهم ،
فقد جاوزنا الثامنة من ساعات نهارنا ، وليست هذه بالثياب التى
يرتديها طالب أو موظف ذاهب ألى مدرسته أو ديوانه ، والأرجح أنه
يعمل فى متجر أو فى مصنع ، ولو رأيت كفيه لكان من المحتمل أن أرى
فيهما ما أستعين به على الظن والتخمين - وهو واقف كمصباح النور

الذى الى جانبه ، فلولا أن شفتيه تتحركان أحيانا لصلح أن يكون تمثالا، ولكنها هى لا تستقر فى مكان ، ولا تزال تتحرك وتدور وتوليه ظهرها حينا ، وجانبها حينا آخر ، كأنما تعرض عليه قوامها من كل ناحية ، ولا تزال يدها ترتفع الي شعرها مرة ، وتلمسه لمسا خفيفا كأن بها حاجة الى ذلك ، وتهوى الي ثوبها فتسويه ، وترتد الى حاجبيها فتمسحهما ، وهو جامد لا يعير شيئا من هذا التفاتاً كأنما كانت تفعله وهى وحدها قبل إقباله ..

وطال وقوفها فى انتظار الترام الذى لا يجيء ولا يقف ، لأنه غاص ولا متسع فيه لقدم ، فجعلت عينى تتحول عنهما الى غيرهما من الخلق ثم تعود إليهما .. فرأيت فتيات ونساءً أخريات فى ثياب متفاوتة النسج والطراز والتفصيل والألوان ، فقلت لنفسى إن أكبر الظن أن فتاتنا زكية ما نضت السواد وارتدت هذا الثوب الملون الزاهى على الرغم من قدمه إلا من أجل ... ترى ما اسمه ؟ فلنسمِّه عبد المنعم – ولو من باب إطلاق اللفظ على ضده – إكتست هذا الثوب من أجله ، وخالفت ما كانت تتوخاه في وقفتها من سكون الطائر ، لأنه طلع عليها بما حرك نفسها أو هجم عليها على الأصح ... وأقبل الترام غاصاً كالعادة ، ولكنه وقف هذه المرة ، وآن لزكية أن تركب ، فالقت إلى عبد المنعم نظرة فيها أسف وأمل وشكر . فأما الأسف فلفراقه ، وأما الأمل فأحسبه فى لقائه مرة

أخرى ، وأما الشكر فعلى قدومه ، فما ركب معها ، بل عاد أدراجه ويداه ما زالتا فى جيبه ، كأنما جاء ليقف معها هنيهة ، فلماذا كان منه إذن هذا المجهود ؟ ألا يعرف كيف يبتسم ؟ أم هو أدهى مما يبدو ، ويتكلف الفتور ليغريها به وبالإقبال عليه وليحرمها فتطلب .

مسكينة .. لو وسعنى أن آخذ بيدها لفعلت ، ولكن مثلها فى مثل سنها قلما تصغى إلا لما يهتف به شبابها الجديد ، ويصفه ويصوره ويزينه ويؤمن به قلبها الغرير المطمئن إلى الخير فى الدنيا .

مسكينة .. أو من يدرى .. فقد توفق وتسعد فإنها حظوظ وأرزاق وقسم ، وقد تكون من أولئك النسوة السعيدات اللواتى يتلقين ويتقبلن كل ما تجىء به الحياة بالرضا والشكر .. لعل وعسى ؟ ».

ومن مرقبه يلحظ ما طرأ على علاقة زكية وعبد المنعم من إقبال وإدبار ، ومن وفاق وخلاف ، ومن تصرفات مصدرها الغيرة حينا ، والحمق أحيانا أخرى ، ومن علاقات جانبية لعبد المنعم بفتيات أخريات على مرأى من زكية الى محاولة من هذه الأخيرة لتظهر أمامه وكأن لها علاقة بسواه ..

وعن إحدى علاقات عبد المنعم يرسم كاتبنا هذه الصورة :

« وهذه الفتاة الجديدة ما حكايتها أيضا ؟ إنها ليست كالتى كانت معه منذ أيام وسخطت عليه زكية وتركته محنقة تتقى - على ما يظهر - أن تلقاه مرة أخرى ، وهى - أى الجديدة - من طبقة أخرى ، وكأنى

بها معلمة أو طبيبة أو أى شىء من هذا القبيل ، فإن فيها لتوقراً واعتزازاً بنفسها على الرغم من إقبالها عليه وبشاشتها له ، وأنسها به ، وتناولها اصابع يسراه خفية وفركها بأصابعها والضحك اليه بعينها ، وهى تفعل ذلك وتحسب أن لا أحد يراها ، ولا تدرى أنى من مرصدى هذا أرقب كل قمر طالع من فلك (الميدان) » .

وبعد صفحات يورد هذه الفقرة :

«برح الخفاء ، وعرفنا زكية وصاحبها عبدالمنعم ومن يكونان ؟ وما خطبهما فى هذه الأيام ؟ وما أوحى إلى هذا العلم ولا تلقيته (من النافذة) ، ولكن الفضل لها مع ذلك فيما اهتديت إليه ، ووفقت له ، فلولا أننى جعلتهما قيد عينى من النافذة لظلا كغيرهما من خلق الله الذين لا أعيرهم التفاتاً خاصا ولا أتبع النظرة اليهم نظرة» .

والذى حدث بعد ذلك :

«اعتزمت زكية بعد الذى رأته من عبدالمنعم من قلة المبالاة أن تركب رأسها ، وتلج ، فما بقى لها فيما ترى حيلة ، وقد خمدت نار الغيرة التى كانت تتلظى كنار الجحيم ذات الوقود ، وخمودها هو الشاهد أن شعلة الحب قد انطفأت وأن قلب صاحبها خلا ، والأرجح أن تكون سواها قد حلت محلها ، وتربعت ، مستقرة مطمئنة ، ولا تعليل غير هذا لفتور عبدالمنعم .

ولم يعد يرضيها ، بل يسخطها ويستثير حنقها وحردها ، أن

عبدالمنعم لم يغير عادته معها ، فلا هو يكف عن مرافقتها فى الصباح إلى الترام ، ولا هو يفوته أن ينتظرها عند إيابها فى المساء ، فإذا كان قد سلاها واعتاض منها غيرها فلماذا يفعل ذلك ؟ وما له لا يريحها باليأس ، وأمرها إلى الله ؟.. ألابد أن ينكأ لها الجرح كل يوم مرتين ؟ هل كتب عليها أن لا يزال لها منه مذكّر لا يغفل ولا يتركها تتغافل وتتشاغل وتتناسى وتتلهى ؟.. ولا يسعها كلما وقعت عليها عينه ورأت هدوءه وسكينة نفسه ورضاه عن الدنيا إلا أن تقيس هذا إلى ما كانت تعهد منه ، وإنها لقسوة أن يلح عليها بمجاملة السالى بعد غيرة المحب الثائر !

أم تراه يتعمد ذلك ليحنقها فتنفر وينتهي أمرها هى أيضا معه إلى السلوان ، أو حتى إلى البغضاء ؟ هو عذاب على الحالين كائناً ما كان مراده . ولأولى به وأرفق بها أن يدعها وشأنها ، فإن هذا كتبديل جلود الكفار فى جهنم ، وتجديدها كلما اشتوت واحترقت ليظلوا فى عذاب أليم دائم لا ينتهى . وصارت تتأخر عن موعدها عامدة حتى لا تراه كعادته واقفاً فى محطة الترام مسنداً ظهره إلى مصباح النور ويداه فى جيبيه ، فما بقيت لها قدرة على الاحتمال . وتلكأت مرة أمام دار السينما ونازعتها نفسها أن تدخل وتغيب فى جوفها ساعتين ، وإن كانت رواية غير عربية ، واحتمال فهمها لموضوعها وسرورها به بعيد ، واستهولت أن تنفق فى ساعتين أجرة يومين ، وتمنت أن يرزقها الله برجل طيب واسع الرزق ، فيقول لها تعالى يا بنتى فقد أجاب الله

سؤلك، وبعثنى إليك لتستمتعى بما تشائين ، واستهجنت أن يخطر لها مثل هذا الخاطر ، وأنكرت ، فيما بينها وبين نفسها ، أنها يمكن أن تقبل دعوة من غريب إلى السينما أو غيرها ، وطاف برأسها أن «وما له» ، وما ضير ذلك ؟!! وماذا أخشى ؟..

وخطت خطوات وهى مطرقة وإذا بجار لها يدركها وهو يلهث من العدو ويقول لها . «أين كنت؟ » فأدارت إليه وجهها وقالت بجفوة : «وانت ما لك» ؟ وتعجبت لنفسها ، وأحست أنه كان ينبغى أن تفرح به ، فإنه رفيق على كل حال ، وهو جار لها وبينهما معرفة ، فلا غرابة إذا كلمها فى الطريق ، ثم إنه هو الذى أرادت أن تكايد به عبدالمنعم وتستثير غيرته ، فما لها تمتعض الآن إذ تراه ؟، وحدثت نفسها أنها تستطيع أن تدعه يرافقها إلى بيتها ، وعسى أن يراه معها عبدالمنعم فيعرف أنها وجدت عنه بديلا ، وأنها ليست بالفتاة التى يزهد فيها الرجال إذا كان هو قد زهد ! ولكنها نحت هذا الخاطر وطردته طرداً كأنه عمل لا يليق وكأنها لم تفعله من قبل .

وفوجىء الفتى ودهش وجعل يكرر . «أنا ما لى ؟ أنا ما لى» ؟ » .

قالت · «نعم ، ما لك أنت ؟ ألا يمكن أن أمشى فى طريق إلا وتشق الأرض وتطلع لى كالعفريت ؟.. شىء بارد ! » .

فزادت دهشة الفتى ومد يده وتناول يدها وسألها : «ماذا جرى ؟ ماذا فعلت؟ » .

فانتزعت يدها منه وهى مقطبة مشمئزة وقالت : «من فضلك اتركنى بالتى هى أحسن» .

فضـــرب كفاً بكف وقال : «بالتى هـى أحسن أو بالتى هـى أقبح ، لماذا ؟.. ماذا جرى ؟» .

فصاحت به مرة أخرى : «قلت لك يا سيدى اتركنى ! ما لك وما لى؟ إن أمرك غريب ! صحيح ثقيل ! » .

وهم الفتى بكلام ، ولكنه عوجل بضربة ألقته على الأرض ، ونظرت زكية فإذا عبدالمنعم يتهيأ للإجهاز عليه ، فجرته من كمه ، وهى متعجبة وفرحة وخائفة واجفة القلب .. متعجبة لأن عبدالمنعم شق الأرض وخرج منها كما زعمت أن الفتى يفعل ، وكان آخر ما يجرى لها فى خاطر أن ترى عبدالمنعم فى هذه الناحية ، وفرحة لأنه كان متلهبا متغير الوجه كعهدها به حين تأكل قلبه الغيرة ، وخائفة لأنها خشيت أن يصيب الفتى مكروه فيقع عبدالمنعم فى بلية .

ومضت به دون أن يتلفت أحد منهما إلى ذلك الذى وقع على الأرض كالحجر ، ولم يتكلما بشىء حتى بلغا خط الترام ، فحياها وهم بأن ينصرف ، فتعلقت به وقالت له :

«ما لك ؟.. ماذا جرى ؟» .

قال : «لا شىء . لم تعد بك حاجة إلىّ ، فلا داعى لبقائى معك» .

قالت : «ماذا تعنى؟ » .

قال : «وما سؤالك هذا ؟.. ألست قد بعتنى ؟.. » .

قالت : «أنا بعتك؟ » .

قال : «أينا الذى باع صاحبه إذن ؟» .

فكادت ترقص فى الشارع ، وكبحت نفسها ، واقترحت عليه أن يتمشيا إلى البيت ليتسع الوقت للكلام ..

ولا نطيل ، وما الداعى ؟ كانت خلاصة ما علمته أن عبدالمنعم استشار رجلا مجرباً فقال الحكيم العارف بالدنيا وأسرار النفوس إنه ما قتل حب المرأة ولا نفرها من رجلها كشدة غيرته ، وإنه ما هاج حرقاتها شيء كقلة المبالاة مهما يكن ما تفعل أو ما تترك . فصدقه عبدالمنعم وراض نفسه وتحامل عليها حتى كتم أنفاس غيرته المتأججة ليبدو لزكية على حال من الفتور الموصوف المرجو الخير ، فكان ما كان من أمرهما معا مما يعرف القارئ .

أما كيف شق الأرض وطلع فتفسيره أن تأخرها عن مواعيدها أزعجه ، وأطار الوصفة النافعة ، فراح يتبعها فى ذهابها وإيابها وهى لا تراه .

★★★

هذه هى رواية «من النافذة» - والتى تتميز ولا شك بالطرافة ، واتجاه الكاتب إلى التقاط كل ما يقع تحت ناظريه من صور ليقدمها إلى قارئه على نحو فيه تشويق وإثارة بعد إضفاء فكره على تلك الصور ،

ومحاولة استكناه أعماقها ، والنفاذ إلى ما تستره - وتخفيه - من معالم نفسية ، بل ونزعات داخلية ، وذلك كله فى براعة وفنية آسرتين .

والرواية - رغم قصرها - زاخرة بالحياة ، نابضة بالحركة ، ترسم صورة ناطقة للعديد من مشاكل ومتاعب الطبقة العاملة فى أسلوب ساخر ، لا تنقصه الفكاهة ولا الشاعرية فى ذات الوقت . بل لا أجاوز الحقيقة إن قلت إنها من قصصه القليلة التى تلامس الواقع الحى ، وتتخلص إلى حد كبير من النزعة التأملية / الاستطرادية التى تلازمه فى معظم رواياته الأخرى حيث يعنى كثيراً بتعليل الأحداث ، وتحليل التصرفات ، ومناقشة الآراء ربما على نحو يفوق عنايته بسرد الأحداث .. أما فى النافذة ، فهو يصف ما يرى ، ثم يحاول بعد ذلك أن يستخرج دلالته على نحو يتفق مع ما يجرى ، وينقلنا إلى أرض الواقع كأن الكاتب - فى مرصده - عدسة الكاميرا اللاقطة التى لا تغفل ملمحاً من الملامح الا وتسجله ، وتظهره .

وخلاصة القول إن هذه الرواية - على قلة صفحاتها - تقدم نموذجاً لإبداع متفرد لرواية تجرى أحداثها فى الشوارع ، وعلى محطات الترام، وبين آحاد الناس ؛ تصف منازعهم ، وتتحدث عن مشاكلهم ، وتروى تصادماتهم وعلاقاتهم وتسجل أحاديثهم وآراءهم على نحو وإن لم يلتزم الواقعية نصاً إلا أنه التزم روحها ومضمونها ..

وأقول ان كاتبنا لو لم يكن منشغلاً بكتابة المقالات - وهى همه اليومى - وتفرغ لمثل هذه الروايات لجاء بإبداعات نادرة المثال ، فهو - كما يبدو من كل كتاباته - تغلب عليه - حتى فى مقالاته - نزعة الروائى، وملكة القاص . ولكن الحياة - ومشاغلها - لم تتح له - للأسف - مثل ما تمنينا له من تفرغ لإبداع القصص والروايات ..!

★★★

ولا نجد فى الامكان أن نختم هذه الناحية من نواحى حديثنا عن المازنى «الروائى» قبل أن نشير إلى روايته المسرحية الوحيدة : «حكم الطاعة» .

وقد قيل الكثير عن هذه الرواية . ومن أهم ما قيل إنها مأخوذة عن قصة أجنبية بل إن صفحات عديدة منها مترجمة بكاملها عن الأصل الأجنبى وهو مسرحية : الشاردة لجالسورذى .

وهؤلاء الذين كتبوا عنها ذلك انما اعتمدوا على الدراسة المقابلة - أو المقارنة - ومن ثم فأسانيدهم قوية ، ولا نستطيع لها دفعاً ولا نستسيغ هنا ما يقوله المازنى عن تعليله لهذا التوافق بأنه توارد خواطر.

غير أننا لا نهتم بهذه الناحية بأكثر من هذه الاشارة . إذ أن ما لفت نظرنا فى المسرحية أمور - أو نواح - أخرى خلاف النقل ، لأننا نرى أننا حتى لو سلمنا بأنه اقتبس الفكرة أو ترجم عدداً من الصفحات

ليس من شك فى أنه إنما اقتبس ما وافق هواه ، وأنه أضفى عليه من روحه الكثير ، ومن ثم فهو انما قدم بهذا العمل ابداعاً يمكن أن ينسب اليه وان كان النسب مختلطاً !

أما ما لفت نظرنا فهو أن المسرحية - على طول فصولها الأربعة - تبدو كابية حزينة ، لا توحى بأمل ، ولا تبشر بخير ، انما هى صفحات من القهر ، والألم ، والحياة الظالمة أو المظلمة ..

هى قصة «ليلى» التى كانت تحب أحد أقربائها - ابن خالتها حامد - وعلى ما يبدو فإن والديها آثرا عليه فؤاداً لثرائه ومكانته فى المجتمع- والمسرحية تدور حوادثها بعد ثلاث سنوات من ذلك الزواج ، فقدت ليلى خلالها والديها - وكل ما قد تعتمد عليه فى حياتها - ولم يعد لها فى هذه الدنيا من أهل سوى حامد ابن خالتها وهو شاب يقاربها فى السن لكنه فقير يكسب قوته بعرقه يوماً فيوماً ويعيش فى مسكن ينم عن الفقر والحاجة ، وتعيش فيه معه وتقوم على خدمته احدى قريباته - سيدة متقدمة فى السن تحنو عليه وتعنى بأمره فى حدود دخله الضئيل - وعلى العكس من ذلك أمر فؤاد فهو على ثراء ظاهر وله مكانة اجتماعية متميزة ، يقطن مسكناً رائعاً له حديقة .. وخلال تلك السنوات الثلاث لم يرزق الزوجان بأولاد ، كما أنهما لم يأتلفا - ولم يتآلفا - حتى لقد وصل الأمر بليلى إلى الضيق بحياتها ضيقاً ملك عليها نفسها وفكرها جميعاً حتى أصبحت لا ترى خلاصاً إلا فى الانفصال عن فؤاد - مهما

كان الثمن - حتى لو تشردت فى الشوارع - وهى تتحدث اليه فى صراحة في هذا الأمر ، وتعلنه بعزمها على ترك الحياة معه ، وهو يعارضها ، ويعلن رفضه الذى يبنيه على أسباب عملية واقعية لا شأن لها بالعاطفة أو بالأحاسيس - انه يقول لها إن هذا يضر بمكانته ، ويسيء اليه ، ولا يتفق مع وضعه الاجتماعى ، ولا يليق بمكانته ، فضلاً عما يلفت اليه نظر ليلى من أنها لا مورد لها ولا مكان يؤويها سوى بيته، ويسخر مما تقوله من أنها سوف تعمل ، لأنها لا تستطيع أن تقوم بعمل ما يعود عليها بدخل .. كما أن العمل لا يليق بها وهى زوجه وتحمل اسمه .. وتضيق هى بذلك كله ، وربما كان مصدر ضيقها أن الأمر يدور فى هذا النطاق الواقعى دون أدنى اعتبار لما ينبغى أن يكون هناك من عواطف ، وما يربط الزوجين من محبة ومودة وتعاطف واخلاص ، فليس هناك شيء من ذلك ، وهى تعلم - رأت بعينيها - أن زوجها يقبل الخادمة ، ويغازلها وربما كان الأمر يجاوز ذلك .. ويسدل ستار الفصل الأول والزوجة تترك البيت .. تصفق الباب وراءها ، وتأبى كرامة - وعزة - الزوج أن يتبعها أو يحاول اللحاق بها . ويفتح الستار فى الفصل الثانى فى منزل حامد الذى تبدو عليه مظاهر الفقر والفاقة ، وتدخل عليه ليلى فيفاجأ ، ولكنه يتماسك ، ويتلقاها مظهراً عطفه وحنانه ، معبراً عن صادق محبته وإخلاصه .. ويتحادثان .. فتحكى له أن الخادمة تبعتها ،

وصارحتها بأن «سيدها» أمرها بأن تتبعها لتعرف متجهها ، وأنها تنصحها بأن تتريث فى محطة السكة الحديد ريثما تحضر لها ثيابها فما يجدى ان تنصرف هكذا وليس لها سوى الجلباب الذى ترتديه ، ثم تصحبها بعد ذلك حتى تصل إلى بيت حامد .. وتفاجأ ليلى وحامد بعد قليل بحضور «خيرى» – ابن عم زوجها – وزوجته ثريا .. حضرا اليها ليقنعاها بالعودة .. ومن بعدها حضر فؤاد نفسه ، ويطول النقاش ، وتعلو نبرته ، ولكن دون جدوى إذ تصر ليلي على موقفها ، فينصرف زوجها ومن معه في يأس بعد أن يهدد باتخاذ اجراءاته «القانونية» .. ويسدل الستار بعد خروج هذا الجمع .. وليلى تتساند على حامد .. ويدور بينهما هذا الحوار .

ليلى يا مسكين يا مسكين .. لم يكن ينقصك هذا العبء .

حامد : بالله عليك لا تتكلمى هكذا .

ليلى : دعنى أقبلك ؟ ولم لا ؟ ألست ابن خالتى ؟

حامد . «يعطيها خده» بالطبع .. إنك أختى .

ليلى : (تقبله) يا محروم .

حامد : ليلى .. بالله عليك .

ليلى : كم سنة ؟ .. وما حاجتى إلى السؤال ؟

حامد : أووه .

ليلى : قبلنى أنت أيضا كما قبلتك .

حامد : (يحنو عليها ويهم بتقبيل جبينها ورأسها بين يديه) .

ليلى : لا .. لا .. لا . من فمى يا محروم .

(ويسدل الستار ، وهما متعانقان)

ويفتح الستار في الفصل الثالث والشرطة قد أحضرت ليلى تنفيذاً لحكم الطاعة الذى استصدره فؤاد ونفذه بقوة الشرطة ، ويطلب فؤاد الى ثريا وخيرى أن يتحدثا إلى ليلى . أن يسترضياها .. أن يزيلا من نفسيهما كل أثر أحدثته هذه الإجراءات .. ولكن ليلى تدخل عليهم .. وتتحدث إليهم .. وتصارحهم بأنها وإن كانت قد انهزمت ، وأحضرت إلى فؤاد بقوة الشرطة ، فما حضرت إلا بجسمها الذى تسلمه لمن صدر له الحكم . ولن يجد عندها إلا جثة هامدة ، وجسداً خواء لا روح

ويطول هذا النقاش المؤلم .. ويكون آخر ما تتحدث به .

ليلى . نعم ، لقد قلت لك إنهم ما حملوا إليك إلا جثة .. وسأصير جثة فهمت ؟

الجميع . (في وقت واحد) تنتحرين ؟

ليلى . (ويدها على صدرها المضطرب) نعم أو ألقى بنفسى من النافذة أو السطح أو أشرب سما ، أو أخنق نفسى .. أى ميتة .. ولا

أبقى معك . فما للقانون ولا للبوليس سلطان على الروح .. ليأخذ جثتى التى استعدى عليها القانون والبوليس .. سأرمى أنا بها إليه .. سألقى بجثمانى إليه كما تلقى العظمة للكلب منهم . (فؤاد ينتفض .. خيرى يشير إليه داعيا إلى الحلم) أما روحى فلا (يزداد اضطراب صدرها ويضعف صوتها) لا سلطان عليها إلا لله ولنفسى (بصوت لا يكاد يسمع) فقط .

(ولا تكاد تقول ذلك حتى تتهافت على المقعد مغشياً عليها .. خيرى يسرع إليها .. فؤاد يتقدم وينظر وهو مرتاب مخافة أن تكون قد ماتت).

وذلك هو ما يحدث فى الفصل الرابع ، إذ تخرج مرة أخرى من البيت . فى ليلة مطيرة . وتزل قدمها فتقع أمام إحدى السيارات ، ويحملها الشاب - قائد السيارة - إلى مسكنه - وكانت معها الخادمة . فريدة - وتقع بعض أحداث خلاصتها أن فريدة تخرج لتخبر ابن خالتها حامداً ليحضر إليها .. وفى نفس الوقت فإن ليلى تتحدث .. تفضى ببعض أحزانها .. ويناولها الشاب كأساً ، فتنفرج عقدة لسانها وتذهب تتحدث ويتأثر الشاب بروايتها ويحس بالعطف عليها . ويهتدى زوجها وخيرى إلى مكانها فيحضران . وما أن تعلم بقرب دخولهما حتى تخرج زجاجة صغيرة وتفرغ ما بها فى كأسها ، لتتناوله دفعة واحدة ، ويدخل فؤاد ، ويرى المنظر فيسىء الظن بها ، كما يندفع فى حديثه إليها ..

ولكن .. ما أسرع ما تتكشف الحقيقة حيث إن فؤاداً يصرخ فى الجميع طالباً إليهم الصمت ، وبصفة خاصة إلى الشاب .

فؤاد : (مقاطعاً بتوحش) قلك لك اسكت (ينحنى ويتناول يدها ويهزها بعنف شديد) اصحى .. اصحى يا .. ا .. اصحى .

(يمثل على الكرسى ويرتمى رأسها على مسنده) ألا تنوين أن تفيقى يا عاهرة ؟ (يشدها فتتهافت على الأرض) .

خيرى . (وقد بدأ يرتاب) إيه ؟ هل يمكن ؟ (يدنو منها وينتزع يدها من فؤاد فيحس بردها ولا يجد النبض .. يرفع رأسها ويسنده إلى الكرسى وينظر فى وجهها ثم ينتفض واقفاً ويصرخ فى وجه فؤاد) .

يا شقى ، إنها ميتة ، ويحك يا شقى يا مجرم ؟

الشاب : (مذهولاً) ميتة ؟

(يلتفت فيلمح الزجاجة على المائدة فيجرى إليها فيخطفها) أو .. و.. و.. ه ..

(يلتفتان فيمد يده بالزجاجة إليهما)

خيرى . (وهو مضطرب جداً .. يروح ويجىء والستار ينزل شيئاً فشيئاً) .. قتلها .. قتلها الوحش .. لو كان فى الدنيا عدل ..

(يتم إسدال الستار ولا تسمع البقية)

فالمسرحية - على مدار فصولها الأربعة - تنبض حزناً ، وقهراً ، وألماً .. وليست فيها بسمة واحدة . حتى عبارات وتعبيرات التهكم التى وجهتها ليلى إلى فؤاد فإنها إنما تقطر ضيقاً وضجراً ، ولا تنطوى إلا على سخرية قاسية .

والمازنى هنا يخالف أسلوبه الذى عرف به ، أسلوب السخرية المرحة والفكاهة الرقيقة حتى أنه ليتناول أعقد مشاكل الفكر بأسلوب سلس مشوق ، ولكنه هنا - فى حكم الطاعة - يخالف منهاجه المعروف ، حتى ليخيل إلينا أنه كف تماماً حتى عن مجرد الابتسام .

ترى هل نمضى مع بعض من قالوا إن المازنى حزين بطبيعته ، لم يلق فى حياته إلا كل ما يثبط الهمة ، ويضعف العزيمة ، وإنه ما التجأ إلى السخرية إلا ليدفع عن نفسه اليأس ، وليتخلص من هموم الحياة .. ومن ثم فلا غرابة أن يعود فى هذه المسرحية إلى طبيعته الحزينة ، بعد أن يكف نفسه عن «تكلف» الأسلوب الساخر ..!

ونقول لا .. وألف لا .. فالسخرية عند المازنى - فى رأينا - طبع لا تطبع ، وأصل أصيل لا مجرد محاولات قد يجيدها مرة وقد يفشل فيها أخرى .. فروحه فى كل كتاباته هى روح الكاتب الساخر ، الذى ارتفع بالسخرية إلى مقام رفيع ، ففيه فكاهة ، وفيه مرح ، ولكنه يفيض فى الوقت ذاته عمق فكر ، وحسن تصوير ، وأصالة رأى ..

ومع ذلك فقد جاءت مسرحيته على هذه الصورة غير المسبوقة من إبداعات المازنى ، بل إنه لم يعاود هذه التجربة مرة أخرى .. فلا هو ـ ـ مسرحية أخرى ، ولا هو عاود هذا الأسلوب الحزين .

والمسرحية - من ناحية أخرى - تدور حول عدم الوفاق الزوجى وما أتاحه القانون للزوج من حق استصدار حكم بإلزام الزوجة بطاعته والعيش فى «بيت الطاعة» الذى يعده لها - وقد كان مثل هذا الحكم حتى عهد قريب - قابلاً للتنفيذ بالقوة الجبرية حيث تقوم الشرطة بتنفيذه ، والقبض على الزوجة وإحضارها إلى «بيت الطاعة» وقد ألغى هــذا الوضع أخيــراً ، وأصبحت مثل هذه الأحكام لا تنفذ بالقوة الجبرية ، وأصبح أثرها مقتصراً على إعفاء الزوج من نفقة الزوجية طالما امتنعت الزوجة عن التنفيذ .

غير أن لنا أن نرى أنها وإن كانت مؤلمة وكابية إلا أنها ليست على قدر متميز من البناء الفنى المتماسك والمتنامى .. ومن ثم فهى - فى تقديرنا - لم تكن لتصلح للعرض المسرحى ، وأنها لا تصلح لغير القراءة إذ لا ننسى ما تتميز به من رصانة الأسلوب ، ورقة التعبير ، وسلاسة الحوار فى الكثير من المواضع .

أما تعليلنا لما شملها من روح الحزن ، وسادها من نزعة التشاؤم

فلعل ذلك راجع إلى حالة معينة كان يمر بها الكاتب ، أو لأنها كانت ثمرة لتجارب لآخرين عرفها أو شارك فيها بالرأى .. بل من الجائز أن تكون أثراً عالقاً بنفسه من أيام الطفولة ، فما ننسى أن أباه كان يعمل «محامياً شرعياً» ، وربما كان أصل المسرحية إحدى القضايا التى شارك فيها الوالد بجهد سواء فى إقامة الدعوى ومساندة موقف الزوج ، أو فى دفع الدعوى ، والدفاع عن وضع الزوجة .

نقول ذلك كله حدساً وتخميناً .. ونختم حديثنا بأن نقرر أن هذه المسرحية عمل متفرد فى أعمال المازنى كلها ، ووجه تفرده : أنها المسرحية الوحيدة ، وأنه العمل الذى يحمل طابع الحزن فى كل سطوره، وأنه - فضلاً عن ذلك - لا ينطوى على فكرة طريفة ، أو نظرة متميزة ، أو رأى غير مسبوق .. وأن كل ميزاته لا تعدو رصانة العبارة ودقة التعبير ، وشمول الأوصاف ، وسلاسة الحوار فى معظم المواضع .

★★★

٦ - المازنى .. وعالم القصة القصيرة :

وللمازنى العديد من مجموعات القصص القصيرة ، وقد نشرت جميعها فى العديد من الصحف والمجلات التى كان يكتب فيها .. وبعض هذه المجموعات لا تضم إلا قصصاً قصيرة ، وإن امتزجت بالصور القلمية ومنها :

- صندوق الدنيا .

- خيوط العنكبوت .

- فى الطريق .

- ع الماشى .

وبعضها الآخر ورد ضمن كتاب أو أكثر تضمن مقالات أخرى فى مواضع شتى مثل كتابه «قبض الريح» الذى ضم إلى جانب العديد من المقالات النقدية ، والاجتماعية ، بعض الصور القلمية ، والقصص القصيرة .. وكذلك كتابه «من النافذة» الذى وإن احتوى فى فصوله الأولى على قصة - اعتبرناها رواية - فإن سائر فصوله إنما هى مقالات اجتماعية ، وصور قلمية ..

وللمازنى كذلك كتاب سبق نشره وهو «الرحلة إلى الحجاز» وله كتاب - وربما أكثر من كتاب - عن رحلتيه إلى العراق وإلى الشام ، وإن كنا لم يتح لنا الإطلاع عليهما فهما لم ينشرا بعد ، وإن كنا نأمل أن يأتى قريباً اليوم الذى يظهر فيه هذان الكتابان - أو أحدهما على الأقل - إلى عالم النور .

وسوف نلقى فيما يلى نظرة على أسلوب المازنى القصصى لنتبع ذلك بعرض لبعض قصصه القصيرة :

نظرة إلى عالم المازنى القصصى :

وربما جاز لنا أن نقرر أن قصص المازنى القصيرة تجمعها عدة سمات .. لا نقول إنها تظهر بالدرجة نفسها فى كل قصصه ، ولكنك لا تخطئها فى معظم قصصه :

وأول هذه السمات حرصه على تطعيم القصة بالعبارات المرحة حيناً ، والتعبيرات الساخرة أحياناً أخرى ، فأسلوبه بارز على طول قصصه ، دال عليه ، يميز كتاباته حتى ليمكن للقارىء أن يتعرف عليها فى يسر وسهولة .

ومن هذه السمات أيضا تخيره للجوانب اللافتة للنظر من الحدث ، واختياره للحظات التى يتعرض لها ، ويعرضها .. وهو دائماً اختيار موفق ومحبب فى نفس الوقت .

ومنها أيضاً بسطه فى الحكى ورواية الأحداث ، حتى لكأنه يتحدث إلى صديق يحكى له عن أمور مرت به ولكن روايته تأتى على نحو جذاب وآسر لا يدع لك فرصة للتململ ، أو إرجاء إكمال قراءة القصة إلى وقت آخر .

وهو فى قصصه لا يلتزم دائماً بالقواعد التى وضعها النقاد لمسار «القصة القصيرة» ومع ذلك فيخيل إلى أنه وضع لنفسه قواعد أخرى التزم بها بحيث لا يقدم إلا قصصاً مشوقة ، مصاغة على نحو لافت

وجذاب ، وتتنامى أحداثها على نحو تلقائى لتصل فى النهاية إلى خاتمة ليس من المهم دائماً الا تكون متوقعة .

وعلى ذلك فإن لنا أن نرى أن نهجه القصصى كان متميزاً أو متفرداً ومبتدعاً فى نفس الوقت ، ونادراً ما يبلغ حد الإملال .. فهو دائماً يكتفى باللقطات البارزة - والموحية فى نفس الوقت - والتى تتكامل فيما بينها لترسم لنا الصورة التى أراد تقديمها وعرضها .

وقد تكون قصصه لا تحتوى إلا أحداثاً عادية - أو كالعادية - فليس فيها ما يفجؤك ، أو يروعك ، وليس فيها ما يثير أو يلهب الأحاسيس ، ولكنها - ولا شك - تحتوى على ما يسعد القارىء ويمتعه.

وهو - بعد - لا ينقل إلا من الحياة ، ولا يرسم إلا صوراً من الواقع، ولكنه الواقع المنتقى بعناية ، والمختار على نحو فنى ، يكفل أن يكون جذاباً وجاذباً ..

وهو - قبل ذلك كله - القاص الرائد ، فما سبقه من أعمال فى اللغة العربية لا تعدو أن تكون محاولات لم يكتمل معظمها .

وواقعيته ليست هى الواقعية التى ترهق قارئها بنقل العديد من التفاصيل دون أن تفلت شيئاً وكأنما هم الكاتب أن ينقل صورة فوتوغرافية للواقع الذى يصوره : فالمازنى على العكس من ذلك يقتصر فى رواية التفاصيل على ما يخدم فكرته ، ويكمل ملامح الصورة التى يهدف إلى تقديمها .

وقصصه - فى الغالب - لا تنشغل كثيراً بأمور الفكر ، أو نواحى الفلسفة ، بل تحرص على أن تتناول من الحياة جوانبها السهلة - أو على الأقل المعروفة للناس - وكذلك تبعد عن الشذوذ أو الخروج عن المألوف - بصورة لافتة - ومع ذلك فلا تعدم أن تقدم فى كل قصة فكرة طريفة ، أو نظرة صائبة ، أو رأياً حكيماً .. أو على الأقل : صورة موحية ومعبرة فى نفس الوقت .. !

وكثيراً ما يحرص فى قصصه على استعمال ضمير المتكلم ، حتى ليخيل إلى القارىء أنه هو بطل كل تلك الأحداث ، وصاحب ما يحكى من الروايات ، ولا نشك فى أن كثيراً مما كتب مستمد من تجاربه ، ومع ذلك فليس لنا أن نقرر أن ما حكاه - كله - قد وقع له كما رواه وإلا كنا بصدد تأريخ وهو ما حرص المازنى على الابتعاد عنه .. إن ما قدمه حتى عن نفسه - إنما قدم بصورة فنية ، وعلى نحو فيه من الإبداع الكثير ، ومن ثم فهو يخدعنا إذا توهمنا أننا نطالع أحداث حياته .. وإن كنا لا نشك انه ما كتبه إلا مستوحياً تلك الأحداث .

والشىء اللافت حرصه على أن يصف بطلات قصصه وصفاً لا يفلت شيئاً من ملامح الوجه أو نظرات العيون أو دقائق القد ، بل ولا يهمل حركة اليد ، أو تثنى الخصر ، أو تموج الأعطاف فإذا ما روى الحديث الذى يدور لم يفته أن يتحدث عن لهجة الصوت ، ونغمة الحديث ، ووقع

الكلمات على الأذن - أو فى القلب - وقد يجاوز فى ذلك الحد المعقول ولكن صوره تأتى فى الغالب - مقبولة وطريفة لايصاب قارئها بأى ملل.

ولعل خير ما يبرز ذلك كله ويوضحه هو هذه السطور التى نقتطفها من بعض إبداعات المازنى .

★★★

وسوف يكون من المتعذر - بالطبع - أن نتتبع قصصه القصيرة لنعرضها ، وليس مرجع ذلك فقط إلى كثرتها وتعددها ، وإنما مرجع الصعوبة فى المقام الأول هو أن تلخيص القصة القصيرة لن يكون مجدياً ، ولا ممتعاً ، ولا كاشفاً عن أعماقها ، فالقصة القصيرة - فى رأيى - عمل متكامل لايمكن إدراك أبعاده إلا بقراءته كله .. فمثل هذه القراءة هى التى تعطى القارئ الإحساس بقيمة العمل ، وتتيح له الفرصة للتعرف عليه ، ولتذوقه .. على أن ذلك لن يحول دون الإشارة إلى بعض هذه الأعمال ، واقتطاف بعض فقرات منها ، ولا نزعم أن مانشير إليه هو أفضل إبداعات المازنى ، بل جميعها مما يدخل ضمن مستواه المألوف .

★★★

ومن مجموعاته القصصية : خيوط العنكبوت ، ويفهم من إهدائها أنها ظهرت فى أبريل ١٩٣٥ أى منذ أكثر من ستين عاماً .

ومن قصص هذه المجموعة قصة تحمل عنوان «التدخين» ومن هذه القصة ننقل مايلى :

«... كنت مرة أسير فى الصباح على جسر قصر النيل ، وكان ترام الجيزة ينتهى عنده - فى الجزيرة - وكنت يومئذ مدرساً فى المدرسة السعيدية الثانوية ، فأردت أن أدرك الترام فعدوت ، فنهجت وانقطع قلبى ، واضطررت أن أقف لأستريح ، وشق علىّ أنى فى شبابى لا أستطيع أن أجرى مائة خطوة ، واغرورقت عيناى بالدموع فأخرجت علبة السجائر ، وعلبة الكبريت وألقيتهما فى النيل - للسمك ، وتوكلت على الله واستأنفت السير.

وظللت يومى هذا فرحاً مغتبطا بجد العزم وصرامة الإرادة .

وما لقيت أحداً من معارفى أو حتى ممن لا أعرف إلا وأخبرته أنى كففت عن التدخين ، حتى عامل الترام قلت له وأنا أناوله القرش :

«اليوم رميت السجاير فى النيل . يا أخى ماذا كنت صانعاً غير ذلك؟ تصور شاباً مثلى يجرى مائة متر فتنقطع أنفاسه ! هل تدخن أنت ؟».

قال : «أى والله مع الأسف» .

قلت : «لا لا .. هذه جناية على نفسك .. روح ارم هذا الدخان فى النيل» .

قال : «لا أستطيع» .

قلت : «كيف لاتستطيع ؟ ألا ترانى أمامك ؟ ألم أستطع ؟ لماذا لاتكون مثلى ؟» .

قال : «كم يوماً لك ؟» .

قلت وأنا أحك رأسى : أ ... أ ... ربع ساعة» .

فضحك وقال : «أوه ! آه ! ربع ساعة ؟ ابق قابلنى» .

قلت : «كلام فارغ» ، وانصرفت عنه نادماً على الكلام معه .

ولم أشعر فى ذلك اليوم بالرغبة فى التدخين ، لأنى - كما أسلفت - كنت فرحاً بنفسى ، مسروراً بإمضاء العزم ، وفى اليوم الثانى أصبحت مكتئباً كاسف البال مطأطىء الرأس أجر رجلى إذ أمشى ، ولم آكل شيئاً قبل الخروج كما كانت عادتى أن أفعل ، وشعرت بعطف عجيب على نفسى ، وعلى الدنيا كلها ، ورقة فى قلبى لا عهد لى بها ، فما سألنى أحد فى ذلك اليوم شيئاً إلا أسرعت فى إجابته إليه ، ولقينى متسول ويده مبسوطة فوضعت فيها نصف ريال ، وطلب زميل أن يستعير منى كتاباً فوعدته بأن أحمل إليه مكتبتى كلها فى الغد ، ودخلت فى المساء مقهى فألفيت صديقاً لى يشرب رطلاً - فما يقل عن ذلك - من الجعة ، فدفعت عنه الثمن ، فأغراه هذا الجود بأن يسر إلى أنه

يكون مسروراً شاكراً إذا أقرضته جنيها يرده فى أول الشهر الجديد ، فأشرق وجهى وقلت :

«جنيه ؟ جنيه واحد ؟ هذا ظنك بأخيك ؟ ياسبحان الله !» .

قال : «أتظن أنه كثير عليك ؟ إذن اجعله نصف جنيه .. وسأرده والله !» .

فقلت : «لا .. لا .. إنى أستقله ولا أستكثره . لقد كنت أنتظر منك أن تكون أحسن بى ظناً من أن تكتفى بجنيه» .

قال – وقد لمع فى عينيه نور البشر :

«نقول جنيه ونصف ؟ .. أو .. ربما استطعت أن تستغنى عن اثنين مثلاً ..؟» .

قلت : «هل يكفيك خمسة ؟ أو عسى أن تكون حاجتك أشد .. فلنقل عشرة جنيهات .. قانع ؟ حسن إذن ! سأسبقك إلى البيت .. فمر بى لأعطيكها ..» .

وخرجت أمشى عائداً إلى البيت ، فقابلت صديقاً دعوته إلى العشاء فى منزلى أيضا ، فلما صرت فى غرفتى عاودتنى الكآبة ، وثقل علىّ الإحساس بأن كل شىء ينقصنى ، وضاق صدرى ، وساورتنى هموم غامضة . فجعلت أتمشى وأنا مضطرب ، وكانت حركاتى جادة ، عنيفة، ولمحت كرسياً فى زاوية فسرت إليه فجعلت أركله حتى قذفت به خارج

الغرفة ، ودخلت الخادمة عليّ تسألني ماذا صنع الكرسي ، وبأي شيء استحق هذا مني ، فقبضت على عنقها ، وكدت أخنقها ، فلولا أنها تخلصت - لا أدري كيف ؟ - لما تركتها إلا ميتة ، ولم تبق في نفسي ذرة من العطف على أحد من خلق الله ، وتمنيت كما تمنى نيرون - أم ترى غيره الذي تمنى ذلك؟ - أن يكون لأبناء آدم جميعاً عنق واحد ، فأضربه بالسف، ونظرت إلى الكتب على رفوفها فعبست، وأقسمت لأؤدبن ذلك الذي اجترأ أن يستعير أحدها .

وصفق في فناء البيت صاحبي الذي وجدته في البار ، ووعدته أن أقرضه - أو أهبه ، فقد كان المؤدي واحداً - عشرة جنيهات ، فأشرفت عليه من النافذة وسألته عما يريد . فقال :

«هات الأمانة يابطل ، وأكثر الله من أمثالك».

قلت ، وأنا أتميز من الغيظ : «أي أمانة ياحمار؟»

فقال ، ووجهه إلى فوق ، ويسراه تسند طربوشه من الخلف لئلا يقع:

«الله يسامحك ، طيب ، هات بقى».

قلت : «ألا تنوي أن تخرج؟»

قال : «لا بأس . إذا كنت تريد أن تنزل فارم الأمانة في منديل»

فتناولت كرسياً قريباً وقذفته به، فخرج يعدو وهو يسب ويلعن.

وبعد برهة دخل صاحبى الثانى الذى دعوته إلى العشاء ، وصفق كالأول ، فأطللت من النافذة ، وفى عزمى أن ألقى على رأسه زهرية فأحطمهما معاً ، ولكن عينى أخذت سيجارة فى فمه ، فارتددت عن النافذة وهبطت إليه كالحجر الساقط ، ودفعت يدى فانتزعت السيجارة من فمه ، وارتميت على كرسى ، وقعدت أدخن ، فنظر إلى مبهوتاً ، ودنا منى، وهم بأن يقول شيئاً فرفعت يدى وقلت .

« هس .. ليس الآن .. انتظر لحظة .. حتى أدخن هذه السيجارة..»

وجعلت نفسى تعود إلى شيئاً فشيئاً ، وأسارير وجهى تنبسط ، وفرغت السيجارة فقلت :

«هات أخرى .. هات بالعجل».

فلما دخنت نصفها ابتسمت راضياً عن نفسى ، وعن الدنيا ، ونهضت أقول.

«أهلاً وسهلاً .. ياألف مرحب .. تفضل».

وصعقت الخادمة المذعورة ، وفى ظنها أنى سأبقر بطنها على الأقل ودخلت على حذر ، غير أنها أبصرتنى وسمعتنى أمزح ، فاطمأنت ، وناولتها ريالاً، وقلت ·

«هاتى سجاير .. هاتى به كله .. حالاً».



وهكذا يرسم صورة لأثر السيجارة ، وما تسببه محاولات الإقلاع عن التدخين من انعكاسات نفسية تبدو مظاهرها فى كل تصرفات من يحاول ترك تلك العادة ، ولا ندعى أنه يتحدث عن تجربته الشخصية ، ولكنه كان يستوحى ولاشك بعض تجاربه فى هذا الصدد ويصوغها هذه الصياغة الموفقة التى تجمع بين حسن العرض ، وتسلسل الأحداث ، وعمق الفكاهة فى ذات الوقت، وهو يرسم صورة حية، نابضة، معبرة ، ومحببة لا يمكن لمن يقرؤها أن ينساها ، أو تغيب عن ذاكرته وبصفة خاصة إذا كان ممن تأصلت فيهم عادة التدخين..!

★★★

ولقد توقفت طويلا أمام قصة «محاورة» التى تضمها ذات المجموعة فى محاولة لأختار بعض فقراتها ، ولكننى عجزت ، فهى فى مجموعها عمل متكامل لا يمكن تجزئته .. وهى فضلا عن ذلك قصة طريفة تجمع بين طرافة الفكرة وطرافة العرض وطرافة الحوار ، وبين طرافة الأسلوب وفكاهته كذلك .. فلنطالع معا قصة «محاورة» من مجموعته خيوط العنكبوت ضمن قسمها الثانى · «صور من اليوم» :

محاورة

«هل تعلم أنك أنستنى .»

«كلا» .

ونفخ الدخان وحنى رأسه ، وهو ينفض رماد السيجارة ، وقال متمما أو مستأنفا الكلام :

«ثم أن هذا لا يعنينى» .

فلم تسؤها هذه الصراحة وابتسمت له وقالت ..

«ولكنى أرتاح إلى مجالستك .. حقيقة » .

فسألها دون أن يبدى اكتراثا .. «لماذا بالله ؟» .

فأجابته بسؤال .. «ألا ترتاح أنت إلى مجالستى؟» .

فقال : «لا تطمعى أن تفتنينى . وإن كان لك وجه .. وأقول لك الحق إنى أشد ارتياحا إلى طعامك ؟» .

فضحكت ، وعاد هو إلى الكلام فقال :

«وعلى ذكر الطعام، لقد فرغنا منه منذ أجيال ، فإلى متى نظل قاعدين إلى هذه المائدة بعدما رفع عنها ما كان عليها؟ أهى قاعدة عندك ألا تدعى ضيفك ينهض حتى يهضم ما أكل؟»

«ألم أقل لك أنى آنس بك وأسكن إليك».

«مناوشة . سأهرب اذن . على الأقل إلى الشرفة».

ونهضت وراءه وهى تقول.

«لا تخف فإنى مثلك لم يعد لى قلب يؤسر . ولو أمهلتنى لكنت قد بينت لك أنى أرتاح اليك لأنك لا تحاول أن تسبينى».

وجلسا على الشرفة وانطلقا يدخنان فى سكون ثم قال :

«سبكتك النار؟ هه».

«أما سبكتك أنت؟»

فلم يجب بلا أو نعم ، وعادت هى تسأله بعد لحظة:

«ولماذا تخلت عنك؟»

«لم تتخل عنى ولكن مللتها»

فظهرت على وجهها أمارات الاستهجان وسألته وهى مقطبة:

«كيف ؟؟ ماذا تعنى؟»

فلم يكترث لتهجمها وقال بلهجة السأمان.

«أوه . أخرج مكرها حين يحلو لى أن ألازم البيت ، وأضطر إلى السهر واحياء الليل على حين يحن رأسى إلى الوسادة، وأذهب إلى دور السينما ومسارح التمثيل لأشهد ما لا أريد أن أراه .. إلى آخره إلى آخره..»

«أنا أيضا كادت تجننى الحيرة والخوف والقلق و..»

فقاطعها قائلا : دعينا .. ان الحب مرض والسلام . خبل يصيب المرء حينا ثم يبرأ وينجو إلى الأبد.

فأطبقت فمها ولم تجب ، كأنها لم تسمع وبعد لحظة سألته:

«كيف كانت تلك التى أملتك ؟ حدثنى».

«جميلة».

«ولهذا مللتها؟»

«ولكنك أجمل منها»

«حاذر!»

«اطمئنى . نعم أنت أفتن عينا وجيدا . جيدك ساحر ! ليتك ترينه؟ وفمك على الخصوص - شفتك العليا مغرية التقويس . وكأنى بها تهيب بالناظر إليها أن يهوى بالقبل عليها».

«ياصاحبى إنك توشك أن تفسد الأمر . ان لذة صداقتنا فى خلوها من الحب ، كما تقول ، فاحذر النكسة فانها شر من المرض».

فأشار بيده مستخفا وقال.

«لا تراعى: إذا كان كل ماتخافين هو الانتكاس، فأنت آمنة . ثم انه يجب علينا أن ألانخلط ، فان كونى غير قابل للحب ليس معناه ولا من مقتضياته أن أبخسك حقك وأن أذهب أزعم أنك دميمة بغيضة لا لسبب سوى أن تطمئنى، ووصف جمالك ليس معناه وصف حبى».

فاحمر وجهها وقالت كأنما تحاول أن تستدرجه ·

«اذن ما معناه؟»

«معناه انى أنظر اليك كما أنظر إلى صورة بديعة أو تمثال رائع الحسن، ولو غيبت الصورة أو التمثال عن عينى، لما آلمنى ولا حز فى

نفسى، ولا استوحش قلبى، كذلك أنت. يعجبنى حسنك ويحلو لى أن أصغى إلى صوتك شهرا كاملا بلا انقطاع ، ولكنك لو اختفيت فجأة - ابتلعتك الأرض أو صعدت إلى السماء - لما افتقدتك . قد تكون هذه الصراحة سوء أدب ولكنه ليس أعون منها على بقاء ودنا صحيحا وصداقتنا سليمة من الأمراض . أنا أعجب بمحاسنك وأثنى على جيدك وفمك وأنت تفتنين بأدبى . وأنا أتحدث عن سحرك وظرفك بلا تأثر وأنت تأنسين بى كما تقولين من غير أن يدور رأسك . فهل شىء أمتع من هذا»؟

فقالت بعد فترة سكوت .. «ولكن أليس من حقنا وواجبنا أن نخشى أن تتسرب الصداقة الجافة فى الحب المضطرم».

فقال : « لاخوف على الإطلاق . أنت واحدة من مائة ألف لا تعبأ بالرجال ، ولا تريد أن يحبها أحد . وأنا لعلِّى الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يغالب فتنتك ويصرف عن نفسه سحرك . وفى وسعنا أن نتناول كل موضوع وأن نتحدث فى كل شىء من غير أن يسىء أحدنا فهم صاحبه » .

فقالت وغمزت بعين : « ألا تعلم أن بعض الناس يتحدث عنا كأننا خطيبان » .

فقال : « لأنهم يروننا متفقين » .

قالت : « من يدرى ؟ إننا نظن أننا متفقان ، ولكنا قد نكون أشد تباعدا من .. من .. » .

قال : « إن الحديقة تبدو جميلة فى جملتها والمرء يستطيع أن يأخذ حسنها بنظرة ولكن من بعيد ، وهو خارج عنها ، والحياة على كل حال كشريط السينما ، وصداقتنا هذه فصل ممتع . أما الزواج فخاتمة » .

ونهض ووقف متكئا على سور الشرفة ثم سألها :

« ماذا نصنع غدا ؟ » .

« وما حاجتنا إلى صنع شىء ؟ » .

« نجلو مبدأ الصداقة » .

قالت : « أشكرك » .

قال : « العفو » .

وبعد فترة قالت :

« أظنك محقا . فلنبكر غدا ولنخرج إلى الأهرام » .

قال : « يجب أن نتفاهم . فإن الظهر هو الوقت الذى أفتح فيه عينى على الدنيا » .

قالت ونهضت إلى جانبه : « الظهر ؟ عن أى شىء تتحدث ؟ إما أن نخرج فى الفجر أو فى المساء » .

فالتفت إليها مستغربا وقال : « الفجر ؟ لعلك تحسبيننى من الطيور».

فعادت إلى كرسيها وقالت . « معذرة ؟ سأبحث عن رفيق آخر » .

ففتل شاربه وقال بتؤدة · « إذا سمحت لى أن أرشح ابن عمك ؟ » .

فأرسلت في الظلام نظرة حالمة وقالت : « إن من المصيبة أنه سيعد دعوتى دليلا على .. على .. ويتخذ من ذلك مسوّغاً لمضايقتى » .

قال · « هذا شىء يكون ثقيلا على النفس » .

فقالت : « إنك تدرك ما فى هذا الموقف من الثقل فهلا كنت لطيفا؟».

قال · « وكيف أكون كذلك ؟ علمينى » .

قالت . « تحمينى من ابن عمى » .

قال : « هذا عجيب . ولكن كيف ؟ إنى بطىء الذهن » .

قالت : « تصحبنى أنت . إنك متى استيقظت من نومك فى الفجر لا تعود تشعر بالحاجة إلى النوم » .

قال . « صحيح . لقد سمعت هذا من قبل . وأستطيع أن أؤكد لك أنى مقتنع . ولكن المسألة هى أن أستيقظ » .

فقالت : « اختر الوقت الذى يناسبك » .

فانثنى إليها وقال برقة : « يا فتاتى المسكينة لن أفسد عليك نزهتك إذا كنت تحبين أن تخرجى فى الفجر فليكن ما تشائين » .

فوضعت كفيها على كتفيه وقالت : « أوه . ما أحلى هذا . إن لى عمرا وأنا أشتهى أن أخرج فى نزهة كهذه ساعة الفجر . سيكون

الطريق خاليا - ملكا لنا - وتسرع بالسيارة . تخطف بها الأرض وتجعل قلبى يثب إلى حلقى . ما أبدع هذا » .

قال بابتسام : « حسن . سأقف ببابك الساعة الثالثة وأنتظر ربع ساعة فإذا تأخرت عدت إلى سريرى » .

★★★

فى فجر اليوم التالى كانا ينهبان الأرض بالسيارة ، فلما جاوزا الجيزة مالا إلى شجرة وأخذا يدخنان ثم قال ·

« هل صدقت ما قلته لك من أنى ؟ » .

فلم تمهله وقطعته بقولها « كلا . و . و ..

فقال مقاطعا بدوره « ولا أنا صدقتك ، إن الرجل الذى يحبك ثم يستطيع أن يدعك لابد أن تكون به لوثة » .

فقالت : « هل تغفر لى أنِّى كنت أفتح لك بابا بعد باب وأكاد أضع الكلام فى فمك » .

فمال إليها وأهوى على فمها وهو يقول ·

« يا ساحرة . لقد كافحت وقاتلت شهورا ثم انهزمت . وكنت أحس إذ أراك أن فى جنبى سيفا وأقسمت أمس أن أخرج من نارك بسلام ومن غير أن تحترق شعرة من رأسى . ولكنى أخفقت » .

قالت . « لقد فعلت ما أفعله من قبل وما لم أكن أحلم أن فى وسعى

أن أفعله . أغرقت كبريائى ودست غرورى وخنقت احتراسى لنفسى .
عرضت عليك كل مفاتنى ، أفرغت روحى فى نظراتى - فى صوتى -
فأخفقت ولم أدر أنى ظفرت إلا هذه الساعة » .

تلعثم فمها فصاحت به : « احذر فإن الحب مرض . وقد أعديتك » .

فقال : « أيتها الطفلة الخبيثة . إنى أنا الذى أعديتك به . لقد ظللت منسابا به منذ شهور ولكنى لم أتبين حقيقته إلا .. » .

فسألته مقاطعة : « متى ؟ قل لى » .

فقال : « فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة من صباح اليوم » .

★★★

وفى مجموعته « فى الطريق » قصص فى غاية الطرافة والإمتاع - ظهرت هذه المجموعة فى عام ١٩٣٦ - ، وما أكثر ما يلفت النظر فى هذه المجموعة من صور ومن قصص تلذ القارىء وتستثير رضاه وإعجابه ..

* ففى مستهل قصته « الكآبة » نقرأ :

« يقول بعض الأطباء بلهجة الجزم التى لا تردد فيها ولا تلعثم ، إن حيوية الجسم الإنسانى تكون أدنى ما تكون بعد منتصف الليل . وفى تلك الساعة العصيبة ، يعجز العقل عن تدبر الحاضر بسكينة ورضا ،

واستشفاف المستقبل بشجاعة ، ورجع البصر فى الماضى بغير أسف .
ولكن كل امرىء غير هؤلاء الأطباء يعرف أن ساعة الكآبة والهبوط لا وقت لها ، وأنها قد تكون الأولى صباحاً أو الثانية مساء . كما قد تكون فى العصر أو الغسق . فليس لها ثبات ولا أوان معروف ، وأن ساعتها قد تكون ثوانى أو دقائق – وقد تمتد وتطول ، فينطوى فيها الليل والنهار جميعاً والعمر أو خيره فى بعض الأحيان . ومهما يكن من ذاك فإن المحقق على كل حال إن كاتباً مثلّى لا يسعه إلا أن يشعر وهو يتأمل (سعيداً) بقصوره وعجزه .. فإن مثل هذه الكآبة لا يستطيع أن يوفيها حقها سوى مجمع من إعلام إلينا .. وشر ما فيها أنك لو سألت (سعيداً) نفسه عنها ، ما سببها أو داعيها لما وسعه أن يعلّله .. ولكان الأرجح أن يتعجب لها ، فقد كان حسن الحال ، ميسر الرزق . ولا نكران أنه يكدّ ويتعب فى سبيل الرزق .. وكان فوق ذلك ذا زوجة صالحة فيها رقة وجمال وأدب وحذق ولها عقل ، وكفى بهذا نعمة .. » .

ثم يمضى بعد ذلك يتحدث عن حالة الكآبة .. وأحداثها .. وتطوراتها .. فى تسلسل آسر (رغم أن الكآبة هى موضوعه) .. يصور تلك الحالة التى كثيراً ما تصيب المرء ، وتسيطر عليه رغم انعدام أسبابها أو دواعيها .



وفى قصته «حواء والجنة» نطالع هذه السطور:

« رفعت جليلة رأسها قليلاً عن الرمل ، ونظرت إلى صدرها الذى يعلو ويهبط ، وجلدها الذى دبغته الشمس ثم مدت بصرها إلى ساقيها وإلى أصابعها التى عنيت بصبغ أظافرها ، وابتسمت ابتسامة الرضا والاغتباط ، ثم ردت رأسها راقدة وتركت الشمس تفعل فعلها فى جسمها العارى من الصدر إلى الردفين ومن الساقين إلى الأخمصين ، وكانت هذه عادتها كلما جاءت إلى الاسكندرية .. تخرج كل صباح من الفندق فى ثياب الاستحمام ، فتلقى بنفسها فى الماء فى هذه الناحية المنعزلة وتسبح ما شاءت قريباً من الساحل ، ثم تخرج إلى الرمل ، وترخى ما على صدرها من ثوب البحر ، وتعريه للشمس ، لتفيد ما قيل لها أن أشعة الشمس تفيده من الصحة والعافية . ولم تكن تلقى أحداً فى هذا المكان أو تخشى أن يتطفل عليها فيه مخلوق ، لبعده وضيقه واحتجابه وكثرة ما يحيط به من الصخور » .

ولمحت زورقاً شراعياً يشق الماء من بعيد فنهضت واتكأت على كوعها ، وراحت تنظر إليه تارةً وإلى أظافر قدميها المصبوغة تارةً أخرى، ثم أرهفت أذنيها ، فقد خيل إليها أنها سمعت صوتاً يشبه صوت تكسر العود داسته قدم .. فنسيت أظافرها وانطرحت على بطنها وعينها إلى الناحية التى تأدّى إليها منها الصوت ، فما لبثت أن سمعت

وقع أقدام - أو قدمين على الأصح - فما أسرع ما جلست على ركبتيها، ورفعت الثوب فغطت صدرها . وكانت أصابعها لازالت تعمل فيه لتربطه ، حين وقف أمامها رجل وسيم معتدل القامة حسن البزة عارى الرأس ، فحدقت في وجهه .. فقد وقف مفتوح الفم كأنما بهره جمالها ثم قال : « أرجو المعذرة » .

فلم تقل جليلة شيئا ، وظلت قائمة على ركبتيها تنظر إليه ، فضحك فجأة ، وبلا مناسبة ظاهرة ، ثم كف فجأة ، وقال: « أرجو المعذرة .. لكأنك حواء تصلِّى فى الجنة » ، فقالت بلهجة امتزج فيها الغضب بالسرور المكبوح : « ماذا تعنى بحواء والجنة ؟ » .

قال : « من الاتفاق الغريب أن اسمى آدم ، وقد كنت وأنا ماش أتوقع - أخشى فى الحقيقة - أن ألقى حيه .. ولكنى على التحقيق لم أكن أتوقع أن التقى بحواء » .

وضحك مرة أخرى ، فقالت بحدة : « ليس اسمى حواء » . فقال بابتسام : « هل لى إذن أن أسأل ما اسمك ؟ » .

قالت : « كلا .. لن أخبرك » قال : « إذن سأسميك حواء ، فإنه أليق ما يكون .. وليت من يدرى هل كان لحواء بحر كهذا فى الفردوس ؟ » .

ونظر إلى البحر ، ولكنها ردته بقولها : « سمِّنى ما شئت ، فإنى

راجعة إلى الفندق » وهمت بالنهوض ، فقال . « سأرافقك إليه فإنى نازل فيه إذا كان هو هذا ، وأشار إلى ناحيته ..

ولكنها لم تذهب ، بل وقفت وقالت ، وقد جنحت إلى العناد : « بل سأبقى هنا » ، فوافق الرجل ، وقال بسرور : « حسن جداً .. سأبقى أنا أيضاً .. لأسلّيك وأونسك فى وحدتك .. » .

فهزت جليلة كتفها هزة خفيفة ، وعادت إلى الرمل فجلست عليه ، فجلس مثلها بثيابه الأنيقة ، وراح يجيل عينه فى مفاتنها .. » .

ثم تتطور الأحداث على نحو ناعم وظريف .. مما لا نجد مبرراً لتلخيصه فما أردنا سوى أن نبرز أسلوبه فى تناول الأحداث ، وتقديمها إلى القارىء فى خفة ورشاقة وأناقة ونعومة دون أن تفارق الرواية روح الفكاهة التى تشيع فى كل سطورها .

★★★

وقصته «النسيان» .. تجرى سطورها على النحو التالى :

(النسيان)

- إنك قاس ..

- أنا ؟ .. يا خبر اسود .. وهل فى هذه الدنيا الطويلة العريضة من هو أرق منى قلبا ؟

- ولكنه أبى .. وأنا أتألم .

- أعرف أنه أبوك .. وأعرف أيضا أنه نادر ، وأنه منقطع القرين .. أيكفى هذا الثناء أم تريدين الزيادة ؟ يكفى ؟ حسن .. ولكن ذهوله يضحك الثكلى ، فماذا أصنع ؟ .. ما حيلتى ؟

فقالت الفتاة بلهجة مبطنة بالعتاب : « ولكن هل من الضرورى أن تقلده ؟ إن هذا هو الذى يسوءنى منك » .

فقلت : « فكرى يا فتاتى .. قولى لى كيف يمكن أن أقص عليك الحكاية وأصف لك ما حدث بغير ذلك .. إنى لا أريد تقليده ، ولكن الصدق فى الرواية والفن فى عرضها يتطلبان ذلك .. بل يجىء منى التقليد عفوا وعلى غير عمد » فاقتنعت أو هى لم تقتنع ، ولكنى كنت قبل أن يدور هذا الحوار ، قد شرعت أقص عليها حادثة جديدة من حوادثه التى لا آخر لها .. فلما احتجت إلى تقليده فى بعض مواقفها ضحكت ، ثم انقلبت تعاتب وتستهجن التقليد وتعيب المحاكاة . وهذا بعض ما يحيرنى من المرأة ، فقد كان ضحكها وعتابها فى وقت معا ، وكانت تضحك وتشير إلى بيدها منكرة ما ترى وتسمع منى .

وقد عرفتها من أبيها ، وبفضل ذهوله العجيب ، وكانت تخرج معه لتقيه عواقب ما يقع منه . فكأنها وهى ترافقه وتروح وتجىء معه ، ذاكرته الذاهبة . واتفق يوما أن نسيها - نعم نسيها - وخرج وحده ، واهتدى - لا يدرى أحد كيف !! - إلى ناد لم أكن أعرف أن مثله

موجود فى بلادنا ، فإن حياة الأندية طارئة وعهدنا بها حديث جدا .
وكنت قد دعيت فى تلك الليلة إلى زيارة هذا النادى ، وقضاء بعض الوقت فيه .. وكان الذى دعانى يرجو أن أنضم إليه ويحثنى على ذلك ويزينه لى ، وأنا أتأبى وأبين له أن حياة الأندية فى مصر جافة ثقيلة ، وأنها قلما تكون إلا حياة مقامرة أو ما أشبه ذلك ، فيضحك منى وينفى ذلك ويقول : «تعال أنظر بعينك ثم احكم » فذهبت وكان أول من لقينا هذا الشيخ ولم أكن أحتاج إلى من يعرفنى به ، فإنه صديق قديم .. فأقبلت عليه وجلست معه فصفق ، فلما جاء الخادم نظر إليه مستغربا ثم إلى أنا مستفهما . فقال الخادم ، وكان يعرف ذهوله : «هل تريد شيئا يا بك ؟».

فقال البك : « أ .. أ ... أريد .. أريد .. ماذا أريد ؟ » .

فكتمت الضحك ، وقال الخادم . « لقد دعوتنى يا سيدى فهل أجىء لك بقدح من الويسكى ؟ » فنسينى وقال · « أ .. أ .. نعم .. نعم .. أ .. نعم نعم نعم .. » .

وذهب الخادم وعدنا إلى الحديث الذى لا يكون معه إلا محاورات ولفا من هنا وههنا ، بسبب هذا الذهول الذى أصيب به . فقال بعد كلمات : « ولكنى أهملك .. إن هذا لا يليق .. اعذرنى .. لقد نسيت أن أدعو الخادم » .

وصفق مرة أخرى ، فلما جاء الخادم لم أقل شيئا انتظارا لما يكون

منه ، فقال له : « أ .. يا خليل .. هل طلبت منك شيئا ؟ »

فقال الخادم : « نعم .. قدحا من الويسكى » .

فسأله : « هل جئت به ؟ أعنى .. » .

قال : « لا يابك .. سأجىء به حالا » .

ومضى عنا فصفقت أنا وطلبت ما طاب لى ، فمال علىّ الخادم وهمس فى أذنى : « إذا سمحت لى يابك فإن اسمى عبده ، ولكن البك ينسانى ويطلق على كل يوم اسما جديدا » .

وسألنى الشيخ المسكين بعد أن ذهب الخادم . « ماذا يريد هذا الرجل ؟ » . قلت : « لا شىء .. كان يقول إن اسمه عبده لا خليل » .

قال : « من هو ؟ » .

قال : « الخادم » . قال · « ماله ؟ » . قلت · « اسمه عبده » . قال : « عبده ؟ » قلت : « نعم » . قال · « من عبده هذا ؟ » . قلت : «الخادم».

وأحسست أنه سيعود فيسألنى : « ماله » وكان الويسكى قد أقبل به الرجل فقلت له : « آه .. هذه كأسك .. ومعها كأسى أيضا » .

فنظر إلى كأنه لا يفهم ما أقول وسكت أنا ، فما أدرى ماذا يدور فى نفسه . وطال الأمر ، فشعرت بالضيق .. فليس مما يخف محمله على النفس أن ترى غيرك يحدق فى وجهك ولا يطرف . فنظرت إليه مستغربا ، ولكنه كان كأنه لا يرانى وخيل إلى أنى فى طريق نظرته ،

فتزحزحت عن مكانى إلى الوراء قليلا وبقى هو ثابت الحملاق لا يشعر بى ولا بحركتى ، فحولت وجهى إلى حيث ينظر فلم أر شيئا - أعنى أنى لم أر ما يستوجب هذا التحديق كله - فتركته لشأنه حتى يثوب إلى ويمل طول النظر .

وبعد هنيهة ، قال وكأنه يحدث نفسه : « لم أر فى حياتى إنسانا يأكل هكذا » .

فدهشت وقلت : « إيه ؟ كيف ؟ » .

فأهمل سؤالى - أو لعله لم يسمعه - وسألنى هو : « هل تعظم اللقمة وتبلعها بلا مضغ ؟ » .

فزادت دهشتى ، وقلت : « كلا بالطبع .. من قال لك إنى أصنع ذلك؟ » .

قال : « خفت أن تكون ممن يفعلون ذلك .. ليس أضر على المعدة منه .. » . فسكت ، فقد استطردنا إلى حديث لم يكن لى فى حساب ، فعاد يقول : « كلا .. لا تفعل .. احذر .. .. » .

فقلت ، وقد مللت : «ما الذى يجرى ببالك هذا السؤال ؟ » قال : «إيه ؟ .. أى سؤال ؟» . قلت : « المضغ والبلع ، ولا أدرى ماذا أيضا». قال : « ألا تمضغ طعامك ؟ . قلت : « بالطبع أمضغه .. لماذا تسأل؟ » .

قال : « خفت ألا تكون تمضغه .. لقد كان الطبيب يوصينى أن أمضغ اللقمة اثنتين وثلاثين مرة أو ثلاثا وثلاثين لا أدرى .. الزيادة احتياط ينفع ولا يضر .. هل تفعل ذلك ؟ » .

فقلت لنفسى إن النسيان فى ذاته وبمجرده ثقيل وبلاء عظيم ، ولكنه يكون أعظم وأثقل إذا ألحَّ على المصاب به خاطر واحد يحوم حوله العقل ولا يقع ولا يستقر ، فأردت أن أصرفه عن ذلك فسألته هل له فى كأس ثانية من الويسكى ، وحدثت نفسى وأنا أسأله أن رؤيته مخمورا لا يكاد يعى ما يقول أفضل وأشبه بما ينبغى ، وأقل استدعاءً للعجب والاستغراب من تخليطه وهو مفيق صاحٍ . ولكنه ردَّ على سؤالى بسؤال أذهلنى ، فقد قال مستغربا : « وهل شربت ويسكى ؟ » ووجه العجب فى كلامه أنه لم يشعر بالتأثير المألوف للخمر ، فكأنه لا يسكر لأنه ينسى أنه شرب شيئا . ويظهر أن نسيانه هذا يعفيه من تأثير الخمر وينجيه من أسكارها ، وصار السؤال الذى يحيرنى هو : « إذا كانت الخمر لا تؤثر فى نفسه أو جسمه أو عقله ، فلماذا يشربها ؟ » .

وبدا لى أن خير ما أصنع هو أن أعود به إلى بيته ، فاقترحت ذلك فوافق ونهضنا . وحملته فى السيارة إلى هناك .. ولم يكن ينسى أين يسكن ، ولكن الموقع كان يغيب عنه أحيانا وتخونه ذاكرته فيقف حائراً لا يدرى ماذا يصنع حتى يتذكر أو يلقى من يعرف البيت فيسأله ويدله عليه أو يمضى به إليه .

وكانت بنته فى النافذة تنتظر أوبته وهى قلقة خائفة عليه .. فأسرعت إلى الباب تفتحه ، وكانت ذكية فلم تعاتبه . وما جدوى عتاب من لا يتذكر شيئا ؟ .

ودخل غرفته ونسينى مع فتاته ..

وقالت لى : « ماذا حدث ؟ .. لا تدعنى معلقة .. طمئنى » قلت : «كل خير .. » وشرعت أصف لها ما وقع منه وأقلده وهو ينظر إلى الرجل الأكول المبطان الذى يعظِّم اللقم ويبلعها بلا مضغ ، وقلت لها بعد ذلك : « إننى أحسد أباك فما أشك فى أنه قد نسى كل ما يجب أن ينساه المرء من متاعب الحياة ومنغصاتها لو كان إلى هذا سبيل غير الذهول».

قالت : « إنى أخشى أن ينسى اسمه فلا يعود يعرف من هو ، ألا تكون هذه مصيبة ؟ » . قلت : « يا فتاتى إنه ليس أحمق ولا أقل عقلا ممن يحمل همَّ المصيبة قبل نزولها .. دعى هذا إلى أوانه وعسى ألا يجىء . ومع ذلك هل أنت واثقة أنه يعرف اسمه ؟ . من يدرى ؟ .. أمن أجل أنَّا لا نسأله عنه يكون عارفاً ؟ » . قالت : « لا تفزعنى » . قلت : « إنما أردت أن أبين لك أن ما تخافين ، لو وقع لما كان شرا فى الحقيقة أو أدهى مما هو حاصل الآن ، فلا تزعجى نفسك بلا موجب . وعسى ألا يكون إلا كل خير .. والآن فلنتكلم عن شىء آخر .. شىء أحلى من

أبيك وإن كان يكفيه من الحلاوة أنه كان له هذا الفضل العظيم على الدنيا التى تجملينها يا فتاتى » .

فقالت وهى تضحك : « إنك لا تعرف إلا موضوعين حين تكون معى .. أنا وأبى » . قلت : « وأنا .. أليس لى حساب عندك ؟ ألا أصلح أن أكون موضوعا ثالثا معكما ؟ » . قالت : « بالطبع .. ولكنك لست شيئا ثالثا .. موضوعك هو موضوعنا .. فهما يبقيان اثنين ليس إلا » .

قلت بابتسامة أردت أن يكون لها معناها . « صحيح ؟ بالذمة ؟ » . قالت . « يا خبيث ليس هذا ما أعنى » . قلت : « هذا الذى لا تعنينه ، ما هو ؟ » . قالت : « طيب اسكت بقى » . قلت : « سكتنا ياستى » ومددت يدى إلى كفها الرخص وأطبقت عليه أصابعى الخشنة ، فتركتنى هنيهة ثم سحبت كفها فنظرت إليها فقالت : « أو لا تسكت ؟ ».

فلم أتكلم وأشرت إلى فمى المطبق فضحكت ، فهززت رأسى موافقا أن أبتسم ، فعادت إلى الضحك ، فعدت إلى إشارات الاستحسان والرضا ، وتكرر هذا مرات ، فصاحت بى « ألا تنطق ؟ .. أين لسانك؟ » . فقلت وأنا أنظر إلى السماء - أعنى إلى السقف فقد كان يحجب السماء : « حرت والله معك .. أسكت طوعا لأمرك فلا يرضيك الصمت . وأتكلم امتثالا لمشيئتك فلا يروقك الكلام ، فماذا أصنع بالله ؟ .. كونى منصفة » .

فضحكت ، فقلت : « عندى اقتراح » . قالت : « ما هو ؟ » . قلت : «هناك ما هو أبلغ من كل كلام وأحسن من الصمت أيضا وإن كان مما يحوج إليه ولا يتيسر الكلام معه » .

فزوت ما بين عينيها ، وقالت : « ما هذا ؟ » .

قلت : « هل أفهم من تقطيبك أنك غير موافقة سلفا ؟ » . قالت : «لست مقطبة ، ولكنى أفكر » . قلت . « لماذا تتعبين هذا الرأس الصغير بالتفكير ؟ . دعيه مرتاحا وتعالى نعمل بالاقتراح أولا ، ثم نفكر بعد ذلك فى جماله وما أفدناه من السرور به » . قالت : « ولكن ما هو ؟ . ألا تقول لى أولا ؟ » . قلت : « هو ذا » وملت عليها فلثمت فمها .

ورفعت عينى ، فإذا أبوها واقف فى مدخل الباب ، فتنحنحت ونهضت وقلت : « لقد كان بيننا رهان .. هى تقول أنك نسيتنى ، وأنا أقول إنك لم تنس .. فهل نسيت ؟ » .

فشغله الأمر الجديد عما سبقه ، وأنساه ما رآه ، وبدا عليه أنه لا يعرف أو على الأصح لا يذكر ، هل نسينى أو لم ينسنى . وشعرت الفتاة أن الجو صفا وأن الأزمة انفرجت ، فنهضت إليه وعانقته وقالت «بالطبع نسيت .. اعترف بالحق» .

فعادت ذاكرته تحاوره ، وسألها : « الحق ؟ .. أى حق ؟ » . قالت : « إنك نسيت » . قال : « نسيت .. نسيت ماذا ؟ » . فقلت لنفسى إنك رأيتنى أقبل فتاتك يا مسكين .

ولقيت الفتاة بعد ذلك مرة ، فقالت لى : « هل تعرف أنه يخيل إليه أنه رآنى أقبل رجلا أو أن رجلا يقبلنى ، ولكن هذا يطوف برأسه كالحلم .. بل هو فيما يعتقد حلم ؟ » .

فسألتها : « ماذا قلت له ؟ » . قالت : « قبلته فقط .. وماذا تريد أن أقول له ؟ .. » .

قلت : « وأنا .. أليس لى شىء ؟ . ازعمينى كأبيك أو عمك وقبلينى .. أم يجب أن أرسل لحيتى أولا ؟ » .

فصاحت بى : « احذر » .

قلت : « إذن هاتيها .. حلوة طويلة » .

★★★

ولا نزيد فى التعليق على هذه القصة بأكثر من إشارتنا إلى مدى ما تصوره من طرافة ، وما تشيعه من روح فكهة ، وما تقدمه من ملامح لشخصيات نادرة بطريقة ساخرة ، ولكنها السخرية الحانية التى تملأ النفس بالعطف والحنان .

★★★

ونجد أنفسنا مضطرين إلى الاقتصار على هذه المقتطفات بحسبانها تعطى مثالاً لما أردنا إبرازه ، لأننا لو ذهبنا نتتبع كل قصصه لاضطررنا إلى نقلها جميعاً ، ولكننا نختم حديثنا عن قصصه بأن القارىء يشعر بأن المازنى لا يفتعل هذه القصص ، إنما هو يسح بها

سحاً (كما قيل بالنسبة لقدرته الشعرية) .. فهى تصدر عنه فى يسر وبساطة وتلقائية بلا أدنى افتعال ، ولا تلفيق ، بل وكأنه يروى عن واقع عاشه ، وحوادث مرت به .. هذا إلى فنية الحكى ، وحسن الاختيار ، وطبيعة الحوار ..

نقول هذا ، وأمامنا - ويتردد على مسامعنا - ما يسود الساحة من اتجاهات حديثه فى القصة القصيرة .. وكيف ينبغى أن تُصاغ ؟ وكيف يكون التعبير فيها ؟ وما هى الموضوعات التى ينبغى أن تتجه إليها ؟ إلى آخر هذه الاتجاهات المستحدثه التى تقوم على نظريات تحتاج إلى خبرات وجهود ومعارف عديدة ليس لاستيعابها - بل ليس لمجرد الاقتراب منها من سبيل - بالنسبة لنا على الأقل ! فتلك - وايم الحق - مهمة شاقة ، لا تقوى عليها طاقاتنا المحدودة ، ولا معارفنا القاصرة "!!

وأقر وأعترف أننى حاولت كثيراً فما أفلحت ، وما اقتربت ، ولم تنفتح لى حتى ولا طاقة تسمح لى بالدخول إلى هذه العوالم الجديدة من الأفكار والآراء .. والنظريات ..!!

والمازنى غريب عن هذه العوالم هو الآخر .. فهو كاتب تقليدى لم يحط بما جدّ من نظريات حديثة فى الرواية والقصة القصيرة .. بل لم يعرفها وكأنى به وأنا أحدثه عنها يقول : يا أخى دعنا من هذه النظريات، ولا تصدِّع بها رءوسنا .. وأمامك الحياة حلوة جميلة ،

فاغتنمها ، وتملّها ، واقرأها فهى كتاب مفتوح أمامك ، وما عليك إلا أن تطالع صفحاته ، وسوف تبدو لك سطوره مفهومة متى خلّصت نفسك من إسار النظريات الجامدة ، فخير نظرية للحياة فى يقينى هى أن تحيا الحيـــاة كما هى ، وأن تأخذها كما خلقها البارى يسيرة وبسيطة .. ومن المؤكد أنك متى أخذت الأمور على هذا النحو المبسط فسوف تسعد نفسك ، وأهلك ، وتبعد بنفسك عن عوالم معقدة لا جدوى من الدخول إليها ، ولا فائدة ترجى من الانشغال بما فيها من أمور معقدة متراكبة ، تضيع معها بهجة الحياة ، ويختفى بسببها جمال الوجود .. وما أحرانا أن نبحث عن البهجة ، ونحتفى بالجمال دون أن نعقد الأمور، أو نتوه فى ضباب الفلسفات والنظريات ..!!

★★★

٨ - المازنى .. والصور القلمية :

وهذه الصور التى يجيد المازنى رسمها ، وتقديمها للقارئ ، تكاد تنطق بملامح الصورة ، وتتحدث بلسان صاحب الصورة ، وتجسد الحدث والمعنى على نحو واضح الدلالة ، معبر أصدق تعبير ، وبأجلى بيان ، وبكلمات يسيرة بسيطة ، لكنها ناطقة .. وليست هذه الصورة بمقتصرة على كتابه «صندوق الدنيا» ، بل إنك تجدها منبثة فى كل كتاباته . لقد جمع بعض الناشرين عدداً من المقالات التى كتبها المازنى وأعادوا نشرها - بعد وفاته بفترة طويلة - تحت عنوان : «سبيل

الحياة». وانك لتجد فى هذا الكتاب - كما هو الشأن فى سائر كتب المازنى - العديد من هذه الصور القلمية اللافته ..

ولنقرأ سوياً هذه السطور التى كتبها المازنى تحت عنوان . «بلدتى القاهرة» حيث يتحدث فيها عن بعض ذكرياته على نحو يجمع بين الحديث الشخصى ، والحديث الموضوعى فى نفس الوقت :

بــلدتى القاهرة

كان ينبغى أن تكون بلدة «كوم مازن» - مركز تلا ، على ما أظن ، من أعمال المنوفية - مسقط رأسى . فإن فيها أهلى وعشيرتى .. ولكن المقادير أتت بخلاف ذلك . فلا رأسى سقط فى كوم مازن ، ولا كتب لى قط أن أزورها أو ألمَّ بها .

وشاءت إرادة الله - لحكمة ولا شك - أن أكون قاهرياً ، مولداً ، ونشأة ، وإقامة ، وأنا أطوف ما أطوف ثم آوى إلى القاهرة ، ولا يخطر لى أن أرى البلدة - الطيبة على ما سمعت - التى نزل فيها أجدادى ونسبوها إليهم وكنت أظن لفظ «كوم» محرفا عن «قوم» ، ولكن الدكتور زكى مبارك - وهو أدرى - يقول إن الصواب «الكوم» بالكاف ، وأنه لا تحريف هناك ، لأن أهل القرى التى تقع على النيل ، كانوا يؤثرون الأرض المرتفعة حتى لا يغمرها الماء فى موسم الفيضان ..

والقاهرة التى عرفتها- أو قل الرقعة التى عرفتها منها - فى صدر

حياتى ، شئ مختلف جداً عن هذه القاهرة الحديثة التى أشابتنى .. والرقعة التى أعنيها هى التى لا تزال معروفة بأسمائها وإن كانت معالمها القديمة قد عفى عليها الزمن ، وهى تشمل أحياء الجمالية ، والأزهر ، والسكة الجديدة ، وغيرها مما يتفرع عليها .

وكانت طرقها ضيقة ، وأرضها غير مرصوفة ، ودورها واسعة ذات أفنية رحيبة ، وفى بعضها شجر ذو ثمر ونافورة جميلة ، ومصلًّى . وفى إحدى هذه الدور الجميلة - وكانت لزوج عمتى لا لنا - ولدت .. ولكن أبى كان قليل الاستقرار ، فكان لا ينفك ينتقل بنا من دار إلى دار ، حتى لأحس أنى أكلف ذاكرتى شططاً حين أحاول أن أتذكر صور هذه البيوت كلها .. ولكن شيئاً أتذكره بوضوح وهو فناء كل بيت ، أو «الحوش» .. أما المسكن نفسه - حيث يأكل الناس ، وينامون - فإن أمره يعيينى ، وأحسب أن هذا غير مستغرب ، فإن «الحوش» هو ملعب الطفل ومرتعه ، وفيه يقضى معظم نهاره فصورته خليقة أن تثبت ولا تبرح ذهنه .

وكان بعض الطرق مسقوفاً ، مثل شارع «القربية» ، ليحجب الشمس ، والبعض درب ضيق فوقه بناء . فهو أشبه بالسرداب ، مثل الذى كان ، ولعله مازال بين «بيت المال» وساحة مسجد الحسين ، رضى الله عنه ، وفيه تكثر الوطاويط .. وكانت «الحارات» فى الأغلب ضيقة

جداً ، والبيوت فيها متقاربة ، فالطريق لا يتسع لأكثر من اثنين يسيران جنباً إلى جنب .

وللبيوت «مشربيات» جميلة دقيقة الصنع ، من خشب ، تبرز من المنازل المتقابلة وتكاد تتلاصق ، وفيها توضع القلل ليبترد الماء . وما زلت أذكر كيف كنت أمد يدى إلى مشربية الجار ، فأشرب من قلله إذا وجدت قللنا فارغة ، أو ماءها غير بارد ، أو لمجرد العبث والشيطنة ! ..

وكان الترام قد ظهر فى قلب المدينة ، ولكنى لم أره إلا بعد أن اجتزت مرحلة التعليم الابتدائى ، ودخلت المدرسة الثانوية التوفيقية - أقول لم أره قبل ذلك ، ويحسن أن أضيف أنى لم أركبه إلا بعد ذلك بسنوات ، لا لأنهم خوفونى منه - وقد حاولوا تخويفى فعلا - بل لأننا كنا افتقرنا بعد موت أبى ، واستطاع قريب لى أن يحصل على «أبونيه» مجانى «لعربات سوارس» ، وهى مركبات طويلة ضيقة تتسع لعشرة ركاب أو خمسة عشر ، ويجرها بغلان أو ثلاثة بغال ، وتستطيع أن تسبقها وأنت راجل !

وكانت الحمير والبغال ، و«عربات الكارو» ، التى لا تزال لها بقية لا يستهان بها ، هى وسائل النقل والتنقل . فأما البغال فكان يركبها «النوات» والموسرون من طلاب العلم فى الأزهر .

وأما الحمير فيتخذها «أولاد البلد» وبعض أهل الوجاهة . وكانوا يعنون بتدريبها ويحرصون على أن يبدو الحمار فى حفل من الزينة ، فالسرج بديع الفرش واللجام محلى بالفضة . فإذا كان يوم الأحد ، وهو يوم الزيارة الأسبوعية لمسجد السيدة نفيسة ، أو يوم الخميس وهو يوم زيارة «المحمدى» بالعباسية ، لبس أصحاب الحمير أفخر ما عندهم من الثياب الحريرية ، وامتطوا هذه الحمير المضمرة المحلاة ، وخرجوا فى موكب باهر يتسابقون ، ويعرضون مزايا دوابهم ، ونقف نحن الصغار على جانبى الطريق نتفرج ، ونعجب ، ونتمنى على الله يرزقنا حميراً كهذه .

وكانت الحارات الواسعة – نسبياً – ملعبنا نحن الصغار . وكنا نعرف ونزاول من الألعاب أربعة ضروب . فأما الصغار جداً فيلعبون «البلى» – وهى كرات صغيرة فى حجم الفولة إلا أنها مستديرة – وأما الأوساط فيلعبون «النطة» وهى القفز من فوق أحدهم وهو منحن ، وأما الكبار فيلعبون الكرة أو يتسابقون وكانت الكرة هى «كرة الشراب» أما الكرة «الأمبوية» أى المنفوخة . فما كانت لنا قدرة على اقتنائها ، لأن «مصروف» الواحد منا كان لا يزيد على خمسة ملاليم ، وكانت كافية للب ، والحمص ، والفول السودانى . ولم نكن قد سمعنا فى ذلك الزمان بالشكولاتة .

والمهرة من الصغار كانوا يتبارون فى الرماية ، وسلاحهم «الرايقة» وهى حجر دقيق جداً ومستدير ، كنا نجمعه من التلال المحيطة بحى الأزهر ، فيقف الفريقان أحدهما فى أول الحارة . والآخر فى آخرها ، وبينهما أكثر من ثلاثين متراً ، لأن الإصابة بهذه «الرايقة» - كالإصابة بحد السيف - تقطع وتدمى !

وكان لكل حى «فتواته» ، وكل جماعة من الفتوات تهاجم كل جماعة أخرى ، أو تثأر لنفسها ، وكنا نحن الصغار نستطيع أن نعرف سلفاً أنباء الغارات المنوية ، فنحذر فتوات حينا ، ونخرج لنتفرج . أو نتفرج من النوافذ ، على العصى وهى تهوى على الرءوس ، ونشترك فى المعركة «بالرايقة» من النوافذ ، والجرئ منا ينزل إلى الشارع ويخوض القتال ، على ألا يصيب إلا خصوم حيه .

على أن حياة الصغار لم تكن كلها لهوا . فقد كنا نصلى الفجر فى مسجد الحسين ، ونقيم الصلاة فى مواقيتها فى البيت ، ونحضر الأذكار ، ونحفظ الأوردة ونذكر مع الذاكرين ، وفى الصيف - وفى الإجازة المدرسية - يرسلنا أهلنا إلى «الكتاب» فى الأزهر لنحفظ القرآن الكريم .

وكانت على بعضنا واجبات عجيبة ، فكنت أنا - مثلا - مكلفا أن أعلف لجدى حماره ، وكان - جدى لا الحمار - ضعيف النظر ، فكنا

نجئ له بالحمار مسرجا ملجما فيركبه ويتوكل على الله ، ويخرج من جيب القفطان «التغييرة» أو الملزمة ويدنيها من وجهه ويقرأ ، حتى يبلغ به الحمار باب «المزينين» وهو أحد أبواب الأزهر فيقف ، فيعرف جدى أنه وصل ، فيترجل ، ويترك الحمار لمن يعنى به . ويلقي درسه أو دروسه ثم يعود كما جاء .

فحدث ذات يوم أني أهملت إطعام الحمار ، فجاع ، فلما ركبه جدى لم يذهب به إلى الأزهر ، بل كرَّ به راجعاً إلى الاسطبل ، فلما ترجل جدى لم يجد ما ألف ، ولم يدر أين هو ؟ فما دخل الاسطبل قط !

وقد ضربت فى ذلك اليوم علقة - لا من جدى ، فقد كان أحنى عليَّ من أن يضربني - بل من أخي الأكبر رحمه الله !

هذه هي القاهرة كما عرفتها فى حداثتي ، وهذه صورة مجملة ، وموجزة ناقصة للحياة فيها . أما القاهرة الحديثة فلا حاجة بى إلى وصفها لأن كل قارئ يراها ويعرفها (١) .

★★★

ففي هذه السطور رسم المازنى صورة للقاهرة التى عرفها - وجاءت الصورة ناطقة ، معبرة ، لا تزدان فقط بالمعلومات الطريفة ، وما تبرزه من ملامح قد تخفي على أعين الكثيرين ، ولكنها تزدان أيضا بتلك

---

(١) كتابه . سبيل الحياة - الدار القومية للطباعة والنشر - ص ١٣ .

الروح الفكهة الساخرة التى تعبر عن القاهريين - أولاد البلد - أصدق تعبير ، وكأنى بالمازنى يقول هأنذا أحد أولاد البلد أتحدث بلهجة أولاد البلد عن بلدتى القاهرة .. وما أحسبنى تجاوزت الحقيقة أو أخفيت جانبا من الجوانب ، بل حرصت على أن أرسم صورة ناطقة ترجع بكم إلى ذلك الزمن الذى اتحدث عنه ، فتبرز أمامكم ملامحه ، وتحدثكم عنه حديث العارف به ، الذى عاش أيامه ، وبلا حلوه ومره .. !!

★★★

وتلك هى سمة المازنى فى كل كتاباته وصوره القلمية .. وربما كان «يحيى حقى» يقاربه فى ذلك - فى بعض لوحاته القلمية - غير ان لنا أن نلمح الفارق بين الاثنين . فأنت تحس مع المازنى،أنك مع شخص وإن أخذ الأمور - فيما يبدو باستهانه - إلا أنها استهانه الواعى الذى لا يفوت عليه أمر ، وهو وان كان يستهين ببعض الأمور إلا أن هدفه هو التهوين والتخفيف عن الآخرين ، فما تلمح فى سطوره قسوة ، ولا تطالع فى صورته ما يجرح أو يؤذى .. بل هو يقدم الصورة وكأنه يقول: هذه هى الحقيقة ، علينا أن نسلم بها ، وأن نفيد منها ، وأن نعايشها ، ونتعامل معها ، ونفيد مما تقدم لنا فى ذات الوقت من فكاهة أو متعة أو سرور .. أما يحيى حقى فليست له سرعة المازنى فى التقاط الملامح ، ولا نظرته الشاملة التى لا تكاد تفلت ملمحاً ، ولا سرعة انتقاله من خصوصية الصورة إلى عمومية المعنى مثلما هو الأمر عند المازنى ، اذ

يقف يحيى حقى وكأنه يرسم لوحة لشخصية محددة ، معالمها واضحة ، وسماتها معروفة ، وكل همه أن يقيمها فى صورة تلفت النظر ، وتبقى فى الخاطر . وليس من شك فى أن له مقدرة على تقديم صور تنبض بالفكاهة ، وتقطر سخرية ، ولكن ذلك انما يأتى على مهل ، وروية ، وبعد تفكير ، وتعديل ، وصياغة ، وإعادة صياغة حتى يصل إلى الصيغة التى يرتضيها ، والصورة التى يرضى عنها ، فما يقبل أن يورد كلمة زائدة ، أو معنى مكرراً ، فلكل حرف موضعه ، ولكل كلمة ضرورتها ، وهو فى ذلك يخالف المازنى الذى رأيناه مع قلمه تاركاً له كامل حريته فى القول، بل وكثيراً ما يستطرد معه ، ولكنه مع ذلك لا يهمل ما يريد قوله ، والابانة عنه .. وها نحن ازاء أسلوبين - ومنهجين - وان كانا مختلفين - الا أنهما فى النهاية يعرضان صوراً قلمية فيها فن وفيها فكاهة وطرافة ومتعة .. وهى صور وان اجتمعت فيها هذه السمات الا أنه لا يمكن الخلط بين ما يخص كلا من صاحبيها وما يخص الآخر ، فلكل منهما طابعه الذى يطبع انتاجه ، ويميز فكره ، وهو طابع متميز يدل على صاحبه فى يسر وبساطة حتى ليمكن القول بأنه يندر أن يختلط انتاج لأحدهما بانتاج لأى كاتب آخر بحال من الأحوال .. تلك هى أسمى سمات التفرد والتميز فى ذات الوقت .

★★★

ولا نود أن نختم هذه الصور القلمية قبل أن نشير إلى كتابه : الرحلة إلى الحجاز ، وقد خصصه لوصف رحلته مع الوفد المصرى الذى سافر إلى المملكة العربية السعودية بمناسبة تولى الملك عبد العزيز آل سعود لشئون المملكة .. وكان قد أطلق على المناسبة «مبايعة الملك» .

وصف المازنى فى كتابه هذه الرحلة وصفاً غير مسبوق ، فهو لم يعن فى المقام الأول بوصف الأماكن ، أو رواية الأحداث .. وانما جعل ذلك يأتى عرضاً وهو يتحدث عن نفسه ، ويصور مساره وأفكاره طوال أيام الرحلة بأسلوبه المتميز ، الذى يلتفت التفاتات بالغة الذكاء ، والذى لا يقع إلا على ما هو طريف ومثير .. ولنتابع المازنى وهو يقول (١) :

«... وخرجت أعدو إلى غرفتى ، ووقفت أمام المرآة ، وقلت لخيالى فيها:

- اسمع يا مازنى . ان هذه المأدبة رسمية ، وسيحضرها وزراء الدول وقناصلها فينبغى أن تكون فيها فخراً لبلادك وعنواناً على ما بلغته من الحضارة والرقى ، لا عاراً عليها ، وسبة لها ، فالبس ثياب السهرة وان كان من طول ما طويت فى الحقيبة قد تجعدت وتثنت وصارت كالوجه الذى غضنته الشيخوخة ، ولكن هذا احرى بأن يغتفر

---

(١) مؤلفه : الرحلة إلى الحجار .

في الحجاز ، وعندك في الحقيبة كتاب في آداب السلوك في المجتمعات ، فأخرجه وادرسه بسرعة ، فان في ساعتين الكفاية ، أفهمت ؟ اذن فإلى العمل ! .

وتناولت الحقيبة وحططتها على السرير ، وفتحتها بسرعة ، وأخرجت «الأسموكنج» والقميص الأبيض ، والرباط الأسود ، وسائر ما تتطلبه هذه البذلة ونضوت ما على بدني من الثبات ، ثم تذكرت الكتاب فأخرجته ، وقعدت على السرير أدرسه ، وأنا نصف عار ، وأجريت عينى في الفهرس حتى استوقفني هذا العنوان : فن الانحناء . ففتحت الصفحة التى يشير إليها الفهرس وقرأت وأنا كالمسحور ما ترجمته : (ان الانحناء ، ولمن يكون وكيف يكون وفي أى وقت يكون ، فن قائم بذاته ، واتقان ذلك وتجويده ، والحذق فيه والأستاذية ، أكبر مايمتاز به الرجل المهذب) ، فخفق قلبى طرباً ، وشاع في السرور علواً وسفلاً ، وبعد أن قضى بدني وطره من الوثب والقفز - أو الرقص إذا آثرنا الدقة في التعبير - عكفت على الكتاب لألتهم منه هذا الفن الجليل ، فقرأت : (وأول مايجب على المرء ، أن يكون وضع القدمين كأول وضع لهما في الرقص) فكفأت الكتاب على ركبتى وذهبت أحضر إلى ذهنى ، وأتمثل هذا الوضع الأول في الرقص ، فطافت برأسي صور شتى للأقدام كما كنت أراها في المراقص المصرية ، غير أنه ما من صورة كانت تشبه الأخرى ، فألححت على خيالى وكددت خاطرى وحسرت ذهنى في هذا

الموضـوع ، وطردت عنه كل مـا عـداه حـتى صـار رأسـى وليس فيـه إلا أحذية (ضـاحكة اللألاء) تروح وتجىء وتنساب تحت السيقـان الـ ...... وخفت أن أترقي في التصور من الأحذية إلى مافوقها فيتم فساد العمرة التى أفسدها المطوف وأشيـاء أخـرى حـدثتك عنها فـيمـا أسلفت فيـه القول...» .

ثم نقفز إلى وصفه لمائدة الطعام (١) :

«وآن أن يطعمونا ، وكان هذا قد آن جداً قبل ساعة ، فجلس سمو الأمير .. فى الصدر ، وإلى يمينه معتمدو الدول ، وإلى يساره زكى باشا ونحن نتلوه ، وبين كل اثنين منا رجل من كبراء الحجازيين ، وتوسط .. مدير الشئون الخارجية ضلعاً آخر من المستطيل ، وعلى يمينه ويساره قناصل الدول ... وكان أمام كل نحو ثلاثة من الضيوف - فوق المائدة - كرسى واطىء عليه طشت كبير غاص بالأرز المحمر المخلوط بالصنوبر والزبيب ومـا إلى ذلك ، وفـــوق هذا كله كـبش مـحـمـر تفـوح رائحتـه المغرية وتتضـــوع إلى أنوفنا فننظر إلى الأمـير فلا نـراه يمسـه فنكف ونتنهد ، وقد طافوا علينا بتسعة عشر لوناً من الأطعمة الشـهية حتى اكتظظنا جـداً ، ولم نعد نستطيع أن نتنفس ، وبرزت صدورنا وصارت لنا كروش كروية عظيمة . وعلى كثرة مـا أكلنا ، أعترف أنى قمت متحسراً على الخروف الذى كان أمامى ، ولا أدرى لماذا يذبحون كل

---

(١) مؤلفه : الرحلة إلى الحجاز .

هذه الخراف الجميلة ، ويحمرونها إذا كانوا لايأكلونها ولا يدعوننا نصيب منها شيئاً ؟» .

ونتوقف .. وإلا نقلنا الكتاب بأكمله ، وان كنا لانغفل الإشارة إلى هذا الأسلوب المتفرد فى الحديث عن الرحلات ، وزيارة الدول الأخرى .. واننا لنقرأ من بعد كتباً حاول مؤلفها أن ينحو ذات المنحى ، ولا ننكر أنه يقدم صوراً فكهة ، وانه يلتفت إلى زوايا تبرز طرافة الصورة ، وتلفت إلى ما فيها من دواع للسخرية .. غير أننا مع ذلك لا نلمس فى كل ما كتب تلك الروح العميقة التى تفيض من كتب المازنى ، وما تشعر كتاباته من حب آسر يجذب إليه قارئه ، فإذا به لايملك من أمره إلا أن يظل فى صحبته ، قارئاً له ، عاشقاً لكتاباته ، مفتوناً بما يكتب ، وبما يبدع ، وبما يرسم من صور ضاحكة ناطقة موحية .. وأنت مع ذلك كله تحس أنك تصاحب إنساناً لايقصد إلى الإضحاك ، أو الفكاهة ، بقدر مايقصد إلى الإبداع ، وهو - من قبل ومن بعد - ذلك المثقف الذى بلغ أقصى مدارج الثقافة ، فأنت فى صحبته ، تنهل من علمه ، ومن فنه ، ومن ثقافته ، ومن إبداعاته .. وأنت بعد تعيش أسير روحه الحلوة ..!

★★★

٩ - المازنى .. وكتاباته النقدية :

وربما كان الوجه الناقد هو أول وجه طالعنا به المازنى فى حياته

الحافلة المنتجة المثمرة ، فما كانت دراسته عن الشعر ، وما كانت كتاباته عن حافظ إبراهيم ، إلا كتابات ناقد دارس متعمق ، وقد عرضنا من قبل لدراسته لحافظ ، وهى الدراسة التى تبرأ منها ، ومع ذلك فقد أنكر عليه الدكتور محمد مندور هذا التبرؤ [(١)] ، وكتب يقول .

«فى رأينا أن الكثير من ملاحظات المازنى الجزئية فى هذه المقالات الأخيرة من الكتيب يستحق الاعتماد كما أنه مما يشهد للمازنى بالفطنة وسلامة الذوق ، وسعة المعرفة بالشعر جيده ورديئه ، وبذلك نخلص إلى أن هذا النقد لايمكن اعتباره كله هراء كما زعم المازنى ، وأن يكن العنف والتحامل والإسراف أموراً واضحة فى الكثير من أجزائه ..» .

ويمكن أن يقال إن هذا العنف ظهر كذلك فى نقده للمنفلوطى .. حيث وصف كتاباته - وأدبه - بأنه أدب الضعف والنعومة ، وأخذ على المنفلوطى إسرافه فى العاطفية إسرافاً يمكن تفسيره بالافتعال والنعومة والتطرى .. إنه ليتساءل :

«ماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق أن يعد من أجله كاتباً أو أديباً ، إلا إذا كان الأدب كله عبثاً فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا المائتين يقول . إن فى أسلوبه حلاوة .. ولو أنه قال : نعومـــة لكان أقرب إلى الصواب ، ولو قـال : أنوثة لأصاب

(١) د . محمد مندور النقد والنقاد المعاصرون - فصل المازنى ناقدا - ص ١٣٦ .

المحز..» .. «ولست بواجد شيئاً من هذه الحلاوة فى كلام المنفلوطى سواء فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها ، وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنعومة أقرب إلى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب إلى أدنى منه وليس أدنى من ذلك إلا الأنوثة وهى أحط وأضر مايصيب الأدب ، ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيغونها ، ويعجبون بها ، ويبلغ من استحسانهم اياها ان يشجعوه ويقروه بالكد فى ابراز ما ليس أمثل منه للرجولة وأعصف».(١)

وهكذا تجده يعنف بالمنفلوطى، ويجرده من كل قيمة سواء فيما اتخذ من أسلوب، أو عالج من موضوعات، أو قدم من فكر.

وليس من شك فى أن هذا النقد وقد قيل فى مطالع الشباب والسن غضة، والآمال عريضة، فقد تميز بالعنف، والاندفاع، وهو وان كان صوابا الا أنه ليس كل الصواب، فليس كل أدب المنفلوطى على هذا النحو، وليس أسلوبه سيئا بهذه الصورة، بل ربما كان العكس هو الصحيح، فقد كانت كتابات المنفلوطى متميزة بشاعرية العبارة، ورقة الأسلوب مع فخامة الألفاظ، وكانت جمله وتعبيراته ذات وقع جميل على السمع حتى ليمكن حفظها وترديدها من الذاكرة فى يسر وسهولة، وما

(١) الديوان – طبعة دار الشعب . ص ٨٤ ، ٨٩ .

تزال كتبه تجد - حتى اليوم - إقبالا وقبولا.. وان كانت موضوعاته كلها تميل إلى الحزن، وإلى المبالغة، وإلى وصف ما فى الحياة من آلام، فان هذه الموضوعات لتلذ للكثرة الكثيرة شأنها فى ذلك شأن الأغانى العديدة التى يشكو قائلوها من الظلم ومن الهجر ومن الفراق.

فالمنفلوطى فى نقد - أو نظر - المازنى مظلوم مظلوم .. وما اعتقد إلا أن المازنى قد راجع نفسه، وعدل عن هذه الآراء وآية ذلك أن المازنى لم يعد إلى الحديث عن المنفلوطى مرة أخرى بعد كتاباته عنه فى «الديوان »، ولو أنه سئل صراحة لقال ما قال عن شعر شوقى: لقد ظلمته... فعنده من الجيد الكثير..

★★★

وللمازنى اسلوب فى النقد يقوم على المراوغة فى بعض الأحيان، حينما يطلب اليه أن يعرض - أو يتعرض - لكتاب، ليس محل رضاه أو تقديره، وهو فى نفس لا يريد - أو لا يحب - أن يغضب من طلب اليه.. ومن ذلك ما يقال من ان كتابته عن الأديبة «مى» كانت تلبية لرغبة صديق عمره وصنو روحه: العقاد .. وكان هذا الأخير ممن لهم علاقة طيبة - بل ربما كانت علاقة حب - مع تلك الأديبة .. وكان المازنى - على عكس ذلك - لا يرى فيما تكتب ما هو جدير بأن يحتل مكانة متميزة.. ومن هنا جاء نقده لكتابيها على النحو التالى:

«تلقيت كتابى الآنسة مى - الصحافة، وظلمات وأشعة - فى ساعة نحس ، وكنت قد باعدت بينى وبين الأدب وطلقته ثلاثا ، أو على الأصح، فترت عنه، وضعفت عندى بداعته، ثم قلبت القضية، وعكست المسألة، حملت الأدب عيبى، وزعمته أصل البلاء والداء العياء واذن فالنجاء منه النجاء. وفى الكتب - كما فى الناس - المجدود والمنحوس، والمرموق من القلوب والبغيض إلى النفوس.. وهى تلقى من تصاريف الأيام، وانتقال الأحوال مثل ما يلقى كتابها وقراؤها - وغير كتابها وقرائها - سواء بسواء. فكم من كتاب جليل لازمه الخمول، كأنه حين يخرج من المطبعة سقط فى جب . وكم من مؤلف قيم عبر «هولاكو» على جثته، وأفاض روحه فى وثبته، فليس الناس وحدهم يموتون، ولكن هى الكتب أيضا تحيا وتموت، وتطول آجالها وتقصر، وتبيت جميعه، وتصبح مفرقه.. وقلت لما تلقيت الكتابين: يالها من ثرثارة، وأحسب ان الواجب يقتضى ان أقرأهما وأعنى بتدبرها ثم اكتب عنهما . لاشك ان هذا واجبى على الأقل فى رأى آنستنا - فما أثقل الواجب! وما أعظم شكى فى اخلاص من لا يفتأون يتغنون بحمده ويشيدون بحسنه وجلاله! من الذى يحب «الواجب» لذاته؟ أين هذا الفنان الذى يزاول الواجب ويتوخاه إرضاء لعاطفته الفنية؟ لست أنا به على كل حال..»

ثم يأخذ يتحدث عن الواجب فيطيل الحديث.. ليختم حديثه بقوله:

«كذلك كنت أحدث نفسى قبل ان أفض الغلاف عن الكتابين، وقد مضت على ذلك أسابيع كنت أقدر أن تكون كلها معاناة للاحساس بمرارة الاذعان لعامل أو باعث من غير النفس، ولكنى ما كدت اتصفحهما وأقرأ من هذا فصلا ومن ذاك صفحة حتى شعرت كأن الواجب قد استحال رغبة وزايلنى انقباضى عن الأدب».

فهو قد قال الكثير لكنه لم يقل شيئا عن صاحبة الكتابين.. فهل يمكن أن يعتبر ذلك «حسن تخلص».. أم انها الطبيعة المازنية التى لا تتصرف إلا بصدق ولا تدع صاحبها يكتب إلا ماله صدى فى نفسه، وأثر فى قلبه!!

★★★

ومن هذا القبيل ذلك الفصل الذى عنوانه «فى سبيل كتاب» ضمن مجموعة: خيوط العنكبوت حيث استهله بقوله:

«هل أقرأ ما أحب أنا من الكتب، أو ما يحب الناس أو يريدون أن أقرأ؟. فى هذا كنت أفكر، وبه كنت أعنى نفسى، وأنا سائر - بعد المغيب- فى أزقة ضيقة فى حى قديم، وكنت قد بعثت بكتاب (النثر الفنى) وبطائفة أخرى من الكتب التى جاءتنى إلى وراق يجلدها، حفظا لها من التلف، وضناً بها على البوار، وأبطأ الرجل على، وطال انتظار صاحبى الدكتور زكى مبارك أن أتناول كتابه الضخم بما هو أهله من العناية، وأنا كلما لقيته اكرر له الوعد أنى لا محالة فاعل وأن الكتاب

عند من يجلده لتسهل قراءته ولأستغنى عن تمزيق ورقاته وافساد شكله، ثم لم يبق بد من استرداد الكتاب وقراءته والفراغ منه .. وأمرى إلى الله..».

وذهب يبحث عن المحل وعن الكتاب فلقى أهوالا ومتاعب فراح يصفها بأسلوبه الساخر، إلى أن ينهى الفصل بقوله:

«وكان أول ما فعلت بعد نجاتى أن اشتريت طربوشا. أما النثر الفنى وغيره من هذه الكتب المؤذية فبقيت عند الوراق، وستبقى عنده اذا لم يجئنى هو بها، ولم يحملها هو إلى، فإنى أحوج إلى سلامة عظامى من أن أعرضها للدق والتهشم فى سبيل «النثر الفنى» أو «غير الفنى»....

وكان ذلك هو كل ما كتبه نقدا للكتاب..!

★★★

إلا أن المازنى - مع ذلك - كثيرا ما كتب نقدا لاذعا - وصادقا - ومن أمتع ما كتبه - وأعمقه أيضا - نقده لطه حسين عن كتابه «حديث الأربعاء»... ولنقرأ مستهل أحد هذه الفصول وهو يقول

«بسم الله ابتدئ، وعليه أتوكل، فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقاة دكتورنا فى الحلبة التى اختارها لنفسه، وآثرها على سواها.. وعزيز على أن أنازله وأقارعه، فانى انطوى له - أو صرت على الأصح

أنطوى له – على الحب والاحترام. وليتنى ما عرفته ولا خالطته! إذن لبقيت يدى حرة ترتفع حين تشاء وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه، أو لا تضيره، وتوهى عظامها، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة، دون أن اجعل بالى إلى صاحب الكتاب أو يبرز لى وجهه فى كل صفحة فيه، كأنما ظهر كتابه فى الدنيا بفعل الهواء وبتأثير الجو، كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور، أما الآن وا أسفاه! ألف الدكتور كتابا ودفعه إلى الناس وقال لهم فى تواضع كله كبر: هذا ما رضيت لكم! وما هو بسفر أو كتاب (كما أتصور السفر والكتاب) وانما هى مباحث متفرقة (لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم)، وبالغ فى هذا الضرب من التواضع المقلوب، فأعلن إلى الناس أنه لم يعن بهذه المباحث (العناية التى تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتابا حقا) وأنه يعلم (أنه شديد النقص محتاج إلى استئناف العناية والنظر) كأنما أراد أن يقول: لستم أهلا للعناية وأن فى وسعى أن أؤلف خيرا من هذا الكتاب ولكن لمن؟ لقراء الصحف السيارة – وهم – فلاتنس – جمهور القراء فى مصر؟ كلا ياسيدى: لم يكن بد من أن يتجنب الدكتور التعمق فى البحث، والالحاح فى التحقيق العلمى اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا! ولكم وددت – أنا المازنى – حين قرأت هذه المقدمة التى صدر بها

الدكتور كتابه وقبل أن يصل حائك الأقدار ما بين أسبابى وأسبابه ان أعلمه احترام القراء! ولكنى خالطته، فأحببته مع الأسف! وانى لأتمرد أحيانا على هذه العلاقة التى توثقت عراها بيننا ويتقمصنى عفريت النقد الذى لا يحابى الأصدقاء.. فارفع بالفأس كلتا يدى وأشب عن الأرض، وأهم بالضــربة تفلق اليافوخ فيطالعنى وجهه الساكن، وجبينه المشرق، وهو جالس إلى يحادثنى ويقاسمنى ما أعانيه من المضض، ويحمل عنى شر شطريه، فتهى قبضتى وتفلت الفأس، وتهوى ذراعاى إلى جانبى، وتتملكنى عاطفة فنية تجعلنى أقول: خسارة! نعم من الخسارة أن أحطم هذا الرأس! فان فى الجبين لالتماعا، وفى العظام قوة، وفى التركيب متانة، وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم! وليتنى كنت مصورا! اذن لأنطقت هذا الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه. وهكذا كلما نويت للدكتور نقدا أرانى أمسح له جبينه وألاطفه وأرثيه! وانى لأنقم من نفسى هذا ولكن ما حيلتى؟ لست أرى لى خيارا هذه الأسلحة ملقاة أمامى. تتخطى يدى من بينها كل درع سردة تتكسر عليها النصال، ولا تنتقى إلا درعا من الكتان لا تقي ولا تغنى! وندع المعاول والفئوس والقواضب والسوط ونتناول ما هو بخيط الحرير أشبه. لا بأس! ولنبرز له عزلا من كل سلاح!

ولقد كان من أطرف وأعمق ما كتبه المازنى نقده لأسلوب طه حسين حيث يقول.[1]

«والآن ما رأينا فى أسلوب صديقنا الدكتور طه حسين؟ الحق أن هذا الموضوع يروق فيه الكلام! ولقد بدأت الكلام وفى عزمى أن أفيض فى بيان رأيى فى الأسلوب، ولكنى لم أكد أسود بضعة سطور حتى ألفيت نفسى أوجز وأوجز وأوصد كل باب موارب فى طريقى وأضيق دائرة البحث ثم إذا بى أسأل نفسى ما رأيى فى أسلوب الدكتور؟ ولقد تقمصنى والله عفريت النقد! وإنى لأحس أن عينى قد احمرتا، ويبلغ من إحساسى بذلك أو توهمى إياه انى أهم بالتطلع إلى وجهى فى المرآة! ولا أكتم القراء إنى صرت أؤمن بأن لكل منا شيطانا، وأحسب شيطانى من أخبث الشياطين، فإنه يزج بى فى مآزق لا أرضاها لنفسى لو كان الأمر لى، وإن على مكتبى لأكثر من خمسة عشر كتابا أستطيع أن أتناولها بما شئت من النقد وأنا آمن أن ألقى أصحابها إن كنت لا أعرفهم، ولكن شيطانى الخبيث ظل يخايلنى بكتاب الدكتور حتى أخرجته من بين أخواته وقلت له، «تعال يا هذا» وأخذت أقلب صفحاته كما يفعل المرء بالخروف يريد أن يشتريه لعيد الأضحى؟! والحق أقول إنه أعجبنى! وأنا ألقى الدكتور كل يوم وأحادثه أكثر مما أحادث نفسى،

---

(١) كتابه . قبض الريح فصل الأساليب والتقليد - ص ٣٥ - طبعة الشعب .

ولكم قلت لنفسى وهو لا يدرى «لا ياشيخ! دع كتاب الدكتور إلى سواه، فإن للزمالة حقا واجب الرعاية وستخجل أن تلقاه بوجهك هذا إن نقدته» ثم لا أكاد أخلو بنفسى حتى يهمس فى اذنى ذلك العفريت اللعين: إن الأدب فوق الصداقة والزمالة، وإن بروتوس كان يقول «إنى أحب قيصر ولكن رومية أحب إلى» وإن لك كتابا كما له كتاب فلينقده إذا أحب، وليس من شأن النقد الأدبى أن يفسد ما بين الصديقين. وهكذا حتى اقتنعت وتناولت القلم فكتب به الشيطان ما يأتى.

«الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ذكى الفؤاد جرئ القلب، تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وأنفته، ويعلق بقلبك إخلاصه ووفاؤه، ويثقل عليك أحيانا اعتداده بنفسه! ولما كان قد ألف أن يملى كتبه ورسائله ومقالاته، فإن كتبه وحديثه، حين يجد، فى مستوى واحد، كائنا ما كان ذلك المستوى، فلست، تفتقد فى أحاديثه ما تجده فى كتابته من الخصائص والشيات، ويندر فى غيره مثل ذلك، ومن شأن الإملاء أن يحول دون مط الكلام وأن يجعل الجمل قصيرة فلا تطول مسافة بين أولها وآخرها، وإن يغرى بالتكرير والإعادة إلى حد ما، كما هو الشأن فى الخطابة، ومن هنا كان أسلوب الدكتور طه خطابيا، أو قل إن الصبغة الخطابية فيه أغلب من الصبغة الكتابية، وخصائص تلك ومميزاتها أوضح، فهو فى الأغلب والأعم يوجه الخطاب إلى القارئ كما تفعل حين تحادث جليسا لك، ويقصر جمله ويؤكد عباراته بالتكرير

والإعادة ويلتمس التأثير من طريق ذلك، حتى وأنت تقرأ كلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة، ويومئ بأصبعه لما وصل إلى تلك إلى آخر ذلك.

والخطابة فن مختلف جدا عن فن الكتابة، وأحسب إنه لو كان الدكتور قد ألقى هذه الرسائل ولم يكتبها، لما جاءت إلا كما هى الآن، ومن شاء أن يكون منصفا وأن يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فلينظر إليها بهذه العين وليزنها بما توزن به الخطابة لا بما تقدر به الكتابة.

«إذن أنا أخرجها من عالم الكتابة؟ نعم؟ ولا أراها إلا خطبا مدونة. ولست أريد أن أقف حتى هنا، بل أزيد على ذلك وأضيف إليه أنها خلت من مزايا الفنين جميعا..!! فأما مزايا الكتابة فقد عطلت منها لأن صاحبها يمليها إملاء ثم لا يعود إليها بتنقيح أو تهذيب، ولو أنه كان يتعهدها بعد أن يمليها بشئ من الإصلاح لخلت على الأرجح من أكثر ما فيها من التكرير ولعولج بعض ما يعتورها من العيوب، ولكنه لا يفعل، وقد صدق فى قوله «إنى ما كتبت فصلا إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص محتاج إلى استئناف العناية به والنظر فيه، وأنا أقدر أن سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى إذا فرغت منه ونشرته السياسة عرضت لغيره فى مثل هذه الحال

العقلية التى عرضت له فيها معتزما أن أستأنف العناية به والنظر فيه مستحييا أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح، والأيام تمضى والظروف تتعاقب، مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين، ولكنها كانت تحول دائما بينى وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر، وأى الكتاب وأى الباحثين لا يشكو مثلى هذا فى مثل هذه الأيام التى نعيش فيها؟».

وأما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يمليها على أنها خطب تلقى بل على أنها مقالات وفصول تقرأ، وإن كانت طبيعة اعتياد الإملاء تجعلها أقرب إلى الخطب منها إلى الرسائل. ومتى كان هذا هكذا فأى غرابة إذا قلنا إنها خالية مما لم يتحره فيها أى من خصائص الخطب ومزاياها؟ وكما أن الخطب تفقد كثيرا من قوتها وتأثيرها فى نفوس الناس حين يقرأونها، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها أن الناس يقرأونها ولا يسمعونه يلقيها؟

«ولاشك أن أظهر عيب فى مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما هو منهما بسبيل، وعندنا أن علة ذلك ليست فقط إنه يملى ولا يراجع ما يملى بل الأمر يرجع فى اعتقادنا إلى سببين جوهريين أولهما أن ما أصيب به فى حياته من فقد بصره كان له تأثير لا نستطيع أن نقدر كل مداه، فى الأسلوب الذى يتناول به موضوعاته، وفى طريقة العبارة عن معانيه وأغراضه، ولسنا نتحرج أن نذكر ذلك، فإنه أعرف بنا من أن

يشك فى عطفنا «بل نحن أعلى به عينا وأسمى تقديرا من أن نعتقد أن به حاجة إلى هذا العطف، وليس يخفى أن المرء إذا حيل بينه وبين المرئيات ضعف أثرها فى نفسه، ولم تعد الكلمة الواحدة تغنى فى إحضار الصورة المقصودة إلى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين، فلا يسعه فيما نعتقدإلا الإسهاب ومحاولة الإحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية.

«وثانى هذين السببين أنه أستاذ مدرس وقد طال عهده بذلك، والتعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط فى الإيضاح والاطناب فى الشرح، والتكرير أيضا، بل تفعل ما هو شر من ذلك: وأعنى أنها تدفع المرء عن الأغوار والأعماق إلى السطوح. وبعبارة أجلى تضطر المدرس أن يجتنب التعمق والغوص، وأن يكتفى - ما وسعه الاكتفاء - بما لا عسر فى فهمه ولا عناء فى تلقيه. وتلك آفة التدريس ولولا أنى أعرف كلفه به وإقباله عليه وهشه له، لدعوت له الله أن يريحه منه كما أراحنى».

قال المازنى: وهنا صرف الله عنى السوء وأذهب عنى الشيطان فوضعت القلم وأنا أحمد الله أن لم يستكتبنى الا هذا التحليل البرئ.



واذا كنا قد أطلنا النقل حتى لم نجد سبيلا للاجتزاء ببعض المقال عن بعضه الآخر فمرجع ذلك عدة أمور:

- أولها رغبتنا هى أن ننقل صورة من نقد المازنى كاملة.

- وثانيها ان الموضوع «المنقود» من أهم الموضوعات: أسلوب طه حسين وهو الأسلوب الذى فتن - ومازال يفتن - قراء العربية .. ويكفى أن طه حسين وصف - ويوصف - بأنه «عميد الأدب العربى».

- وثالثها ان هذا النقد حتى وان لم توافق عليه الا أنه لا يسعك الا أن تحترمه.

- ورابعها انه يعطينا صورة من المازنى الناقد والساخر والضاحك والوفى والصادق والمخلص فى آن واحد..

- وخامسها ما رأينا ان نشرك فيه قارئنا من المتعة بقراءة هذا الفصل الذى يندر أن تجد له مثيلا.

وبعد:

فنحن وان لم نوافق المازنى على هذا الذى ذهب اليه بالنسبة لأسلوب طه حسين الا أننا نقر بأن فيه بعض الحق، وان كان قد عمد إلى المبالغة والتضخيم.. ومع ذلك فسوف تبقى كتابات المازنى عن طه حسين من أرق وأعمق وأصدق ما كتب ناقد عن طه حسين.

★★★

ورغم كل ما نقلناه عن المازنى الناقد.. فقد فاتنا الكثير مما كتب المازنى وهو نفسه قد أشار إلى ذلك فى ختام - أو خاتمة - كتابه «حصاد الهشيم» فقد كتب يقول: (١)

«الكتاب كما هو الآن في يد القارئ يمثل منزع الناشر أكثر مما يمثل نفس الكاتب ، فقد أبى إلا أن يخليه من نقد المعاصرين، ليريح نفسه من حماقات المعاتبين. وحسنا فعل، أو شرا فعل - كما تريد- ومن الذى يستطيع الراحة ولا يستريح؟ غير ان الكتاب بهذه الصورة يعرض منى جانبا ويطوى جانبا، ويصورنى للقراء لين الملمس، ويستر أظافرى، ويبدينى مفتر الثغر، منزوع النيوب مقلوع الضروس.. ولست أبالى كيف أبدو للقارئ .. وما كنت لأعنى بجمع هذه أو تلك من مقالاتى ونشرها، بعد أن طويت مع الصحف التى ظهرت فيها، لولا أن فرجت بذلك أزمة كانت مستحكمة. وما أرانى أنقذتها أو أحييتها، بل بعثتها من قبورها لتلقى حسابها. ولعله كان خيرا لها أن تظل ملفوفة فى اكفانها».

ولم تقف دائرة النقد عن المازنى عند حدود نقد الأدب شعره ونثره، بل تجاوزها إلى نقد فنون المسرح والموسيقى بل والفنون التشكيلية، وما نقده لتمثال «نهضة مصر» بغائب عنا فقد أشرنا من قبل .. وهو النقد الذى عبر عنه د. محمد مندور بقوله: (٢)

---

(١) مؤلفه - حصاد الهشيم - خاتمة - ص ٣٣٤ طبعة دار الشعب .

(٢) محمد مندور - كتابه النقد والنقاد المعاصرون - ص ١٣٦ وما بعدها .

«نحمد للمازنى اهتمامه بهذا التمثال كما نحمد له اهتمامه بمسرحية: غادة الكاميليا. وأخيرا اهتمامه بفنى الغناء والموسيقى العربيين، وقد أخذ عليهما ما لا نزال نشكو منه أحيانا حتى اليوم من الحرص على التطريب أكثر من الحرص على التعبير الصادق، ثم أبدى فيما يختص بغناء الشعر لفتة أصيلة فقال إن كثرة التكرار عند مغنينا لبعض الجمل الشعرية والوقوف عندها أكثر مما يجب وما يحلو انما يرجع إلى ما أخذته جماعة الديوان فى دعوتها الجديدة على القصيدة العربية من التفكك وانعدام الوحدة العضوية، مؤكدا أنه لو تخلصت الأغنية الشعرية هى الأخرى من هذين العيبين لاستقام غناؤنا على نسق الغناء الغربى الذى يعتبره المازنى غناء انسانيا رفيعا. وبهذه اللفتة الأصيلة ربط المازنى بين فنى الشعر والغناء العربيين وهو ربط نرجو أن يحققه ويوسعه جيلنا نحن بحيث تصبح الفنون التعبيرية كافة - بل التشكيلية أيضا - وحدة تخضع للكثير من الأصول الثقافية والجمالية الموحدة. وبذلك يكون للمازنى فضل توجيهنا نحو هذه القضية الهامة، وان كنت أحسب أننا سائرون تلقائيا نحو هذه الغاية بعد أن اتسع مفهوم النقد عند جيلنا الحاضر، فأصبح يقوم على مذاهب فكرية وجمالية تتصارع وتتنافس، كما أصبح لا يقف عند شعر القصائد، بل يمتد إلى كل فنون الأدب الشعرية والنثرية والمستحدثة على السواء».

وهكذا كان للمازنى فضل السبق فى أن يمتد مجال نقده لمختلف مجالات الابداع الفنى بكل صوره، فكان رائدا فى هذه النظرة الشاملة للفن كما كان رائدا لفن السخرية الرفيعة والراقية والعميقة فى ذات الوقت.

★★★

١٠- المازنى .. كاتب - بل مبدع لفن- المقال:

ربما كان الانتقال بالمقال من مجرد مساحة يشغلها كاتب بما لديه من فكرة أو رأى أو خبر، أو مزيج من ذلك كله - إلى فن قائم بذاته.. هو الأثر الذى أحدثه المازنى فى عالم الكتابة. كان المقال - من قبل - حشدا من المعارف أو المعلومات أو الأخبار، وان تضمن بعض الآراء أو الأفكار، تصاغ جميعها فى أسلوب يختلف قوة أو ضعفا باختلاف كاتبه وحظه من الاتقان للغة، والاحاطة بفروعها من نحو وصرف وبيان وبديع - وان احتوى فى بعض الأحيان على صورة فنية، فإنها لا تأتى الا مصادفة.. حتى كانت مقالات المازنى فاذا هى فن خالص، ونسيج متميز، وصياغة غير مسبوقة.. واذا به يجعل من «المقال» عالما ساحرا يرتاده الكثيرون، يسايرون المازنى فى طريقته، ويرتادون ما يرتاده من مجالات متنوعة.. واذا بالمقال يصبح وهو «المادة» الأساسية فى مختلف الصحف والمجلات، واذا به يحتل المكانة الرئيسية، واذا بنا نرى العديدين ممن أصبحوا مبدعين فى مجاله.. ففضلا عمن عرفنا: طه

حسين - العقاد - هيكل - أحمد أمين .. فاننا نقرأ لعبد العزيز البشرى، ولفريد أبو حديد ولمحمد عوض محمد ثم لزكى نجيب محمود.. وتوفيق الحكيم ، ومحمود تيمور . وسلامة موسى.. نقرأ لكل هؤلاء مقالات هي فى حقيقتها أبحاث، وصور، ونتاج أدبى، وفنى، وفلسفى، وسياسى، واجتماعى، واقتصادى... رائع، يقوم على الابداع الفنى من ناحية، وعلى الثقافة الموسوعية من ناحية أخرى على درجات تتنوع من التميز والتفرد بين كاتب وآخر، فلكل منهم أسلوبه، ومنهاجه، وأفكاره.. ولكن يبقى المازنى بينهم هو صاحب القلم المبدع على الدوام - أيا ما كان موضوعه - والذى يحرص فى كل ما يكتب على أن يقدمه تقديما فنيا فيه طرافة، وفيه سخرية، وفيه ثقافة دائما.. ولا تخطئ فى أى من مقالاته روحه المرحة، ولا نزعته الفنية، ولا نظرته التى تقع على ما لا يلتفت اليه الكثيرون..

وكثيرة كثيرة هى المجالات التى ارتادها المازنى.. حتى لقد جعل من الصحف موسوعة ثقافية تغنى قراءها وتثرى حصيلتهم من الفكر والثقافة والآراء الصادقة والنظرات الصائبة.

وقد نلاحظ أن معظم كتبه - حتى الروايات - قد نشرت فصولا منجمة فى الصحف والمجلات المختلفة.

ان مقالات المازنى فى الصحف لأكثر من أن تحصى.. وان أى احصاء لها سوف يغفل عن جانب كبير منها.. لقد بلغ مجموع ما

أحصاه كتاب: اعلام الأدب المعاصر في مصر: ابراهيم عبد القادر المازنى الذى أعده الأستاذان حمدى السكوت - ومارسدن جونز - من مقالات نشرت للمازنى فى مختلف الصحف والمجلات (٢٠١٢) مقالا.. وذلك اضافة إلى كتبه وأحاديثه، فانظر كيف كان كاتبا ثريا مثريا حتى ليمكن القول إنه ما كان يمر يوم الا وتقرأ له مقالا أو أكثر فى العديد من الاصدارات الصحفية.. وذلك كله اضافة إلى ما نشره دون توقيع، وما أحسبه الا كما كبيرا أيضا.

★★★

وقد أفرد الدكتور محمد يوسف نجم بين صفحات كتابه «فن المقالة» حيزا كبيرا تناول فيه فنية المقال عند المازنى.. ففى أكثر من موضع رصد سمات «المقالة» عند المازنى:

«تلجأ إلى تقسيم المقالة الحديثة إلى نوعين هما: المقالة الذاتية والمقالة الموضوعية.. ففى النوع الأول تبدو شخصية الكاتب جلية جذابة تستهوى القارئ، وتستأثر بلبه، وعدته فى ذلك الأسلوب الأدبى الذى يشع بالعاطفة ويثير الانفعال، ويستند إلى ركائز قوية من الصور الخيالية والصفة البيانية والعبارات الموسيقية والألفاظ القوية الجزلة. والمثل الواضح على ذلك مقالات لام فى الأدب الانجليزى ومقالات المازنى فى أدبنا..» (١)

---

(١) دكتور محمد يوسف نجم: فن المقالة - دار الثقافة ببيروت - ط رابعة - ص ٩٦.

ويقول فى موضع آخر.

«ولكن القيمة الحقيقية للمقالة، تعتمد فى المقام الأول على مدى تجليتها للشخصية الانسانية التى تتوارى خلفها فى خفة وحياء.. ان شخصية الكاتب الأليفة العذبة هى التى تستهوى القارئ، وتملك عليه أقطار نفسه، بما فيها من خفة وسحر وجاذبية وتـــألق، وذوق مصقول لا تفسده فظاظة، ولين، لا يتدنى إلى درجة الميوعة. وكذلك مقالات المازنى لا تستهوينا بما فيها من الأفكار العميقة والآراء المنيرة: بل بما فيها من براعة فى التصور، ومقدرة على انتزاع الفكاهه من أكثر وجوه الحياة عبوسا وتجهما» (١)

وأحسب ان عبارته الأخيرة، كان ينبغى أن تصاغ هكذا: «مقالات المازنى قد لا تستهوينا أحيانا بما فيها من الأفكار العميقة والآراء النيرة، ولكنها تستهوينا دائما بما فيها من براعة فى التصور، ومقدرة على انتزاع الفكاهة من أكثر وجوه الحياة عبوسا وتجهما»

وداعينا إلى ذلك هو ما قدمناه مما كان يتسم به فكر المازنى - فى الحقيقة - من عمق وأصالة، وربما كانت نزعته إلى الفكاهة والاستخفاف هى التى أدت بالبعض إلى التوهم بأن فكره غير متعمق.. ولكنه ظن ما يلبث ان ينمحى بعد دراسة فكر المازنى دراسة مؤصلة..

---

(١) المرجع المذكور - ص ١٢٩ .

وهو ذاته ما قرره نفس الكاتب فى موضع آخر حيث قال « .. وهذا لا يعنى ان المازنى أقل حكمة وعقلا من رفيق عمره، ورصيف صباه - العقاد - بل ان نظرته إلى الحياة فى بعض الأمور أشد عمقا، واكثر أصالة، ولكنه مرح فكه ثرثار عابث» يرضيه ان يبث قارئه كل ما فى قلبه، أما العقاد فلا يتيح لأفكاره ان تستقبل القراء الا بعد ان يستمد لها مقصا حادا قاسيا لا يرحم» (١)

★★★

والدكتور نجم يفرد الفقرات التالية ليرسم صورة كاملة لفنية المقالة عند المازنى . (٢)

« .. والمازنى كلما حاول الجد - وهو قلما يحاول ذلك - خانته طبيعته فاستثقل مسوح الوعاظ، وألقى عن كاهله طيلسان المفكر العابس، أو الأستاذ الجامعى المتزمت، فكأنه كان يكتب كتبه، ونصب عينيه قولة مونتين المشهورة : (هذا الكتاب يقوم على موضوع بيتى خاص، وقد وقفته على أصدقائى ، حتى إذا ما افتقدونى - وهذا ما سيحدث سريعا - وجدوا فيه بعض ملامح من أحوالى وفكاهتى ، وهكذا يتاح لهم أن يحتفظوا بمعلوماتهم عنى على صورة أكمل، وبطريقة أكثر حيوية) .

---

(١) المرجع المذكور - ص ٨٦ .

(٢) المرجع المذكور - الصفحات من (٨٦) إلى (٨٩) .

ولذا فهو يسعى أن يعرض على القارىء صورة نفسه، صادقة ، واضحة ، بما فطرت عليه من دماثة أو جمال، وبما امتازت به من أساليب فى التفكير والتأمل، وما علق بها من غبار التجارب، وما جنته من ثمار الحياة، حلوها ومرها، ناضجها وفجها، وكان إذا ما وضع القلم على القرطاس ، انهالت عليه الأفكار الطريفة، والصور المونقة، واللفتات البارعة، فتدفق فى حديثه وتبسط ، وأفرغ ما فى نفسه دون تمويه أو تصفية، وكأنه يرى أن حياته الخاصة ، ملك للبشرية ، فلا يضن بها على الورق، صدقها القارىء أو لم يصدقها، وهو لا يعرض الموضوع بمقدماته ، ونتائجه ، ليقدم إليك صورة واضحة من عملية التفكير ، بل يحيلك إلى موضع الأسرار من نفسه، فيعرض عليك انبثاق التجارب فيها ونموها واكتمالها، وهو يرى أن كل شئ تقع عليه عينه يصلح لأن يكون موضوعا للكتابة ، فهو يتقبل المنحة سواء كانت من يد عجوز شمطاء أو من يد غادة لعوب ، وعالمه هو عالم الأساطير والخرافات الشعبية ، تتنزى فيه أشباح الموتى واللصوص وقطاع الطرق وخفافيش الليل [1] فى صميم قلبه حزن دفين يعبث به، ويخفف وطأته على نفسه بالسخرية والضحك، واحساس بضياع الحقيقة فى مجتمعه ،

---

(١) نجد لذلك أمثلة من تلك الصور التى تضمها دفتا كتابيه . صندوق الدنيا وخيوط العنكبوت حيث إن بها فصولا عديدة عن صور من طفولته وصباه .. وهى من أمتع ما عرفه الأدب العربى من كتابات نثرية .

فهو يدور من حولها ، ولا يحوم ولا يرد ، يضحك من نفسه ، ومن قارئه ويجسم عاهاته ونقائصه، ويتصرف تصرفات (دونكيشوتية) ويجول في آفاق الحلم واليوتوبيا، وهو قادر على أن يفاجئك دائما وأن يأتيك من مأمنك بذهن متوقد وحيوية متدفقة ، ومرح يبعث على الضحك المجلجل الصريح .

يبدأ مقالاته أحيانا ببعض الخواطر العابرة ، أو الأفكار التافهة ، ثم ينتقل إلى الجد، ولكن بطريقته الخاصة، وهو يخدع القارىء عن نفسه ويوقعه في حبائله بسهولة ويسر، حتى يظن أنه أمام عابث لاه ، لا عمل له إلا السخرية والضحك ، ولكنه في الحقيقة بعيد الغور عميق القرار . فهو حين يحدثك عن خصوصياته ، عن زوجه وابنته وأبنائه وجدته العجوز ، يشعرك بأنه يجاذبك أطراف حديث سخيف لتزجية الفراغ وقتل الوقت، فلا تنخدع بذلك ، إنه يخفي بعمله جوهر الحقيقة - حقيقة النفس المتألمة الحزينة التي ترى أن خير وسيلة لنسيان الألم ، هي مبادرته باللهو والعبث واللامبالاة ، فمرحه مبطن بحزن دفين ، ومن هنا نلمس هذا التناقض الخفي في آرائه وصوره ، فهذا المرح المولع بالفكاهة والنكتة يقشعر بدنه، ويقف شعره عند ذكر الموت. وهذا الشاك الذي لا يؤمن بأي شئ ، يتعلق دوما بحبال الدين ، ويتدنى في إيمانه إلى منزلة إيمان العجائز ، ويرنو بعينيه إلى المثل العليا، ولكنه يرى في نفسه عجزا عن بلوغها ، منبعه كسب ركب في

طبيعته ، أو شك فى مقدرته وفضائله ، وهو أثناء ذلك كله متمسك بأثارة من الفكاهة التى تظهر على صور مختلفة ، وتتجلى فى مواقع متباينة ، هى مرح سطحى هنا ، وعبث لاه هناك ، وسخرية لاذعة مرة هنالك ، وبهذا وحده كان المازنى نسيج وحده فى أدبنا ، بل هو ظاهرة لم تتكرر فى أدبنا المعاصر، وإن تكررت مرتين فى أدبنا : فى الجاحظ والشدياق .

★★★

ولعل خير ما نختم به هذا الموضوع هو تلك الخاتمة التى أوردها الدكتور محمود أدهم فى نهاية بحثه القيم : إبراهيم عبدالقادر المازنى : بين التاريخ والفن الصحفى - فقد كان ختام بحثه المطول قوله :

«نقول .. إن هذه الجوانب المازنية كلها ، سوف تبقى من الرجل للتاريخ والفن والدرس الصحفى معا :

١ - إنه من أفضل وأصدق «النماذج البشرية» التى تقدم صورة واضحة لمكونات الكاتب الصحفى .. وثقافته .. واهتماماته .. فالرجل قد كرس وقته وجهده منذ أيام نشأته الأولى وحتى وفاته للقراءة والدراسة والثقافة العامة ..

٢ - إنه من خلال حياته عامة ، وكتاباته خاصة يقدم الدليل الحى والهام أيضا ، على ضرورة أن يكون محررا أو كاتبا - قريبا من المجتمع ، لصيقا بأفراده يفكر كأحدهم، ويحس بإحساسهم ، ويشعر

بمشاعرهم ، يفرح لفرحهم ، ويتألم لآلامهم ، ويترجم ذلك كله إلى مادة كتابية تنعكس عليها صور اهتماماتهم، وتشخيص أدوائهم ، وتحاول أن تقدم لها العلاج المناسب ، والدواء الناجح .

٣ - فإذا انتقلنا من ذلك إلى جانب تدريس ما يعنيه القول المأثور : الأسلوب هو الرجل أو الشخص نفسه، وما يتصل به من ظلال ، وما يرتبط به من صور لم نجد كذلك أفضل من تلك الزوايا العديدة التى تقرر فى النهاية أن حياة المازنى ، بما خاضه من تجارب ، وبما عركه من خبرات ، وما طاف به من قراءات ، وما سبر غوره من دراسات . جميعها أورثته نظرة خبيرة وفكرا شموليا وحسا مرهفا، ودقة ملاحظة تلتقط - كأفضل المحررين - أصغر وربما أقل - التفاصيل وأكثرها «تفاهة» فى نظر البعض، فإذا هى تتحول إلى لغة تقرأ خلال سطورها ذلك كله ، وإلى أسلوب يعكس صدق التجربة وعمق الاحساس ، وفضيلة الثقافة .. نعم .. كان أسلوب المازنى هو خير دليل عليه، وعلى حياته ، وصورها ، وشاهدها ..

٤ - وأنه من طليعة الكتاب الذين تحملوا مسئولية الكتابة الوطنية والقومية معا فى وقت عز فيه هؤلاء ، بل وفى موضوعات جديدة تتحدث عن جرأتهم وشجاعتهم ، وصدقهم مع أنفسهم .. معا دون خوف أو وجل من منصب أو جاه أو سلطة أو نفوذ .

بل إنه مما يحسب له تماما على الرغم من اختلاف الأوقات والسياسات والزعامات أنه مد بصره فى اتجاه جمع شمل العرب، وكان من أوائل الذين تحدثوا ، وبإسهاب عن وحدة العرب، وتضامنهم خلال هذا القرن .

٥ - إنه فى كتاباته الصحفية ، كان يكتب على الفور، وكانت كتابته «بنت لحظتها» .. حالية دائما، تعكس حسا صحفيا تحريريا بالغ الدقة، ومقدرة فنية على تصيد الأفكار فى سرعة مذهلة، وعلى تغطيتها من جميع زواياها .. كل ذلك ، فى أى مكان يوجد به ، فى منزله أو مقر الصحيفة ، أو المقهى ، أو حتى وبعض الأصدقاء يجلسون إليه ..

٦ - إنه يعتبر دون شك بأفكاره المتنوعة ، ومادته غير الحالية ، وأساليبه التى جمع فيها بين الأسلوبين الأدبى والصحفى ، وبما أضفاه على جوانب تحرير وحداته الفنية ، من مزيج رائع يجمع بين الذوق الأدبى والحس الصحفى ..

٧ - وأما فى جانب فنون وأنماط التحرير الصحفى ، وتأسيسا على ما سبق تقديمه من مادة فإننا نستطيع أن نقول إن الرجل كان وفى وقت واحد :

- أبرز رواد فن «المقال القصصى» فى الصحافة العربية عامة، المصرية خاصة ، بكل ما يتصل به من فكر ومضمون وتعبير وأساليب .

– وأنه كذلك من أبرز رواد «المقال الفكاهى» فى هذه الصحافة بما يتصل به كذلك من أفكار ومضامين وأساليب تحريرية وملامح كاريكاتورية وساخرة .

– وأنه له ابداعه الأدبى الصحفى عامة ، المجلاتى خاصة ، فى مجال «الصور القلمية» الصحفية هنا ، بما اتصل بها من دقة انتقاء ، وحسن تصوير ، وحتى فى حالات نقدها ، أو الهجوم عليها .

– ان مقالاته النقدية عامة ، والنزالية خاصة ، والتحذيرية على وجه التحديد لها موقعها «الاستراتيجى» المهم والفريد أيضا على خريطة هذا النوع من المقالات .

٨ – وأما فى جانب وحداته التحريرية الفنية : العنوانات والمقدمات والنصوص والنهايات ، فإن دراسة النتاج المازنى تضع يد الدارسين والباحثين على أن الرجل :

– من خيرة صناع ومبدعى «العنوانات» على كل ألوانها وأشكالها .

– وقد أتقن كتابة عدد من المقدمات بما يدل على معرفته الكاملة بها ، وفهمه لمسئوليتها .

– وأما عن النص أو المضمون أو الجسد ، فهو أحد المبرزين فى كتابة مادته وفق قوالب القصة والعرض والحديث ، بل والحوار

أيضا، بل لقد مزج مزجا يثير التعجب بين أكثر من قالب تحريرى واحد ..

٩ - ثم كتاباته الداعية إلى حرية القلم، والتعبير ، المؤيدة لها ، الحاثة عليها ، والتى تعتبر صفحة بيضاء فى تاريخ حرية الصحافة .. ويتصل بذلك دفاعه عن مهنة الصحافة عامة ، وجدارتها بأن تكون من المهن العظيمة المحترمة ، واستحقاقها لنظام يحفظ عليها كرامتها ، ويليق بها ، ومشاركته من خلال ذلك فى انشاء نقابة الصحفيين، بما مر بها من تطورات ، وعضويته لعدد من مجالسها الأولى .. كما يتصل بذلك أيضا دفاعه عن غيره من المحررين والكاتبين ، فى حال تعرضهم للاعتقال أو السجن .. وهو موقف كريم يحسب له .. وللقلة من أمثاله».(١)

★★★

هذا هو المازنى «كاتب مقال»

ولو راجعنا كتبه التى نشرت وما ضمته مما كتبه من مقالات لوجدنا أنها لم تضم إلا قلة قليلة مما أبدع المازنى من مقالات شغل بها الصحافة والصحف والمجلات طوال أربعين سنة متصلة .. ظل طوالها يغذيها بكتاباته : مقالات وقصصا وصورا قلمية .. وما يزال هذا

---

(١) دكتور محمود أدهم : رواد الصحافة العربية (٢) - ابراهيم عبد القادر المازنى بين التاريخ والفن الصحفى - الصفحات من (٢٤٩) إلى (٢٥٥) .

الإبداع «المقالى» تنطوى عليه تلك الصحائف التى لم يعد إلى قراءتها أو الاطلاع عليها من سبيل .

إننا بازاء إنتاج ضخم ، ومتنوع ، بل هو ثروة نعتز بها ، وينبغى أن نعمل على احيائها ، وبعثها ، وإعادة نشرها على قارىء اليوم، وانني لأثق أنها سوف تلقى قبولا واقبالا منقطعى النظير .

وعسانا أن نوفق إلى استخراج بعض هذه الكتابات من بطون بعض الصحف والمجلات ، وإن كان جهدنا لن يقوى على الغوص فى كل الصحف، والوصول إلى ابداعاته المتنوعة .

إننا بإزاء مهمة على قدر كبير من الأهمية فليت الجهود تتضافر لاستخراج ابداعات المازنى، وتصنيفها ، ودراستها ، وعرضها .. فهى جديرة بذلك وتستحق كل جهد يبذل من أجل احيائها ..

ورحم الله المازنى بما أهدى من فكر ، وبما قدم من فن، وبما أبدع من إبداعات فقد كان رائدا صادقا ، وعلما متميزا ، وقلما معبرا .. رحمه الله .

★★★

القاهرة فى ١٩٩٧/٨/١

أحمد السيد عوضين

مؤلفات المازنى

نقتصر هنا على ما ظهر للمازنى من «كتب» مطبوعة ، دون مازال مخطوطا لم ير النور ، ودون مقالاته المتفرقة التى مازالت مطوية فى بطون الصحف والمجلات .

١ - حصاد الهشيم - ١٩٢٧ .

٢ - قبض الريح - ١٩٢٧ .

٣ - صندوق الدنيا - ١٩٢٩ .

٤ - خيوط العنكبوت - ١٩٣٥ .

٥ - بشاربن برد - ١٩٤٤ .

٦ - رحلة الحجاز .

٧ - ديوان المازنى ثلاثة أجزاء ١٩١٣ - ١٩١٦ - ١٩٦٢ .

٨ - الشعر : غاياته ووسائطه - ١٩١٥ .

٩ - شعر حافظ - ١٩١٥ .

١٠ - الديوان بالاشتراك مع الأستاذ العقاد .

١١ - إبراهيم الكاتب - ١٩٣٢ .

١٢ - فى الطريق - ١٩٣٦ .

١٣ – ميدو وشركاه – ١٩٤٣ .

١٤ – عود على بدء – ١٩٤٣ .

١٥ – ثلاثة رجال وامرأة – ١٩٤٣ .

١٦ – ابراهيم الثانى – ١٩٤٤ .

١٧ – ع .. الماشى – ١٩٤٤ .

١٨ – من النافذة – ١٩٤٩ .

١٩ – غريزة المرأة – أو حكم الطاعة .

٢٠ – ابن الطبيعة – ترجمة – سنة ١٩٣٠ .

٢١ – مختارات من القصص الانجليزى – ترجمة – سنة ١٩٣٩ .

٢٢ – سبيل الحياة – نشرت بعد وفاته .

٢٣ – قصة حياة – نشرت بعد وفاته .

٢٤ – من أحاديث المازنى – نشرت بعد وفاته .

رقم الايداع ٩٨/٤٥٩٩
I. S. B . N
977 - 07 -0585- 3

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N



استمتع بالخدمة المتميزة وكرم
الضيافة بأحدث طائراتنا
أكثر من ٤٠٠ رحلة اسبوعياً إلى
٤٤ مدينة عالمية ومحلية
مصر للطيران
سماء بلا حدود

هذا الكتاب

يصدر هذا الكتاب وقد أوشك أن يكتمل نصف قرن من الزمان منذ أن غادرنا «المازنى» إلى عالم الخلود ، مخلفاً من بعده زاداً لا ينفد من الانتاج الفكرى والفنى . ولا يقصد هذا الكتاب إلى إحياء ذكرى أديبنا الراحل (ابراهيم عبد القادر المازنى - ١٨٨٩ - ١٩٤٩) ، فذكراه باقية خالدة على مر الزمان ، بقدر ما يهدف - فى المقام الأول - إلى تقديم ذلك الرائد المبدع إلى أبناء جيلنا المعاصر ممن لم يعايشوه ، ولم يتعرفوا عليه فى حياته . وقد كان أفضل سبيل لذلك التقديم هو أن يتولاه صاحب السيرة بنفسه ، وأن يكون التعريف به بقلمه هو مستمداً من واقع ما كتب وأبدع . حتى سيرة حياته كانت كتاباته هى المرجع الأول لها . وقد حرص الكتاب على أن يعرض مختلف جوانب الابداع المازنىّ ، فتناوله شاعراً مجدداً ليبرز دوره الريادى فى الشعر الحديث - كما تناوله روائياً شارك فى إرساء فن الرواية العربية ، كما قدمه كاتب قصة قصيرة ومبدع صور قلمية تظل رغم مرور الزمان محتفظة بجدتها ورونقها . وكذلك حرص الكتاب على التعريف به ككاتب مقال متميز ، وصاحب رأى أصيل يرتاد مختلف مجالات النقد الأدبى والفكر الاجتماعى فلا يعبر إلا عن نفسه ، كما تناوله [illegible] سياسياً لا تقف مقالاته عند شئون الوطن الداخلية بل تتجاوز[illegible] الوطن العربى كله .

وقد كان المازنى فى ذلك كله صاحب أسلوب متفرد ، تشيع [illegible] حانية ، وفكاهة رقيقة ، مع سلامة فى العبارة .

رحم الله المازنى بما أهدى من فكر سيظل محتفظاً بمكانت[illegible] من فن رائع وأصيل ، وبما ترك من إبداعات لا تبلى مع مر ال[illegible] كان رائداً صادقاً ، وعلماً متميزاً ، وقلماً معبراً .. رحمه الله .